

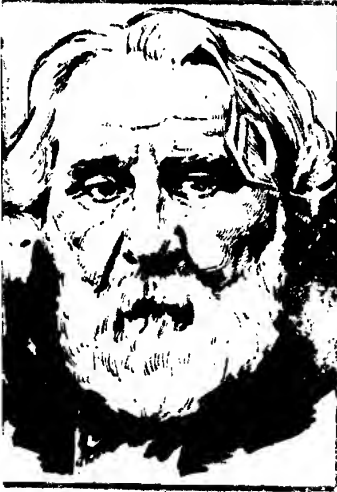
دخنان



ایقان تورجنیف

منتدی مکتبه الاسکندریه

هذه الرواية



ايفان تورجنيف

« دخان » هي احدى الروايات
المتعة انهماة التي كتبها الروائي
الروسي العالمى الكبير « ايفان
تورجنيف » ١٨١٨ - ١٨٨٣ « .
وقد كان لهذه الرواية قيمة ادبية
وفكرية بعد أن انتقلت بسرعة شديدة
من روسيا الى أوروبا عن طريق
الترجمات المختلفة . انها احدى
الاعمال الفنية التي تجلت فيها
الذرات « تورجنيف » الفنية والفكرية
العالية ، فهو فنان رقيق متميز
كتابته بالشاعرية الموهبة ، وهو عذو
لكل ما فى الحياة من قبح ، سواء
كان هذا القبح فى المجتمع او فى
الانسان ، وهو صاحب موهبة روائية
ساحرة متممة . . . تجرى الاحداث
والمواقف المختلفة من بين يديه كأنها
قطعة من الموسيقى الساحرة الجميلة
تهز العواطف وتلما القلب بالمشاعر
والانفعالات . وهو الى جانب ذلك
كله عميق الفهم للحياة والانسان
بشكل يملح فله عمقا فكريا كبيرا .
وقد ترجم هذه الرواية للعربية
المؤلف الدكتور شكرى عياد
استاذ الادب العربى فى جامعة
القاهرة . . . انها رواية عالمية رائعة
تقدمها روايات الهلال فى ترجمة
كاملة دقيقة متممة .

دخان

بقام

ایشان تورجنیف

ترجمة

دكتور شكري محمد عياد



تقديم

حوالى منتصف القرن التاسع عشر كان يلوح على الافق الاوروبى ظل كبير . . ظل الثورة الفرنسية و نابليون بونابرت . لقد عاد آل بوربون الى فرنسا كما كانوا قبل الثورة ، ومات نابليون ، شبه مجنون ، فى جزيرة سانت هيلانة ، ولكن كلمة الحرية ظلت تتردد فى ارجاء اوربا فتتلفها الملايين . وعلى الرغم من « الحلف المقدس » وهجمات الرجعية المستأسدة فقد استمرت ثورات التحرر الوطنى ، كما استمرت حركات المطالبة بالحكم النيابى ، فتحررت ايطاليا ، وتكررت الثورات الوطنية فى المجر ، وبولندا ، وعادت الجمهورية فى فرنسا ، وفرض الاحرار الالمان حكومة ديمقراطية .

وفى هذا الجو كانت « روسيا المقدسة » ، وريثة الامبراطورية البيزنطية ، وحامية الدين المسيحى ، هى المعقل الاول للرجعية . وكان دور القيصرية فى مقاومة الحركات التحررية دورا متعدد الواجه . كانت تفرض على بولندا وسائر مستعمراتها فى اوربا ، وآسيا عبودية ابدية ، وتخدم ثوراتها بعنف دموى . وكانت تضع جيوشها فى خدمة الرجعية الاوربية المرتبكة ، كما فعلت فى ثورة المجر وكانت فى روسيا نفسها - تقمع بقسوة كل نزعة فكرية تشتم منها رائحة الحرية ، وكل دعوة اصلاحية تحبذ - سرا او علانية - الحكومة الشعبية .

وفى حى القمع والارهاب لم تكن الرجعية تفرق بين الافكار المعارضة لمصالحها حقيقة وبين الافكار التى يمكنها أن تستغلها وتستخدمها . كان « السلافوفيل » فى كثير من الاحيان يلقون من التنكيل مثلما يلقيه « الغربيون » مع أن السلافوفيل كانوا يقدمون انى الرجعية الروسية تكتة قوية لمقاومة الثورة ، وأساسا نظريا للمحافظة على القديم ، فقد كانوا يذهبون الى أن الحضارة الاوربية قد دب فيها الفساد ، فلا ينبغى أن تستعير روسيا من الغرب ،

بل يجب عليها أن تحافظ على نظمها « السلافية » الاصيله .
وكان خصومهم الغربيون - على العكس - يدعون الى الاقتباس
من الغرب والتلمذة له ، ومعنى ذلك ، فى ذلك الوقت ، اقتباس
وسائل الانتاج الحديث ، ونظم الحكم الديمقراطى ، وتراث العلم
العالمى وأشكال الفن المتطور .

وكان تورجنيف من هذا الفريق الاخير . وقد ذهب الى أوروبا
شباباً ليدرس الفلسفة فى إحدى الجامعات الألمانية ، ولينفَس
بحرية فى جو فكرى بعيد عن ارهاب القيصرية . ولكنه لم يكن
« هارباً » ولم يكن متنكراً لوطنه ، بل لعله كان ، فى فراره من
بلاده ، وطنياً حاد الوطنيه . وعاطفة تورجنيف نحو وطنه -
وهى العاطفة التى تجلت فى « دخان » وعبر عنها اصديق تعبیر
عنى لسان « بوتوجين » - تظهر فى هذه الكلمات التى وصف
بها حالته فى صدر شبابه .

« ان الحركة التى كانت تدفع بآترايى من الشبان الى البلاد
الاجنبية كانت تعيد الى الذاكرة صورة أولئك الصقالبه الاقدمين
الذين ذهبوا يبحثون عن أمراء لهم بين «الفارج» وراء البحار(١) .
فكل منا كان يحس احساساً عميقاً ان « أرضه » (ولا أعنى
الوطن على التعميم بل تراث الآباء الخلقى والفكرى) « أرض عظيمة
غنية ولكنها خلو من النظام » . واستطيع ان أقول عن نفسى
اننى شعرت شعوراً أليماً بمساوئ هذا الانتزاع من منبتى الاصلى ،
وهذا القطع العنيف لكل صلة تربطنى بالبيئة التى شبت فيها
.. ولكنى لم اكن استطيع غير ذلك . فان هذه الحياة ، وهذا
الوسط ، وبخاصة هذه الدائرة التى كنت منتمياً اليها دائرة ملاك
الأرض وأصحاب العبيد ، لم يكن فيها ما يدعونى الى البقاء . بل
على العكس ، كان كل ما أراه حولى تقريباً يبعث فى نفسى شعور
القلق والثورة ، او باختصار شعور الأشمئزاز . فلم أستطع التردد
طويلاً ، اذ لم يكن بد من احدى اثنتين : اما أن أخضع وأسير
بهدهوء فى الدرب المطروق ، واما أن أنتزع نفسى دفعة واحدة ،
وأخلص من كل شيء وكل انسان ، وان أدى ذلك الى حرمانى

(١) يشير تورجنيف الى نزع احدى قبائل اسكندناوة الى روسيا فى مسأله
القرن التاسع وتأسيسهم الامارات هناك . وقد ورد ذكر هذه الوقعة فى « دخان » .
والعبارة الموضوعه هنا بين أقواس هى العبارة التى يروى أن مبعوثى الصقالبه قالوها
لأمراء الفارج .

أشياء كثيرة حبّية الى قلبي. وكان ذلك هو السبيل الذي اخترته. فالتقيت بنفسى فى « الخضم الالمانى » ليطهرنى ويحدد حياتى ، حتى اذا خرجت من مياحه وجدت نفسى « غربيا » ، وكذلك بقيت. فلم أستطع أن اتنفس وأعيش وجها لوجه مع ما كنت أكره ، ولعلله كان يعوزنى السيطرة على النفس وقوة الشخصية اللازمتان لذلك. كان على أن أبتعد عن عدوى مهما يكن الثمن ، كى أسدد إليه عن بعد ضربات أشد قوة . وقد كنت أرى لهذا العدو وجها واضع القسّمات وكان له عندى اسم معروف . كان عدوى هو حق الاسترقاق . وتحت هذا الاسم جمعت كل ما كنت عازما على مصارعتة الى النهاية ، كل ما أقسمت على محاربته بغير مهادنة. كان ذلك عندى هو قسم هانيبال . ولم أكن وحدى صاحب هذا القسم . وذهبت الى الغرب كى أبر بقسمى .. »

وحوالى سنة ١٨٤٧ ، كان تورجنيف فى روسيا . وبدأ ينشر صورا من حياة الفلاحين كانت معولا من المعاول القوية التى وجهت الى نظام الرقيق . وكانت قوتها فى واقعيتها الانسانية التى اظهرت هؤلاء الفلاحين الارقاء ، لأول مرة فى تاريخ الادب الروسى ، فى مشاهد حياتهم العادية القاسية ، وصورت آمالهم وآلامهم ، فكانها نبهت الى أنهم بشر كغيرهم من الناس . وقد جمع تورجنيف هذه الصور فى كتابه «مشاهد من حياة صياد» (١٨٥٢) وعوقب بالنفى الى الريف . ولكن الرجعية لم تستطع أن تمضى فى استبدالها الى النهاية . فان الفلاحين أنفسهم بدأوا يثورون ، وتكررت حوادث العصيان الجماعى حتى بلغ عددها فى سنة ١٨٤٨ وحدها أربعة وستين . وأدت سياسة القيصر نيكولاس الاول العدوانية الى حرب القرم سنة ١٨٥٤ ضد الدولة العثمانية، وجاربت انجلترا وفرنسا فى صف العثمانيين وهزمت روسيا هزائم متلاحقة حتى اضطر القيصر الكسندر الثانى الذى تولى العرش سنة ١٨٥٥ الى عقد الصلح بعد خسائر جسيمة لم تحصل البلاد من ورائها على فائدة ما . ثم بدأ سلسلة من الإصلاحات كان أولها وأهمها إلغاء الرق سنة ١٨٦١ ، وجاءت بعد ذلك قوانين التجنيد الإجبارى ، وفتح الجامعات أمام أبناء الشعب، وادخال نظام المحلفين فى المحاكم الروسية ، ولكن الرجعية كانت تنظر شزرا الى هذه الإصلاحات ، وتحيطها بمختلف المراقيل ولم تلبث أن كشفت وجهها ثانية ، ففى سنة ١٨٦٥ رفض القيصر طلب النبلاء تأسيس مجلس

نيابى ، وتلا ذلك تعطيل الصحف الحرة ، وإذاعة منشور رسمى يدعو الشعب الى « مقاومة الافكار الخبيثة التى تهدم الدين والنظام والملكية الخاصة » . وبينما كانت الرجعية تشدد قبضتها بدأ الفكر الروسى يتحول من التحرر الى الثورة . وكما هى العادة دائما فى مثل هذا التحول امتلأت أجواء المثقفين بالبدع الفكرية ، والدعوات الكاذبة ، والمغامرات الصبانية . وكان هذا هو الجو الذى كتب فيه تورجنيف « دخان » سنة ١٨٦٨ .

صور تورجنيف فى « دخان » جماعات من المفترين الروس فى مضيف المانى . فصور المجتمع الأرستقراطى بأناقته وتفاهته وفراغه وانحلالة . كما صور مننديات أكثر شعبية ، مننديات ادعياء التحرر بمناقشاتهم العقيمة وخضوعهم الأعمى لشعار أو قائد . والتقط عيوب هؤلاء وأولئك بعين نافذة خبيرة ، وصورها بدقة حفار ، فجعلها نماذج رائعة للهجاء الواقعى . على أن هذه الصور ليست مجرد هجاء سياسى ، بل أن وراءها احساسا مرا ، احساسا تراجيديا بضياىع الجهد الانسانى واضطراب الفكر الانسانى ، وغموض المصير الانسانى . وقد لخص الروائى هذا الاحساس فى عنوان الرواية « دخان » الذى اخذه من هذه الفقرة قرب الخاتمة ، وهى تذكرنا تذكيرا قويا بسفر الجامعة :

« وجعل ينظر من نافذة القطار . كان الجو أغبر رطباً ، لا مطر فيه ، ولكن الضباب لا ينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء . وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع امام النافذة التى جلس اليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها خالص وبعضها ممتزج بسحب الدخان القائمة . وأخذ لتفينوف يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ، ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتولى وتتعلق بالأعشاب والشجيرات ، وكأنها تلعب فى احدى المساحر . ثم تتمدد وتذوب فى الفضاء .. كانت تتبدل دائما وهى لاتزال كما هى .. لعبة سريعة سخيصة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمينا او يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من النافذة المقابلة . ثم ينتشر الدليل الضخم مرة أخرى فيحجب عن بصر لتفينوف سهل الرين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه شرود غريب .. كان وحيدا فى المقصورة ، لم يكن هناك من يزعجه ، فردد مرات عديدة : دخان . وفجأة بدا له

كل شيء دخانا - كل شيء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل
ما هو بشرى ، وعلى الخصوص كل ما هو روسي . الكل دخان
وبخار - هكذا قال لنفسه - كل شيء يبدو دائم التغير ، في كل
مكان أشكال جديدة ، أحداث بعد أحداث ، وكل شيء كما هو في
الصميم . كل شيء يسرع طائرا الى وجهة ما ، وكل شيء يتلاشى
دون ان يترك أثرا أو يبلغ أمرا ، وتتغير الريح ، فيسرع كل شيء
في الاتجاه المضاد ، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلقة العقيم .
وتذكر كثيرا مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث
أحبطت بالضجيج والتهريج ، فهمس : دخان ، دخان . وتذكر
أنجل العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس
آخرين منهم الشبان والشيوخ ، البسطاء والعظماء ، التقدميون
والرجعيون .. فردد . دخان ، بخار ودخان . وتذكر أخيرا تلك
النزهة الانيقة ، وتذكر خطبا وتصريحات وأشخاصا آخرين يعدون
أنفسهم لأكبر المناصب حتى كل مواعظ بوتوجين .. دخان ،
دخان ، لا شيء أكثر من دخان وجهوده وعواطفه وآلامه وأحلامه ؟
لم يستطع لتفينوف الا أن يلوح بيده في قنوط .

ولكننا ننسى أن « دخان » رواية وليست سياسة .
فالسياسة في « دخان » ، كما هي في معظم الروايات ، مرتبطة
بقصة حب . والكاتب البارع هو الذي يجعل الحب والسياسة
وحدة ، فتتداخل الحوادث السياسية في حوادث الحب ، وتؤثر
فيها ، وقد تتأثر بها . ولكن الكاتب الأبرع لا يحتاج دائما الى
اصطناع مثل هذا الربط في العقدة - وكثيرا ما يكون متكلفا - بل
يقدمهما معا كعنصرين في جو واحد ، ويحقق التلاؤم بينهما بمبادئ
شكلية غير تسلسل الحوادث التي يؤثر بعضها في بعض . وهذا
ما نجده في « دخان » .

فلتفينوف ، الشاب الأمين المثابر الذي يقع تحت سلطان عاطفة
غشوم مستعرة نحو امرأة أرستقراطية نارية ، وهو في الوقت نفسه
قد خطب قريبة له يتمثل فيها نموذج الفتاة الطيبة الحنون في
أسر نبلاء الريف المتوسطي الحال - لتفينوف لا يشارك في المناقشات
السياسية وغيرها الا متفرجا ، ولا يحتك بالشخصيات الارستقراطية
أو بأدعياء التحرر الا مرغما . لأنه « ان شئت الحقيقة ليس لي
آراء سياسية » . على أن الحقيقة هي أنه ضنين باستعمال كلمة
السياسة لمثل هذا الضجيج المتنافر الذي يسمعه عند ادعياء

التحرر واقطاب الارستقراطية جميعا . ولكن كبرياءه الشعبية
النظيفة تثور اذا سمع هجوما على حق الشعب في التعلم او في
التملك او في الحرية . ان السياسة عنده تتلخص في كلمتين :
« الحرية ، والعمل » . وحين يعود الى بلاده يجد ان آراءه هذه
التي رفض ان يسميها آراء سياسية كانت اقرب الى الصواب
من كل ما سمعه من أولئك « الثوريين » الذين تنكروا لمبادئهم بعد
قليل . فقد « كانت المبادئ الجديدة (مبادئ الاصلاح) لم
ترسخ اصولها بعد ، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوة . كان
الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذي اهتز من اساسه
يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك الا كلمة واحدة عظيمة
تترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية » . ولعل هذا هو
الدرس السياسي الذي اراد تورجنيف ان يؤديه في « دخان » .
ولكن هذا الدرس ، والاجواء السياسية التي مهدت له ، لا تكاد
تتصل بالقصة العاطفية بالمعنى الشائع من الاتصال وهو التأثير
المتبادل بين نوعين من الاحداث . فكيف ربط تورجنيف بينهما ؟
ان الرباط هنا رباط شعورى يظهر في الفقرة التي سبقتها
الإشارة اليها . لقد فكر لتفينوف في « جهوده وعواطفه وآلامه
واحلامه » بعد ان مرت بمخيلته ذكريات الاحداث السياسية
التي احيطت بالضجيج والتهريج ، والجدل العنيف والصياح
والنقاش عند اناس كثيرين منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء
والعظماء ، والتقدميون والرجعيون . كأنما « جهوده وعواطفه وآلامه
واحلامه » كانت تحمل ، عن غير وعى منه ، صدى هذا الضجيج
والجدل العنيف . وكان الرواية كلها تمثل امل تورجنيف في ان
تخرج بلاده ، ان يخرج احرار بلاده من الضجيج السياسي الى
العمل الصبور المثمر ، كما خرج لتفينوف من ضجيج العاطفي
الى حب عطف مستقر . ولابد لهذا الخروج من توضحيات . لابد
من توضيحات وهج العاطفة ، ونشوة البطولة ، وسكرة الحلم ، من
اجل حقيقة اكثر ثباتا . ولابد للروائي اذن ان يضحي بقيمة
شامخة مثل « بازاروف » بطل « الآباء والأبناء » التي كتبها سنة
١٨٦٢ ، ليجعل بطله في « دخان » تلا صغيرا ، هو لتفينوف .
وهذه هي الملاحظة التي ابداهها الزعيم الثوري بيسارييف - على
سبيل النقد - حين سأل تورجنيف عن رايه في « دخان » .
ولكن التل الصغير ، « لتفينوف » ، لازم للتعبير عن الجوهر

الجوهر التراجيدى فى روايتنا هذه . الحياة تتقدم ، ويجب ان تتقدم . وحين تتقدم الحياة يكسب الاحياء ، ولكى يكسبوا يجب ان يخسروا . لن تعرف لتفينوف مع تاتيانا تلك النشوة التى وجدها بين ذراعى ايرينا ، ولكنه سيذهب الى تاتيانا . ولن يصنع الشعب الروسى معجزة بين عشية وضحاها ولكنه سيتقدم بمثابرة وصبر ليؤدى دوره المقسوم . هذه هى حكمة تورجنيف فى « دخان » ، وهى حكمة كسبها ، فى مجال التفكير السياسى والعاطفة الشخصية على السواء ، بتجربة السنين المريرة ، لقد هاجر تورجنيف فى شبابه ليستطيع ان يضرب عدوه بقوة اكبر ، ولكنه تعود بعد ذلك ان يقيم بعيدا عن وطنه ، ولعله كان ينزلق احيانا الى مناقشات جوفاء عن مستقبل روسيا كهذه المناقشات التى يصورها فى « دخان » . وقد احب تورجنيف المفنية الفرنسية ، الاسبانية الاصل ، بولين فياردو : احبها بلا سعادة ، كما احب بوتوجين ايرينا ، من شبابه الى كهولته ، ولم يستطع قط ان ينجو من أسر هذه العاطفة الجبارة كما نجا لتفينوف .

وحين جاءت فكرة « دخان » ، وهو يدلف الى الخمسين ، لم يستغرق فى كتابتها وقتا طويلا ، وكأنه وجد سريعا « البديل الموضوعى » لحالته النفسية . ومع انه شكا فى بعض خطباته من الصعوبة التى وجدها عند بدء العمل ، لطول انقطاعه عن الكتابة قبل ذلك ، فاننا نجد فيها فنه الكامل ، الذى جعل « تين » يقول عنه : « انه أعظم فنان عرفته اوربا منذ سوفوكليس » . فمهما سخر او هجا فان شخصياته تظل حية حياتها الخاصة ، ولا تتحول قط الى صور خشبية . ومهما ملأ حوارهم السياسى بالاشارات الى حوادث معاصرة فانه يعرف كيف واين يضع هذا الحوار ليظل جزءا متمما لبناء الرواية الفنى ، وان نسيت المناسبات التى يشير اليها . ويستطيع القارئ ان يمر بالهوامش التى اضعناها الى هذه الترجمة ليتمثل الجو التاريخى للرواية ، ويستطيع ان يتركها دون ان يحس انه ترك شيئا لابد منه لفهم الرواية نفسها . فالمناقشات السياسية والاجتماعية الخارجة عن الأحداث الرئيسية تؤدى وظيفتها الفنية الكاملة عن طريق التقابل وتخفيف التوتر والهامونية ، وما اليها من مبادئ شكلية اخرى يمكن ان تكون محلا للدراسة المفصلة ، وتفهم فى ضوء هذه

التقابلات وان لم يتحدد كل ما تشير اليه ،
أما شخصية إيرينا فهي كما يقول عنها الناقد الانجليزي ادوارد
جارت :

« أن سر هذا الخلق الممتاز هو أنها تجمع بين الخير والشر
على سواء-حتى تبدو النسوة الخيرات بجانبها تافهات والنسوة
الشريرات مصنوعات . وقد حبتها الطبيعة فتنة آسرة يزيد بها
الخيال أسرا بذلك الموقف الذي تستجده بينها وبين لتفينوف .
فهي ترغب في السمو رغبة صادقة وتود لو تبلغ مثل الحب الأعلى
الذي يتصوره قلب المرأة . ولكنها لا تقوى الا على هدم الرجل
الذي تحبه . هل تستطيع أن تكون له بديلا من تاتيانا ؟ كلا ،
انها لا تستطيع أن تكون كذلك لأي رجل ، فقد خلقت لتفسد
دون أن يمسه الفساد ، وانها لتسترد سلطانها على نفسها بعد
لحظات اللذة الاولى ، وانها لتظل مشتتة وان لم تمنح قلبها
كاملا للحبيب » .

هذه شخصية مليئة بالحياة . ومع ذلك فقد نتساءل : هل
مصدر هذه الحياة أن لها شخصيتها الفردية المتميزة التي تمثلها
في مواقف الهوى والغيرة والعناد والكبرياء والاندفاع والخيانة ،
أم مصدره انها نموذج خيالي عام للمرأة الخالدة التي ترمز للحياة
نفسها : « المرأة التي تفسد دون أن يمسه الفساد ... وتظل
مشتتة وان لم تمنح قلبها كاملا للحبيب » ؟ أن الجمع في إيرينا
بين طرفي الخصوص والعموم مثل من أمثلة فن تورجنيف الناضج ،
وهو وحده كفيلا بأن يحفظ لهذه الرواية مكانة ممتازة بين ذخائر
الأدب الخالد .

شكري محمد عياد

حول الساعة العاشرة من عصر ١٠ أغسطس سنة ١٨٦٢ كنت
ترى كثيرا من الناس محتشدين امام « بهو السمر » الشهير في
بادن بادن . وكان الجو رائقا وكل ما يطيف بالمكان يرتع جذلان
في اشعة الشمس الحنون : الاشجار الخضراء ، البيوت الزاهية
الالوان في المدينة الانيقة ، الجبال المشرفة بقممها التي تشبه الموج .
كل شيء كان ييسم في سرور مطمئن غافل ، فتمس هذه البسمة
الحنون الفاضلة وجوه البشر شابة وهرمة ، حسنا ودميمة .
حتى وجوه بنات الهوى الباريسيات المبذرة المزوقة لم تكن لتفسد
هذا الجو المرح السعيد . وكانت أشراطهن وربشهن ، وشذرات
الذهب والمعدن التي تلمع في قبعاتهن وبراقعهن ، تمثل للعين ازهار
الربيع المتألقة تميل في خفة ، وأجنحة الطيور ترف بالوان قوس
قزح . ولكن الرطانة الفرنسية الصارخة التي كانت تسمع من
كل ناحية لم تكن لتمثل تفريد الطيور ولا لتقارن به .

على ان كل شيء كان يسير وفق العادة ، فكانت الفرقة
الموسيقية في شرفة البهو تعزف مزيجا من « الترافياتا » ،
وفالسا لشتراوس ، ثم « أخبرها » وهي أغنية روسية أعدها
للعزف على الآلات موسيقار كريم . وحول الموائد الخضراء في غرف
القمار كانت تحتشد نفس الوجوه ، وعليها نفس التعبير : تعبير
الغباء والتحفز والخوف الذي تطبعه حمى القمار على أنبل الوجوه
كان هناك ذلك الشريف الروسي القادم من تامبوف ، في ثيابه
الفخمة بغير ذوق ، وقد انحنى على مائدة القمار بعينين جاحظتين ،
غير مبال بابتسامات الكروبييه الباردة وهم ينبادون
Rien ne va plus (١) ، بينما يضع الجنيهات الذهبية بلا روية - وبده
تتصبب عرقا - على أركان المائدة الاربعة ، فيحرم نفسه كل
فرصة للربح ... حتى لو حالفه الحظ . ولم يكن جهله بالقمار

(١) عبارة عندهم معناها ان المراهنة قد انتهت ، يقولونها قبل أن تدار «الروليت» .

ليمنعه من أن يردد في حماسة كلمات الأمير كوكو أحد زعماء المعارضة الأرستقراطية المشهورين ، والأمير كوكو هو صاحب تلك الكلمة المأثورة التي قالها في باريس في صالون الأميرة ماتيلد ، وعلى مسمع من الإمبراطور نفسه : « سيدتى ، ان مبدا الملكية في روسيا مترعز من الأساس » ، وكان إبناء وطننا الأعزاء وبنات وطننا العزيزات مجتمعين أعادتهم حول الشجرة الروسية -

à l'arbre russe كما يقولون . كانوا يتوافدون وهم يمشون الهوينى مترفعين غير مكتثرين كبذع هذا العصر ، ويتهادون التحايا في سمت أنيق كما ينبغي لأناس في الدرجة العليا من المجتمع . ولكن الجمع لا يكاد يلتئم حتى يحاروا كل الحيرة فيما يقول بعضهم لبعض ، فيقنعون بتسقط التأفه من الكلام ، أو ببذاء محدث فرنسى سخيف كان فيما مضى صحفيا ، وهو الآن مهرج ثرثار :

في ساقيه الصغيرتين الهزيلتين حذاء غليظ ، وفي وجهه الصغير الدنىء لحية صغيرة حقيرة . فيروى لهم كل ما حوته التقاويم الهزلية القديمة مثل « التشاريفارى » و « التنتامار » من بارد الفكاهات ، وينفجر « هؤلاء الأمراء الروس » ضاحكين في رضا وامتنان كأنهم مرغمون على أن يعترفوا بروعة الفكاهة الأجنبية ،

وبعجزهم عن ابتكار أى شىء طريف . ومع ذلك فهؤلاء هم «زهرة» مجتمعنا ، ونماذج البذع والاناقة عندنا .. هذا هو السكونت « س » محب الفنون ذو الطبع الموسيقى الحساس الذى يستطيع أن يترنم بأجمل الاغانى ، ولكن أصابعه تضل على مفاتيح البيان ، والذى يفنى بطريقة وسط بين طريقة مفن غجرى بأثس وطريقة حلاق باريسى . وهذا هو البارون « ك » الساحر ...

أستاذ فى كل فن : فى الادب والادارة والخطابة والفن فى القمار . وهذا أيضا الأمير « ي » صديق الدين والشعب ، الذى جمع لنفسه ثروة طائلة ببيع الفودكا مفضوشة بالبلادونا فى تلك الايام المباركة التى كانت تجارة الخمر فيها احتكارا . والجنرال الذكى « و . و » الذى هزم أحدا ما وأخضع شيئا ما ، ولكنه لايزال

نكرة ولايدرى ماذا يصنع بنفسه . و « ر . ر . » ذلك الرجل المسلى الذى يظن نفسه مريضا جدا وظريفا جدا ، مع انه قوى كالثور ومصمت كاللوح ... هذا ال « ر . ر . » يكاد يكون الرجل الوحيد فى زماننا الذى حافظ على تقاليد فتيان العقد الخامس ،

ديام « فتي العصر (١) » والكونتيسة فورونتسكى - حافظ على
 تلك المشية الخاصة المترجمة على السكبين ، كما حافظ على « فن
 الإشارة » - Le Culte de la Pose - ومعدرة اذا كانت كل
 مترجمة قاصرة عن أداء المعنى . انه فن التكليف فى الحركات .
 والتناقل فى التعبير ، والجمود المترفع فى الاساور ، ومقاطعة
 احاديث الناس بالتأؤب . فن التحديق فى اظافر اليدين ،
 والضحك من الانف ، ودفع القبعة من مؤخر الرأس الى الحاجبين .
 الخ . وهنا أيضا رجال من ذوى المراتب العالية فى الحكومة :
 سياسيون أولو شأن خطير ، واسماء أوربية ، ورجال ذوو علم
 ومعرفة ، يحسبون أن « الثور الذهبى » مرسوم أصدره البابا ،
 وأن ضريبة الفقراء فى إنجلترا ضريبة تجبى من الفقراء . وهنا عباد
 « غادات الكاميليا » الدائرو الرعوس المعقودو اللسنة .. فتیان
 غنادير شعورهم مفروقة بأناقة حتى مؤخر الرأس ، وعوارضهم
 الجميلة مرسله على صفحتى الوجه ، يلبسون ثيابا لندنية أصيلة ..
 مظباء لايموزهم شئ لينافسوا ذلك المحدث الفرنسى الشهير . ولكن
 لا ! ان منتجاتنا الوطنية ضئيلة الحظ من تشجيع اهل البدع
 والاناقة . فالكونتيس « س » ملكة الازياء المبتدعة و « الجران
 جنر » ، التى علقبها اللسنة الحاقدة بملكة الضباير ، وبميدوزا
 ذات القبعة (٢) - هذه الكونتيس «س» تفضل اذا غاب الفرنسى
 الظريف أن يتحدث مع الايطاليين أو المدافيين ، أو محضرى
 الارواح الامريكيين ، أو سكرتيرى المفوضيات الاجنبية المتأقنين ، أو
 النبلاء الالمان ذوى السحر التى تجتمع فيها النعومة والحصافة
 المبكرة ، والمكان حافل بكل هؤلاء . وتقتدى بالكونتيس الأميرة
 مبات التى ماتت شوبان بين ذراعيها (وفى أوربا تعد أكثر من ألف
 امرأة ماتت شوبان بين أذرعهن) والأميرة آنت التى لا يفض من
 فتنتها الا تلك الفسالة القروية الساذجة التى تطل من اهابها بين
 الحين والحين ، كرائحة كرنب تختلط بأرق العطور ، والأميرة باشت
 التعسة الحظ التى ظفر زوجها بوظيفة ممتازة ثم اذا هو -

(١) مجموعة قصص للشاعر الروسى ليرمنتوف ، ظهرت سنة ١٨٤١ ، وتمثلت فيها
 حقبة الرومانسية الروسية . بطلها « بيكورين » شاب فاتك لا يعرف الحب ولكنه مغرم
 بجان يوقع النساء فى هواه .
 (٢) « ميديوزا » اسم سملاة أو امرأة غولم فى الاساطير اليونانية ، شعرها ثعابين
 ملتفة ، ووجهها مدور ، وأنفها أفطس ، ولسانها دالح ، وأسنانها بارزة .

Dieu sait pourquoi - يضرب عمدة المدينة ويسرق عشرين ألف
روبل من مال الدولة ، والأميرة زيزى الضاحكة ، والأميرة زوزو
الباكية - فكلهن يمنحن بنى وطنهن صدا واعراضا . فلنعرض
نحن أيضا عن هؤلاء السيدات الحسان ، ولنبتعد عن الشجرة
الدائعة الصيت ، التى يجلسن حولها فى ثياب غالية ولكنها
لا تخلو من سماجة . وعسى الله أن يتوب عليهن من ذلك المثل
الذى يفرى منهن النفوس !

و...

على مسيرة خطوات من « الشجرة الروسية » كان يجلس الى منضدة امام قهوة فيبر رجل وسيم يناهز الثلاثين من العمر ، نحيل ، أسمر ، متوسط القامة ، في مخياه بشاشة ورجولة ، وكان منحنيًا الى الامام وقد اعتمد بكلتا ذراعيه على عصاه ، في هدوء الرجل الذي لا يخطر بباله ان احدا من الناس يعنى به او يراعيه . وكانت عيناه العسائيتان المعبرتان تحدقان فيما حوله مليًا ، ويخزرهما احيانا ليتقى ضوء الشمس ، ثم يتأمل بعض من يمرون به من تلك الشخوص القريبة ، فيختلج شاربه وشفتاه وذقنه البارز الصغير بابتسامة فيها من الطفولة شيء كثير . وكان ينبس معطفا المانيا ضافيا ، ويفطى نصف جبهته العريضة بقبعة من الصوف الرمادي . وكان يبدو للنظرة الاولى شابا امينا رزينا معتدا بنفسه ، ككثير من الشبان في هذا الوجود . كما كان يبدو انه يستجم بعد عمل طويل شاق ، وان افكاره الشاردة التي تجول في عالم بعيد عن ذلك الذي يحيط به لا تزيده الا التذاذا بريئا بهذا المنظر المنبسط امام عينيه . وكان روسيا . وكان اسمه جريجورى ميهالوفتش لتفينوف .

واذ لم يكن لنا بد من معرفته فلنرو ماضيه في بضع كلمات ، ولن نجد في ماضيه كثيرا من القراة ولا التعقيد .

كان أبوه موظفا في المعاش ، وكان ينتمى الى طبقة العامة ، ولكن الابن لم يتلق تعليمه في المدينة كما يتوقع في مثل هذه الحال بل تلقاه في الريف . أما أمه فكانت سليمة أسرة من النبلاء ، تعلمت في احدى المدارس الرسمية ، وكانت انسانة سليمة الطوية سريعة التأثر ، ولكنها لم تكن تافهة الشخصية ، فعلى الرغم من انها كانت تصغر زوجها بعشرين عاما فقد غيرته قدر الامكان ، وأخرجته من وضاعة حياة الموظف الصغير الى عيشة المالك الكبير ، ورققت من عنفه ، وهذبت من عناده ، وبفضلها أصبح يعتنى بهندامه وشارته ، وصار يحترم العلم والعلماء - ولو أنه

لم يفكر قط في أن يقرأ كتابا - وترك السباب وحاول بكل وسيلة أن يكتسب مظاهر النبيل ، حتى أنه صار يمشي متنادا ويتحدث بصوت خفيض . وكثيرا ما كان يتحدث في موضوعات جلية ، وكان ذلك يجشمه عناء غير قليل ، فكان يقول في نفسه : « والله يا هذا ما حقلك الا الضرب » ولكنه يرفع صوته قائلا : « نعم نعم ، هذا صحيح . بالطبع . انها مسألة مهمة » . وقد جعلت أم لتفينوف منزلها أوربي الطراز أيضا ، فلم تكن تشتتم الخدم ، ولم تكن تسمح لأحد بأن يكتظ على مائدتها حتى يكسبه الناس . أما الأرض التي كانت تملكها فقد عجزت هي وزوجها كل العجز عن العناية بها ، فبقيت مهملة زمنا طويلا . مع انها كانت أرضا واسعة تضم مراعى وغابات وبحيرة . وكان يشرف على البحيرة فيما مضى من الزمان مصنع اقامه مالك متحمس ولكنه لا يالف النظام ، وراج على عهد تاجر مخادع ، وخرب باشراف مدير ألماني مدقق . وكانت مدام لتفينوف راضية قانعة بأنها لا تباع أرضها ولا تستدين ولكنها لم تكن موفورة الصحة ، فماتت بالسل في السنة التي دخل فيها ابنها جامعة موسكو . ولم يتم الفتى دراسته لأمور سيعلمها القارئ فيما بعد ، فعاد الى منزله الريفى حيث قضى فترة من الزمان بلا عمل ولا واجب ولا صديق . وجند في سنة ١٨٥٥ ، والفضل في ذلك لنبلأ اقليمه الذين كانوا لا يحوننه ، وكانوا يؤمنون بالحكمة الشائعة : « خالص نفسك وارم جارك » وأكثر ايمانهم بالنظرية الاجنبية التي تقول : ان المالك يجب أن يقيم في أرضه . وكاد يهلك بالتيفوس في القرم حيث قضى ستة أشهر في كوخ من الطين على شاطئ البحر الاسود دون أن يقع بصره على رجل واحد من « الحلفاء » . واشترك بعد ذلك في مجالس النبلاء ، ولم تخل هذه الفترة من حياته من تجارب اليمة ولكنه أغرم بالزراعة بعد أن عاش في الريف زمنا قصيرا . وأدرك ان ثروة أمه كانت في يد أبيه العاجز الضعيف الكسلان لا تغل عشر مايمكن أن تغله ، وأنها اذا تعهدتها بد مجربة ماهرة أصبحت منجما من الذهب . الا انه أدرك أيضا أنه لايعوزه شيء كما تعوزه المهارة والتجربة . فسافر الى الخارج ليتخصص في الزراعة والتكنولوجيا أو على الاصح ليتعلمهما من مبادئهما الاولى . وأمضى أكثر من أربع سنوات في مكلنبورج وسيليسيا وكارلسروهة . وسافر الى باجيكيا وانجلترا . وعكف على العمل . وحصل كثيرا

من المعارف . وما كان ذلك بالامر اليسير . ولكنه ثابر وقاوم
الصعاب الى النهاية . وقد أخذ يتأهب الآن للعودة الى وطنه ،
مؤمنا بنفسه ومستقبله وبنفعه لجيرانه ، بل ربما للاقليم كله ،
تستحبه دعوات آبيه اليأسه الضارعة ، وقد حار فكره في تحرير
الرقيق ، وإعادة توزيع الارض ، وشروط حيازتها . الخ . او
باختصار في النظام الجديد . . ولكن لماذا كان في بادن ؟

لقد كان في بادن لأنه كان ينتظر من يوم الى يوم قدوم ابنة خالته
وخطيبته «تاتيانا بروفنا شستوف» التي عرفها منذ الصغر، وأمضى
الربيع والصيف معها في درسدن حيث كانت تعيش مع عمتها .
وقد أحس لهذه القرية الشابة حبا صادقا واحتراما عميقا . فلما
انتهى من أعماله التمهيدية المملة وأخذ يستعد لاقترام ميدان
جديد - ميدان العمل الحقيقي الحر - رأى فيها المرأة الحبيبة
والرفيق والصديق . فتقدم اليها يسألها أن تربط حياتها بحياته .
على السعادة والشقاء . على الجهد والدعة . على الخير والشر .
فوافقت . وعاد الى كارلسروهة حيث كان قد خلف كتبه وأوراقه
وأمتعته . ولكنك تسأل مرة ثانية : لماذا كان في بادن ؟

حسنا . لقد كان في بادن لأن عمه تاتيانا ، كاييتولينا ماركوفنا
شستوف ، وهى سيدة عانس في الخامسة والخمسين ، متقلبة
الطبع على الرغم من طيبتها واخلاصها ، مفكرة حرة تشتعل رغبة
في التضحية ، « عقلية ثورية » (فقد كانت تقرأ شتراوس (١) ،
وان أخفت هذه الحقيقة عن ابنة أخيها) ، ديموقراطية ، خصم
لدود للأرستقراطية والمجتمعات الراقية - كاييتولينا ماركوفنا هذه
لم تستطع أن تقاوم الرغبة في القاء نظرة واحدة على بادن الانيقة
ومجتمعها الراقى . فقد كانت كاييتوليننا ماركوفنا لاتلبس
« رواقع » (٢) ، وكانت تقص شعرها الأبيض قصة مدورة بسيطة،

(١) د. ف. شتراوس (١٨٠٨ - ١٨٧٤) مفكر ألماني من تلاميذ هيجل ، كانت
دراسته الاولى دينية ، ولكنه أثار ضجة كبيرة في العالم المسيحي واتهم بالمروق حين
أصدر كتابه عن حياة المسيح (١٨٣٦) ، الذي حاول فيه أن يخضع العقيدة المسيحية
للتفقد العقل ، فأنكر معجزات المسيح ، واعتبر الجانب الأكبر من تاريخه المروي في
الانجيل أسطورة ترمز الى الحقيقة ولا ينبغي أن تؤخذ على ظاهرها .

وقد كان لشتراوس تأثير كبير في تحرير الفكر الدينى وبخاصة في العالم
البروتستانتي .

(٢) قطعة من الملابس من نسيج مقوى ، كانت النساء يلبسنها تحت الملابس ، لترفع
الجزء الاسفل من الجسم .

ولكن الترف والفخامة كان لهما تأثير خفى فى نفسها ، فكانت
ملهاتهما المحببة أن تسخر منهما ، وتبدى احتقارها لهما !.. فكيف
يستطيع المرء - بعد هذا كله - أن يرفض للعجز الطيبة رغبة ؟
لهذا كان لتفينوف هادئا كل الهدوء ، وكان ينظر حواليه واثقا
بنفسه كل الثقة ، لأن مستقبله كان مبسوطا أمامه كخريطة ظاهرة
العالم ، ولأن حياته كانت مرسومة محدودة ، وكان بهذا المستقبل
فخورا وسعيدا ، لأنه كان من صنع يديه .

وفجأة سمع صوتا رفيعا ينبعث بالقرب من أذنه :
- أمسك ! ضببطك !

وحطت يد سمينة على كتفه ، أفرغ رأسه ، وإذا هو بصاحب
من أصحابه المسكوفين القليلين يدعى بمبايف . مخلوق طيب من
ذلك الصنف الفارغ العقل ، تخطى سن الشباب ، له أنف منتفش
وخدان مسترخيان كأنما أغليا في ماء ، وخصل شعشاء ملبدة ،
وجسم قصير سمين ، كان روستيسلاف بمبايف لا يزال يقطع وجه
أمناء الصبور - الأرض - بلا هدف ولا غاية ، ولكن في ضجيج
كثير . وكان مفلسا دائما ، ومتحمسا دائما لسبب من الأسباب .
ظل يردد وقد فتح عينيه الغائرتين ، ومط شفثيه الغليظتين ،
اللتين بدا عليهما الشارب الهزيل المصبوغ شيئا مقحما :
- أهلا أهلا ! أى مصادفة غريبة !

ثم أردف :

- آه ! شكرا لك يا بادن ! ان الناس جميعا يجرون الى هنا
كالخنافس خلف الموقدة ! ماذا جاء بك يا جريشسا ؟ (ولم يكن في
العالم أحد لا يناديه بمبايف باسم التدليل) .
- أنا هنا من ثلاثة أيام .

- وأين كنت ؟

- لماذا تريد أن تعلم ؟

- لماذا أريد ! اصبر على قليلا . لعلك لا تعلم من قدم الى هنا
أيضا ؟ جوباريوف ! أنه جوباريوف نفسه .. تصور ! لقد جاء
أمن من هيدلبرج . طبعاً أنت تعرفه !
- سمعت عنه

- سمعت عنه فقط ؟ يا عزيزي ! يجب أن نأخذك اليه حالا ،
في هذه الدقيقة كيف لا تعرف رجلا مثله ؟ انظر . لعلك لا تعرف
هذا أيضا ؟ سرني أن أعرفكما ، فكلكما من رجال العلم ! انه من
الإفذاذ ! تعانقا !

والتفت بمبايف وهو ينطق بهذه الكلمات الى شاب وسيم واقف بالقرب منه ، له وجه تاضر مورد ، ترتسم عليه رزاة مبكرة . ووقف لتفنيوف ، ولم يعانق « الفذ » بل اكتفى بأن تبادل واياه انحناءة مبتسرة ، اذ كان مظهره الصارم العبوس يدل على انه لم يسر كثيرا بهذا التعريف المفاجيء .

واستمر بمبايف يقول :

— قلت لك انه من الافذاذ ، وهذا صحيح . اذهب الى المدرسة الحربية في بطرسبرج ، وانظر الى لوحاتها الذهبية .. فمن عساك ترى اسمه في اول القائمة ؟ انه فوروشـيلوف ، سيميون ياكوفليفتش فوروشـيلوف ! ولكن جوباريوف .. جوباريوف يا صديقي هو من يجب أن نظير اليه ! اننى أعبد ذلك الرجل عبادة ! وليست وحدي الذى أعبده ! كلهم ، كلهم ! آه ، ما أعظم هذا الكتاب الذى يؤلفه ! أووو ...

فسأله لتفنيوف :

— عن أى شىء ؟

— عن كل شىء يا بنى . يشبه كتب « بكل » تقريبا (١) الا انه اعمق .. اعمق .. سيقدر كل شىء ويوضح كل شىء .

— هل قرأت هذا الكتاب ؟

— لا ، لم أقرأه ، والحقيقة انه لايزال سرا . ولكن جوباريوف لا يعجزه شىء ! أجل ! — وتنهى بمبايف وضم ذراعيه — آه لو كان لدينا عقلان أو ثلاثة كهذا ! اذن لرأينا منهم العجب ! — سأقول لك شيئا واحدا يا جريشا : مهما تكن أعمالك فى هذه الايام — فأنا لا أعرف عنها شيئا — ومهما تكن معتقداتك — فأنا لا أعرف عنها شيئا أيضا — فسوف تتعلم من جوباريوف . انه لسوء الحظ لن يطيل اقامته هنا ، فيجب الا نضيع وقتا قبل رؤيته . اليه ! اليه !

وبينما كان يتحدث مر فتى متأنق ذو خصل صهباء مجمعة ، يلبس قبعة قصيرة مزينة بشریط أزرق ، وجعل يحقق فيه من خلال عوينته وعلى وجهه ابتسامة ساخرة . فقال لتفنيوف مفيظا :

— لماذا تصرخ هكذا ؟ من يسمعك يحسب أنك تزعم على كلاب

(١) « بكل » (١٨٢١ - ١٨٦٢) مؤرخ انجليزى اشتهر بكتابه « تاريخ الحضارة » الذى صدر جزؤه الاول سنة ١٨٥٧ والثانى سنة ١٨٦١ ، وحاول فيه أن يضع فلسفة للتاريخ توضح القواعد العامة للتقدم البشرى .

صيد ! اننى للساعة ما تعشيت .
- حسنا ! عندى فكرة . نذهب حالا الى مطعم فيبر .. ثلاثتنا
معا ...

ثم اضاف همسا :
- معك نقود لتدفع حسابى ؟
- نعم نعم . ولكن فى الحقيقة لا ادرى ...
- كيف !... ستشكر لى هذا الجميل . سير بمعرفتك ...
ثم صاح فجأة :
- يا للسماء ؟ انهم يعزفون ختام هرنانى .. ما أروعه ! آسوم
موكارلو ... يالى من رجل ! ما اقرب دمعتى ! ألا تأتى معنا
ياسيمون باكوفليفتش ؟

وكان فوروشيلوف قد ظل واقفا فى وضع مهيب ، فلم يلفظ
شيئا من سيمائه المتكبرة ، بل عقد حاجبيه ، وخفض عينيه ،
وتتمم شيئا بين أسنانه ... ولكنه لم يرفض . وقال لتفينوف
فى نفسه : « لا ضرر من هذا . عندى وقت » . وأمسك بمبايف
بذراعه ، ولكنه لم يمض به الى المطعم الا بعد أن أشار الى
ايزابل بائعة الازهار الشهيرة فى نادى الفروسية ، فقد بدا له أن
يشترى منها طاقة زهر . غير أن بائعة الازهار الارستقراطية لم
تتحرك من مكانها ... فما الذى يرغبها على الدنو من سيد بغير
قغاز ، يلبس سترة من القطن ، ورباط عنق مخططا ، وحذاء مكعوبا
- سيد لم تر مثله حتى فى باريس ؟ وعندئذ أشار اليها
فوروشيلوف بدوره ، فاقتربت ، وتناول من سلتها طاقة صغيرة
من البنفسج ورمى اليها فلورينا . وكان يحسب أنه سيدهشها
بكرمها ، ولكن هدبا واحدا لم يهتز على وجهها ، بل زمت شفيتها
باحترار بعد أن التفت منصرفا ... فقد كان فوروشيلوف يرتدى
ثيابا أنيقة فاخرة ، ولكن الفتاة الباريسية لمحت بعينها الخيرة
أن هندامه ومسلكه ومشيته التى لم يخف طابعها العسكرى - كل
ذلك كان خاليا من « الاناقة » الحقيقية الاصيلية .

وبعد أن جلس أصحابنا فى قاعة الطعام العامة وطلبوا طعاما
أخذوا يتحدثون . وتكلم بمبايف بصوت مرتفع وحماسة بالغة عن
مناقب جوباريوف ، ولكنه سرعان ما كف عن الحديث وجعل
يصب كوبا فى اثر كوب وهو يشفق ويزفر . أما فوروشيلوف فقد
أكل قليلا وشرب قليلا ، وكأنه لم يشارك فى الطعام والشراب الا

مرغما . ثم سأل لتفينوف عن طبيعة أعماله ، وأخذ يدلي بآرائه في شتى المسائل العامة أكثر من هذه الأعمال ذاتها . وما لبث أن أخذته الحماسة ، فانطلق كالحصان الأرن ، ومضى ينبر المقاطع والحروف كتلميذ واثق بنفسه قد ذهب ليؤدي الامتحان النهائي . وكان يصحب حديثه بإشارات حماسية لا داعي لها ، ولم يقاطعه أحد فزاد اندفاعا وتأكيدا ، حتى كأنه يتلو بحثا أو محاضرة . وكانت تنهمر من فمه أسماء أحدث العلماء الثقات ، مع تاريخ ميلاد كل منهم أو تاريخ وفاته ، وعناوين الرسائل التي ظهرت حديثا في أفق البحث العلمى ، وأسماء وأسماء وأسماء ... وكانت هذه الأسماء تهمة رضا عميقا ينعكس على عينييه اللامعتين . كان فوروشسنيوف فيما يظهر يحتقر كل قديم ، ولا يقدر الا زبدة الثقافة ، أى أحدث المسائل العلمية وأرقاها . كان يلذ له ويسعده ان يشير - ولو بغير مناسبة - الى كتاب لشخص يدعى الدكتور تساوربنجل عن السجون البنسلفانية ، أو الى مقالات ظهرت بالاسس في « الاسياتك جورنال » عن الفيدات والبورانات (وكان ينطق كلمة « جورنال » نطقا انجليزيا مع انه لم يكن يعرف الانجليزية) . واصفى اليه لتفينوف ثم اصفى بغير ان يستطيع معرفة ناحية اختصاصه . فقد افاض في الحديث عن الدور الذى لعبه الجنس الكلتى في التاريخ ، ثم شطح الى التاريخ القديم فتحدث عن الألواح الايجينية ، وتكلم بحماسة عن المثال الذى عاش قبل فيدياس - وهو أوناتاس - وسماه « جوناثان » فجعل للحديث كله نكهة بين نكهة الكتاب المقدس والنكهة الأمريكية . ثم قفز فجأة الى الاقتصاد السياسى وسمى باستيات ابله أو غبيا « مثل آدم سمث وسمثاثر الفزيوقراطيين » ، فتمتم بمبايف : « الفزيوقراطيين ؟ .. الارستقراطيين ؟ » وأثار علاثم الحيرة على وجه بمبايف بقوله عن ماكولى - عرضا وفي ثنايا الحديث - انه كاتب عتيق لم تعد له قيمة بعد ما وصل اليه علم التاريخ الحديث . أما جنابست ، فقد صرح انه ليس بحاجة حتى الى ذكر اسمه ، وهز كتفيه ، فhez بمبايف كتفيه . وقال لتفينوف لنفسه وهو ينظر الى صاحبه الجديد ، بشعره الاصفر وعينييه الصافيتين وأسنانه البيضاء (وقد ضايقته على الخصوص هذه الاسنان الكبيرة الناصعة البياض وهاتان اليدان باشاراتهما النابية) : « هكذا بلا ترو ولا مناسبة ، وأمام غرباء .. فى مطعم !

ولكنه يبدو فتي طيبا ساذجا . « وأخيرا بدأ فوروشيلوف يهدأ ، وسكر صوته الرنان الصحل كصوت ديك صغير ، وانتهر بمبايف الفرصة فأشدد أبياتا من الشعر ، وتهدج صوته بالبكاء حتى روع مائدة قريبة كانت تجلس حولها أسرة انجليزية ، واضحك مائدة أخرى كانت تجلس اليها غانيتان فرنسيتان مع مخلوق يشبه طفلا من عصر قديم في شعر مستعار . ثم أحضر النادل التذكرة ودفع الاصدقاء الحساب .

ونهض بمبايف عن مقعده متثاقلا . قال :
— حسنا ... نشرب الآن قدحا من القهوة ، ثم نمضى مسرعين . وزاد وهو يجتاز العتبة ويشير في شيء من المرح بيده الحمراء اللينة الى فوروشيلوف ولتفينوف :

— هذه هي روسيا .. بلادنا . ماقولكما فيها ؟..
فقال لتفينوف في نفسه : «حقا انها روسيا» ، أما فوروشيلوف الذي استعاد وجهه مظهر التفكير العميق ، فقد ابتسم ثانية في ترفع ودق عقبه دقا خفيفا .

وبعد خمس دقائق كان ثلاثتهم يصعدون درج الفندق الذي يقيم فيه ستيبان نيكولايتش جوباريوف .. وكانت تنحدر على السلم نفسه سيدة فارعة القامة ، رشيقة القد، تلبس قبعة ذات نقاب أسود قصير . فما ان بصرت بلفتينوف حتى التفتت اليه بغتة ووقفت وكأنما تملكها الدهول ، واحمر وجهها ثم شحب سريعا تحت نقابه الاسود الكثيف . ولكن لتفينوف لم ينتبه اليها ، فانطلقت تهبط الدرج مسرعة .

صاح بمبايف وهو يقدم لتفينوف الى رجل ربعة له هيئة شريف من أشراف الريف ، يلبس خفا وسترة قصيرة وبنطلونا صباحيا رمادى اللون ، ويقف فى وسط حجرة ساطعة الضوء حسنة الرياش : « جريجورى لتفينوف . جلمود صخر . قلب روسى حق . أوصيك به خيرا » . ثم أردف مخاطبا لتفينوف : « وهذا هو . هو نفسه . انه جوباريوف وحسب » .

وحدق لتفينوف فيه « هو نفسه » بدهشة وتطلع ، فلم ير فيه للوهلة الاولى شيئا غير عادى . رأى رجلا وقور المظهر فى شبه بلادة ، عريض الجبين ، واسع العينين ، غليظ الشفتين ، مرسل اللحية ، مكتنز العنق . له نظرة ثابتة يصوبها الى الارض . ابتسم ذلك السيد وهمهم قائلا : « آه .. اننى سعيد جدا » . ثم رفع يديه الى وجهه وأولى لتفينوف ظهره وسار بضع خطوات على البساط فى مشية بطيئة منحرفة ، كأنه يحاول أن ينسل غير ملحوظ . وكان من عادة جوباريوف أن يديم السير ذهابا وحيئة ، ممسكا لحيته بين لحظة وأخرى ، يمشطها بأطراف أظافره الطويلة الصلبة . وكان فى الحجرة مع جوباريوف سيدة فى نحو الخمسين ، تلبس ثوبا حريريا باليا ، ولها وجه أصفر كالليمونة مفرط الحركات ، وشعر أسود كثيف على شفتها العليا ، وعينان سريعتا الدوران حتى لكأنهما تقفزان من رأسها ، ثم رجل ضخمة يجلس منحنيا فى ركن .

تكلم جوباريوف مخاطبا السيدة ، دون أن يرى - فيما يبدو - ضرورة لتعريفها بلتفينوف :

- حسنا ياعزيزتى ماترونا سميونوفنا زوهانتشيكوف . فيم كنت تحدثيننا ؟

فشرعت تلك السيدة - وكانت أرملة عاقرا رقيقة الحال ، قضت عامين متنقلة من قطر الى قطر - شرعت تقول بحدة لاهثة غريبة :
- نعم . لقد ذهب الى الامير وقال له : « ان مركزك يا صاحب

السمادة يمكنك من رفع الظلم عنى . أظنك تقدر نبل أفكارى !
وهل يمكن أن يضطهد انسان فى هذا العصر من أجل أفكاره ؟ «
فماذا تظن الأمير قد فعل ... ذلك السيد المثقف ذا المركز الممتاز؟
فسأل جوباريوف وهو يشعل لفيفة وعلى وجهه سيماء التفكير:
- نعم . ماذا فعل ؟

فنصبت السيدة قامتها ومدت يدها المعروقة وقد باعدت بين
سبابتها وسائر أصابعها :
- لقد نادى خادمه وقال له : « هيا انزع معطف هذا الرجل
وخذه لنفسك فهو هدية لك ! »
فسأل بمبايف ملوحاً بذراعيه :
- وهل نزع الخادم ؟

- لقد نزع وأخذه ... هذا ما فعله الأمير بارنولوف . ذلك
الشريف الثرى المعروف . رجل الحكومة ذو المنصب الرفيع !
فماذا يتوقع المرء بعد ذلك ؟

وكان جسم مدام زوها نتشكوف يرتعد كله غضبا ، ووجهها
يتقلص بحركات تشنجية ، وصدرها الداوى الأمسح يعلو ويهبط
محتدما تحت صدريتها . أما عيناها فكادت تقفزان من رأسها
قفزا ... ولكن الحقيقة أنهما كانتا تقفزان مهما يكن الموضوع الذى
تحدث فيه . وصاح بمبايف :

- فضيحة صارخة ! فضيحة صارخة ! أى عقاب يكفى ؟

فهمهم جوباريوف معقبا :

- الفساد شامل . العقاب ... ليس هو المطلوب فى هذه
الحالة ، بل ... أمور أخرى .

وسأل لتفينوف معلقا على القصة :

- ولكن هل حدث هذا حقا ؟

فانفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة :

- حدث حقا ، كيف ؟ انه فوق كل شك ! كل شك - ك !

« ونطقت بهذه الكلمات فى حماسة بالغة جعلتها ترتجف من الجهد »

لقد سمعته من رجل ثقة . أنت تعرفه ياستيبان نيكولايتش . انه

الاستراتوف ، كاييتون الستراتوف . وقد سمعها بنفسه من شهود

عيان رأوا ذلك المنظر المخزى .

فسأل جوباريوف :

— اليستراتوف ؟.. أهو ذلك الذى كان فى قازان ؟
— نعم . اننى أعلم ياستيبان نيكولايتش ما أشيع عنه من أخذ
الرشى من بعض التجار أو مقطرى الخمر هناك ... ولكن من
الذى زعم هذا ؟ انه بليخانوف ! وكيف يصدق المرء بليخانوف
وكل انسان يعلم انه ... جاسوس ؟

فقاطعها بمبايف قائلا :

— كلا . اسمح لى يا ماترونا سميونوفنا . ان بليخانوف
صديقى ، ولا وجه لاتهامه بالجاسوسية .
— أجل ، أجل ، انه جاسوس !
— مهلا ... أرجوك !..

فصرخت مدام زوها نتشيكوف :

— جاسوس ! جاسوس !

فصرخ بمبايف بدوره :

— لا ، لا . دقيقة واحدة ... سأخبرك بالحقيقة ...

فأصرت مدام زوها نتشيكوف على صياحها :

— جاسوس ! جاسوس !

وزار بمبايف بكل ما فى رئيته من قوة :

— كلا ، كلا . ان كنت تقصدين تتلief فهذا شأن آخر .

فصمتت مدام زوها نتشيكوف برهة ، واستمر بمبايف يقول
بصوته العادى :

— اننى أعلم من مصدر وثيق أن هذا السيد حين استدعاه
البوليس السرى سجد عند قدمى الكونتة بلازنكرامبف ومضى
يشن وينتجب قائلا :

« أنقذنى ! ساعدنى ! » ولكن بليخانوف لم يهبط قط الى
هذا الدرك .

فتمتم جوباريوف :

— مم ... تتلief ... يجب ... يجب الا ننسى هذه .

وهزت مدام زوها نتشيكوف كتفيها باحتقار وقالت :

— كلاهما شر من أخيه . ولكننى أعلم عن تتلief هذا قصة
أبداع . انه كان — كما يعلم الجميع — مستبدا ظالما لرقيقه ، على
الرغم من دعواه انه من أنصار التحرير . وقد حدث مرة أنه كان
فى صالون إحدى السيدات فى باريس ، ودخلت مدام بيتشرستو ،

وهي كما تعلمون صاحبة « كوخ العم توم » (١) ، فألج تنثليف على مضيافته - وتنثليف شخص ملحف رذل - كي تقدمه إليها ، ولكنها ما كادت تسمع اسمه حتى قالت : « ماذا ؟ أيطمع أن يقدم الى مؤلفة كوخ العم توم » ؟ وصفته على خده قائلة : « اخرج ! » فماذا تظنه فعل ؟ لقد تناول قبعته وانسحب كالكلب الذليل .

فقال بمبايف :

- اظن أن في هذه القصة بعض المبالغة . لقد قالت له : « اخرج » ، هذا صحيح ، ولكنها لم تصفه .
فجعلت مدام زوها نتشيكوف تكرر بعنف عصبى :
- أجل ! لقد صفته على وجهه ! أننى لا أخلق الاخبار!.. هؤلاء هم اصدقائك !

- معذرة ياماترونا سميونوفنا . اننى لم أقل قط ان تنثليف صديق لى . لقد كنت أتحدث عن بليخانوف .
- تنثليف أو واحد من أمثاله ... عندك مينوف مثلاً ...
فسأل بمبايف وقد ظهرت على وجهه امارات الفزع :
- ماذا فعل مينوف ؟

- ماذا ؟ أتراك لا تعرف ؟.. لقد صاح في شارع بوزنسزكى حيث سمعه الناس جميعا . « ان الاحرار كلهم يجب أن يرموا في السجون ! » وواحدة أخرى : زاره زميل له من أيام التلمذة - رجل فقير بالطبع - وسأله : هل يستطيع أن يبقى معه الى العشاء ؟ فأجابه مينوف : « لا يمكن . سيتفدى معى اليوم كوتنان . اعفنا من وجودك ! »

فرعق بمبايف :

- أقسم أن هذا تشنيع !
- تشنيع ؟ تشنيع ؟ أولا : ان الأمير فاروشكن الذى كان هو أيضا مدعوا للعشاء على مائدة صديقك مينوف ...
فقاطعها جوباريوف بشدة :
- ان الأمير فاروشكن قريبى ، ولكنى لا أسمح له بدخول منزلى ... فلا ضرورة أيضا لذكر اسمه .

(١) هاريت بيتشر ستو كاتبة انسانية وزعيمة من زعيمات الحركة النسائية فى الولايات المتحدة الامريكية فى القرن التاسع عشر . روايتها « كوخ العم توم » (١٨٥٢) كان لها أثر كبير فى حركة تحرير العبيد . قامت برحلة الى أوروبا سنة ١٨٥٣ .

فاستمرت مدام زوها بتشيكوف تقول وهى تحنى رأسها بخضوع نحو جوباريوف :

— وثانيا : أن براسكوفيا ياكوفلنا نفسها أخبرتنى بذلك .
— لقد وقعت على راوية أمينة ! كيف ! أنها هى وزاكيزوف أكبر مشنعين على وجه البسيطة !

— معذرة . أن زاكيزوف كذاب بلا شك . لقد سرق الكفن الحريري من تابوت أبيه . أنا لا أجادل فى هذا . ولكن براسكوفيا ياكوفلنا ... شتان ما بينهما ! أنسيت كيف كان فراقها لزوجها فراقا كريما ؟ ولكنك دائما ...

— كفى . كفى ياماترونا سميونوفنا . لنترك هذه الثثرة ولنحدث فى موضوع اسمى . اننى لست ضئيل الخبرة بهذه الموضوعات كما تعلمين . هل قرأت « مدموازيل دلاكتينى » ؟ هذه رائعة بلا ريب ! وهى فى الوقت نفسه تتفق مع مبادئك كل الاتفاق !

فأجابت مدام زوها بتشيكوف بجفاء وحدة :

— اننى لا أقرأ الروايات الآن مطلقا .

— لماذا ؟

— لأنى لا أجد وقتا لذلك . أنا لا أفكر الا فى شىء واحد :
مكنات الخياطة .

فسأل لتفينوف :

— مكنات ماذا ؟

— الخياطة ... الخياطة . يجب أن تحصل النساء جميعا على مكنات خياطة ، وأن يؤلفن جمعيات ، فهذه الطريقة يستطعن أن يكسبن قوتهن ويظفرن باستقلالهن فى أقصر وقت . وبغير هذا لن يحصلن على حريتهن . هذه مسألة اجتماعية هامة جدا . لقد تناقشت فيها مع بولسلاف ستاد نتسكى . أن بولسلاف ستاد نتسكى شخصية ممتازة ولكنه يستخف بهذه المسائل ... لا هم له الا الضحك . أحقق !

فتكلم جوباريوف ببطء وفى نبرة تشبه نبرة حكيم أو نبى :

— سيأتى يوم يحاسب فيه الجميع ، ويوفون ما عملوا .

فردد بمبايف :

— أجل ، أجل . سيحاسبون . بالضبط .

ثم أردف بصوت خفيض :

- ولكن خبرني ياستيبان نيكولايتش ... ماذا فعلت في كتابك الكبير ؟

فأجاب جوباريوف عاقدا حاجبيه :

- اننى أجمع المواد .

ثم التفت الى لتفينوف الذى بدأ رأسه يدور من ضجة الاسماء الغريبة والتشنييع المحموم ، وسأله عما يعنى به من الموضوعات ، فأجابه لتفينوف عما سأل

- آه . بلا شك . العلوم الطبيعية . انها نافعة اذا كانت نوعا من التدريب ، لا غاية فى ذاتها . ان الغاية يجب أن تكون ... مم ... يجب أن تكون ... شيئا آخر . هل تسمح لى أن أسألك عن آرائك الخاصة ؟

- أى آراء ؟

- آرائك . أو بالأحرى آرائك السياسية . ما آراؤك السياسية؟ فابتسم لتفينوف وقال :

- ان شئت الحقيقة فليس لى آراء سياسية .

فرفع الرجل الضخم الجالس فى الركن رأسه عند سماع هذه الكلمات ونظر الى لتفينوف مليا . وسأله جوباريوف بلطف :

- كيف ؟ ألم تفكر فى الأمر بعد ، أم تراك تعبت من التفكير فيه؟

- لا أدري كيف أقول . ولكن يبدو لى أننا نحن الروس مازلنا بعيدين عن أن تكون لنا افكار سياسية ، أو أن نتوهم ان لنا مثل هذه الافكار . وأود أن أنبهك الى أنى أريد « بالسياسة » ذلك المعنى الذى تختص به هذه الكلمة ، وأن ...

فقاطعه جوباريوف بلطف أيضا :

- آه ! انه لم ينضج بعد .

واتجه الى فوروشيلوف وسأله هل قرأ البحث الذى أعطاه إياه ؟ وكان الأمر الذى أدهش لتفينوف أن فوروشيلوف لم ينس بكلمة منذ قدم ، بل زوى حاجبيه وجعل يدير حدقتيه . (ويظهر أنه كان معتادا أن يخطب أو يلزم الصمت) . فلما وجه اليه جوباريوف ذلك السؤال شد صدره بحركة عسكرية وأومأ ايجابا وهو يدق عقبه .

- حسنا . وكيف وجدته ؟ هل أعجبك ؟..

- أما من حيث المبادئ الأساسية فقد أعجبت به ، غير انى لم أسلم بالنتائج .

- مم ... ومع هذا فقد امتدح أندريه ايفانتش هذا البحث .
يجب أن توضح لى مآخذك فيما بعد .
- أتحب أن أكتبها لك ؟
فتجلت الدهشة على وجه جوباريوف ، ولكنه أجاب بعد
تفكير قصير :

- فلتكن مكتوبة . وأريد منك بهذه المناسبة أن تشرح لى آراءك
ايضا .. فى موضوع ... الاتحادات .
- على نظام لاسال أو على نظام شلتسه ودليتزش ؟
- على النظامين كليهما . فالناحية الاقتصادية هى التى تهمنى
نحن الروس . ثم هناك الارتل (١) .. وهو النواة .. يجب أن ننظر
فى هذا كله .. لا تترك شيئا .. ولا تنس مسألة تقسيم الارض
بين الفلاحين ..

فسأله فوروشيلوف وفى صوته نبرة اجلال :
- وما رأيك أنت ياستيبان نيكولايتش فى العدد المناسب من
الافدنة ؟

ولكن جوباريوف كان يتمتم مستغرقا فى تفكيره ، وهو ينظر الى
المنضدة ويفرض خصلة من لحيته :
- مم ... وكوميون القرية ! الكوميون (٢) ! فاهم ؟ انها كلمة
عظيمة ! ثم ما معنى هذه الحرائق ... وهذه ... هذه الاجراءات
الحكومية ضد المدارس الليلية ، ودور المطالعة ، والصحف ؟ ولم
رفض الفلاحون أن يوقعوا على الوثائق التى تثبت استقلالهم عن
سادتهم الاقدمين ؟ ولماذا يجرى ما يجرى فى بولندا ؟ الا ترى
أن .. مم .. أننا .. أننا يجب أن نتصل بالشعب .. وأن
نتعرف .. نتعرف آراءه ..

وكأنما تملك جوباريوف فجأة انفعاا عنيف يوشك أن يكون
حقدا وغضبا فاكفهر وجهه ، وثقلت أنفاسه ، ولكنه مع ذلك لم
يرفع عينيه بل ظل يفرض لحيته :
- الا ترى ..

وفجأة انفجرت مدام زوها نتشيكوف صائحة بصوت مزعج :

(١) « الارتل » نوع من الارتباط بين العمال على أساس المشاركة فى الارباح وفى
المسئولية .

(٢) نظام القرية الروسية فى العهد القيصرى . وهو أشبه بالنظام القبلى ، اذ كان
أساسه التعاون الوثيق بين أهل القرية فى احراز المنافع ورفع المضار ، وكانت الارض ،
أو قسم كبير منها ، وهو الذى يترك للمراعى والغابات ، ملكا مشاعا بين أهل القرية

— ان يفسيف نذل !

وكان بمبايف يروى لها شيئا بصوت خفض منه احترام مضيفهم .
فدار جوباريوف على عقبه مسرعا ، وعاد يطلع في ارجاء الحجرة .
وظل الضيوف يتوافدون . فلما تقدم الليل كان كثير من الناس
مجتمعين ، وكان من بينهم السيد يفسيف الذى سبته مدام زوها
نتشيكوف بذلك اللفظ القاسى ، وقد حادثته في شوق وترحاب
وسألته ان يرافقها الى منزلها . كما حضر شخص يدعى بشتشالكن ،
وهو قاضى تحكيم (١) ممتاز ، من أولئك الرجال الذين قد
تكون روسيا أحوج اليهم من غيرهم : فهو ضيق الأفق ، محدود
الثقافة ضئيل المواهب ، الا انه دقيق صبور أمين ، يكاد الفلاحون
في اقليمه يعبدونه ، وهو يحترم نفسه لانه جدير حقا بالاحترام .
وكان هناك أيضا ضباط قليلون ، فروا باجازات قصيرة الى اوربا ،
وراحوا يستمتعون — في حذر ودون أن تفارق ادمفتهم صورة
قائدهم — بمعايشة أهل الفكر الذين لا يخلون من خطر ، وطالبان من
هيدلبرج مفرط النحافة ، دخلا مسرعين ، وكان احدهما ينظر الى
من حوله باحتقار شديد والآخر يضحك ضحكات عصيبة ، وكانا
كلاهما شديدي الارتباك . وانحشر بعدهما فرنسى ممن يسمونهم
Petit jeune homme مخلوق صغير حقير غبى كريبه .. يحظى
بعض الشهرة بين زملائه من سماسرة دور السياحة لزعمهم أن
الكونتات الروسيات يذبن في هواه ، والحقيقة ان همه الأكبر هو
الحصول على عشاء مجانى . وكان آخر من ظهر هو تى بنداسوف ،
وهو رجل له مظهر طالب المانى ماجن ، أما فى الحقيقة فهو بلطجى
محتال ، صديق لزوجات التجار الروس ولبنات الهوى الباريسيات .
أصلع ، أردد ، سكير . جاء أحمر الوجه مخمورا ، وجعل يؤكد
لكل من رآه ان ذلك الوغد بنازت « قشطه » من كل ما معه ،
والحقيقة انه ربح ستة عشر جلدا .. كان هناك — باختصار عدد
كبير من الناس . وكان عجيبا حقا ذلك الاحترام الذى يبذونه
جميعا لجوباريوف كأنه مرشد أو زعيم . كانوا يعرضون عليه
أفكارهم ، ويخضعونها لحكمه ، فيجيب بالتمتمة ، وتنف لحيته ،
وتحول عينيه ، أو بكلمات جوفاء متقطعة تتلقف كأنها نطق حكمة
سامية . وقلما كان جوباريوف نفسه يشترك فى المناقشة ، ولكن

(١) « قاضى التحكيم » وظيفة فخرية أنشئت فى فترة تحرير الرقيق ، ومهمته
التوسط بين النبلاء والفلاحين .

الآخرين كانوا يكدون صدورهم ليعوضوا ذلك. وقد حدث غير مرة أن اشترك ثلاثة أو أربعة في الصياح . وكانوا كلهم راضين ، وكانوا كلهم مفهومين . واستمر الحديث حتى كاد الليل ينتصف ، وامتاز -- كالعادة -- بتعدد الموضوعات المطروقة وتنوعها . فتحدثت مدام زوها نتشيكوف عن غاريبالدى، وعن شخص يدعى كارل أيفانوفتش جلده عبيد داره ، وعن نابليون الثالث . وعن اشتغال النساء بالأعمال ، وعن تاجر يدعى بلسكاتشوف تسبب عامدا في موت اثنتى عشرة عاملة ونال جزاء ذلك وساما نقش عليه « لأعماله الجيلة » . كما تحدثت عن البروليتاريا ، وعن الامير الجرجاني تشكشيولدرزوف الذى قتل زوجته بمدفع، وعن مستقبل روسيا. وتحدثت بشتالكن أيضا عن مستقبل روسيا ، وعن احتكار الخمور ، وعن معنى القوميات ، وعن كراهته لكل حديث معاد . ثم كان انفجار مفاجيء من فوروشيلوف ، فذكر في نفس واحد - وكاد يخنق من اسرافه على رئيته - أسماء درابر ، وفرتشو ، وشلجونوف ، وبيتشات ، وهلمهولتز ، وشتار ، وسنت رانموند ، وجوهان ميلرالفسيولوجى، وجوهان ملر المؤرخ - وكان واضحا انه يخلط بينهما - وتين ، ورينان ، وشتشابوف ثم توماس ناش ، وبيل ، وجرين . . فتمتم بمبايف حائرا : « من هؤلاء ياترى ؟ » فأجابه فوروشيلوف منتهرا : « انهم أسلاف شكسبير ، وهو بينهم كالجبل الابيض بين سلاسل الالب . » وواصل الحديث عن مستقبل روسيا . وتحدث بمبايف أيضا عن مستقبل روسيا ، وأضفى عليه ألوانا زاهية ، وابتهج بخاصة عندما ذكر الموسيقى الروسية ، فقد كان يراها « آه ! رائعة حقا ! » ولكى يؤيد ذلك جعل يترنم بأغنية لفارلاموف ، ولكنه قوطع بصيحة اجماعية : « انه يغنى الميزيريرى ، من التروفاتورى ، وغناؤه يصك الاسماع . » وبين هذه الضجة كان ضابط صغير يذم الادب الروسى ، وآخر ينشد قصيدة من « أسكرا » (١) ، وتطرف بنداسوف فأعلن ان هؤلاء المخادعين جميعا يجب ان تهشم أسنانهم ، وهذا كل ما هنالك . . ولكنه لم يعين من هم المخادعون الذين يعنهم . وأصبح دخان السجائر خائفا ، وأحس الجميع الحر والاعياء ، وبحث الأصوات ، وغامت العيون، ولعلت قطرات العرق على كل وجه ، واحضرت زجاجات الجعة فأفرغت في الحال ، وسأل أحدهم : ماذا كنت أقول ؟ وسأل آخر:

(١) « الشراة » ، مجلة ثورية .

من كنت أناقش ، وفيم كنت أناقش ؟ وبين الضوضاء والدخان كان جوباريوف يسير كدابه بلا وني ، وهو يترجح من ناحية الى ناحية ، ويجذب لحيته ، ومرة يصفى الى مناقشة ، ومرة يلقي بكلمة ، وكل انسان لا يملك الا أن يشعر أنه هو - جوباريوف - مصدر هذا كله ، وأنه سيد المكان وأبرز الحاضرين ..

وكان لتفينوف قد بدأ حول الساعة العاشرة يحسن بدوافطيع . فانسئل خارجا دون أن يشعر به أحد ، منتهزا فرصة احتدام عام حين تذكرت مدام زوها تشيكوف مثلا جديدا على ظلم الامير بارنولوف . اذ كاد يأمر بقرض أذني أحد الناس .

وغمر هواء الليل النقي وجه لتفينوف المحرور ، ورطبت أنفاس النسيم العطر شفتيه الجافتين ، ففكر وهو يقطع الشارع المظلم : « ما هذا الذي كنت أشهد ؟ فيم كان اجتماعهم ؟ وفيم كان صياحهم وضجيجهم ؟ فيم كل هذا ؟ » وهز لتفينوف كتفيه وعرج على قهوة فيبر فتناول صحيفة وطاب مثلجة . فكانت الصحيفة مشحونة بالحديث عن المسألة الإيطالية كما كانت المثلجة كريهة المذاق . وكان يهم بالعودة الى فندقه عندما اقترب منه فجأة شخص مجهول يلبس قبعة عريضة ، وجلس الى منضدته قائلا بالروسية : « لعلني لا أزعجك » . وأطال لتفينوف النظر الى ذلك القريب قبل أن يعرف أنه السيد الضخم الذي كان متواريا في ركن عند جوباريوف ، والذي حذق فيه بانتباه بالغ عندما دار الحديث حول الآراء السياسية . أن ذلك السيد لم يفتح فاه قط طيلة المساء .. وهاهو ذا قد جلس على مقربة من لتفينوف ، وخلع قبعته وهو ينظر اليه متوددا في شيء من الارتباك .

بدأ ذلك الفريب حديثه قائلا :

- ان السيد جوباريوف الذى تشرفت بمقابلتك فى داره اليوم لم يعن بتعريفك بى . فاسمح لى أن أعرفك بنفسى . أنا أدعى بوتوجين ، وكنت موظفا فى وزارة المالية بسنت بطرسبرج . أرجو ألا تدهش .. فليس من عادتى أن أصادق الناس بهذه السرعة .. ولكن معك ...

وهنا انعقد لسانه ، فسأل النادل أن يحضر له كأسا صغيرة من « الكرشفاسر » وأضاف مبتسما : « لكى أتشجع » .

ونظر لتفينوف فى اهتمام مضاعف الى آخر من قسم له أن يعرفهم فى يومه ذاك من الغرباء . وكان أول ما خطر بباله : « انه لا يشبه الآخرين » .

انه لا يشبههم ما فى ذلك ريب . فقد كان هذا الجالس امامه ينقز على حافة المنضدة بأصابع ناعمة ، رجلا عريض المنكبين ، ممتلىء أنجذع ، قصير الساقين ، منحنى الرأس ، جعد الشعر مشعثه ، له عينان واعميتان حزيتان يظللهما حاجبان كثيفان ، وفم غليظ حسن القطع متراكب الثنايا ، وأنف من تلك الأنوف الروسية الصميمة التى يشبهونها بالبطاطس . رجلا يبدو فى مسلكه عسر ونبو عن المؤلف ، وأقل ما يقال فيه انه لم يكن من طراز عادى بين الناس . وكان هندامه مهملا ، فسترته العتيقة الطراز معلقة عليه كالزكبة ، ورباط رقبته ملفوت . ولم يضق لتفينوف باقدامه المفاجيء . ولم يحسبه تطفلا ، بل أحس له شيئا من الزهو الخفى ، فقد كان من الجلى أن ذلك الرجل لم يألف التقرب الى الغرباء . وقد اثر فى لتفينوف تأثيرا عجيبا ، وأثار فيه حبا واحتراما وعظفا صادقا .

كرر فى صوت رقيق فيه شيء من الخدر والضعف ، صوت كان تسقى اتساقا غريبا مع شخصيته كلها :

- اذن فأنا لا أضايك ؟

فأجابه لتفينوف :

— البتة . بل اننى جد سعيد .

— حقا ؟ اذن فانا سعيد أيضا . لقد سمعت عنك الكثير ،
وعرفت أعمالك ومشروعاتك . أنه لخير ما عزمت عليه ، فلا عجب
ان بقيت الليلة صامتا .

فأجابه لتفينوف :

— نعم . وارك ايضا لم تتكلم الا قليلا .

فتنهّد بوتوجين :

— لقد قال الآخرون ما يكفى وزيادة . كنت أستمع لهم .

ثم عقب بعد لحظة وهو يرفع حاجبيه مزامحا :

— هل أعجبك برج بابل الذى كنا فيه !

— برج بابل ! لقد أحسنت التعبير . طالما وددت ان أسأل أولئك
السادة لماذا يثيرون كل هذه الضجة .

فتنهّد بوتوجين مرة أخرى :

— الحق انهم هم أنفسهم لا يعلمون . وقد كان يقال عن أمثالهم
قديما : « انهم آلات مسخرة بين يدي قوة قاهرة » ، ولكن لدينا
الآن اوصافا أكثر وضوحا . ولا أقول ذلك رغبة في انتقادهم ، بل
انى لأغاو فأقول انهم كلهم من خيار الناس . فمدام زوها نشيكوف
— مثلا — أعلم عنها خيرا كثيرا ، فقد منحت آخر ما تبقى من
ثروتها لقريبتين فقيرتين . حتى ان قلنا انها لم تخل من تأثير التظاهر
والرغبة في الظفر باعجاب الناس فقد كان عملها على أى حال تضحية
رائعة من امرأة ليست فى نعمة كبيرة ! وناهيك بالسيد بشتالكن !
فسيأتى يوم يقدم اليه فيه فلاحو اقليمه كأسا من الفضة
على شكل القرعة ، أو أيقونة لقديسه الراعى ، وسيقول لهم فى
خطبة الشكر انه لا يستحق هذا الشرف ، ولكنه لن يكون صادقا
فى ذلك ، فانه يستحقه ولا ريب . وصديقك السيد بمبايف قلب
من ذهب ، وان كان أمره كأمير الشاعر يازيكوف الذى ذكروا انه
كان يتغنى بمديح باخوس وهو جالس الى كتاب يرشف الماء .. !
فحماسه ليس لها هدف محدود ، ولكنها حماسة على كل حال .
والسيد فوروشيلوف من أطيب خلق الله نفسا ، وهو كسائر أنداده
من أصحاب « لوحة الشرف » يعد نفسه « أركان حرب » للعلم
والحضارة ، وهو كثير الجمععة ، ولكنه صغير السن كما ترى .
نعم نعم ، انهم جميعا من خيار الناس ، ولكنك اذا حققت النتائج

لم تخرج بشيء . المواد كلها من الطراز الاول اما الطبخة فكريمة المذاق !

أصفى لتفينوف الى بوتوجين مليا . وكان حديثه المطمئن الواثق ينبىء بأنه ممن يحسنون الكلام ويلذونه . أجل . ان بوتوجين كان يحب الكلام ويحسنه . ولكنه كان رجلا ذهب بخيلائه تجارب الحياة . فهو ينتظر في هدوء فلسفى حتى تسنح له فرصة اللقاء مع روح يوافق روحه .

تابع حديثه بنبرته الحزينة التى لانشوبها مرارة :

— أجل ، ان هذا كله جد غريب . وأمر آخر أود أن تلاحظه : اذا اجتمع عشرة من الانجليز مثلا فانهم سرعان ما يتحدثون عن التلغراف البحرى ، أو عن ضريبة الورق ، أو عن طريقة لدبغ جلود الفيران — أى عن شىء واقعى محدد . واذا اجتمع عشرة من الالمان فثمة الحديث عن شلر فيج هولشتين ووحدة المانيا . فاذا اجتمع عشرة من الفرنسيين فالحديث دائر — مهما تحاول أن تغير مجراه — حول احاديث الفرام . أما اذا اجتمع عشرة من الروس فسرعان ما يتناقشون — كما رأيت هذا المساء — فى عظمة روسيا ومستقبلها فيتحدثون بعبارات غامضة كل القموض ، بادئين مع بدء الخليقة ، غير مستندين الى حقائق ولا منتهين الى نتائج . بل انهم يبدأون ويعيدون فى ذلك الحديث الممجوج كما يلوك الاطفال قطعة من المطاط لا تسمن ولا تغنى من جوع . ثم يأتى موضوع القرب المتعفن لينال نصيبه . وعجيب أمر هذا القرب ! فنحن نعلم انه متعفن مع انه يفوقنا فى كل شىء . وياليتنا نحتقره حقاً ! ولكن الامر لا يعدو الدجل والتهوئش . ومهما ندم فاننا لا نقدر سوى رأى القرب ، أعنى رأى صعاليك باريس . . أعرف رجلاً من الفضلاء — رب أسرة جاوز طور الشباب — لازمه الحزن عدة أيام لأنه صاح فى مطعم فرنسى يطلب une portion de bifteux aux pommes de terre garçon, bifteux pommes :

ثم اذا برجل فرنسى اصيل ينادى bifteux pommes وعلم فمند ذلك الحين اخذ ينادى فى كل مكان bifteux pommes وعلم رفاقه ان ينادوا مثله . بل ان بنات الهوى ليعجبن لتلك الرهبة التى تغشى شبابنا الاجلاف حين يدخلون مخادعهم المنكودة ، وكأنهم يقولون لأنفسهم :

« يا لله ! أحقا انى هنا مع أنا ديليون نفسها ! »

فسأله لتفينوف :

— والى أى شىء تعزو نفوذ جوباريوف الظاهر على كل من حوله ؟ أهى موهبته ؟ أهى ملكاته ؟
— لا لا . لا شىء فيه مما تقول .
— أتراها شخصيته !

— ولا ذلك أيضا . انما هى قوة ارادته . قوة الارادة سلعة نادرة عندنا نحن الصقالبة ، ولهذا نخشع أمامها خشوعا . ان جوباريوف يريد أن يكون سييدا فيسلم له الجميع بذلك . ماذا تظن ؟ لقد حررتنا الحكومة — وهى مشكورة — من ربقة العبودية ، ولكن عادات العبودية ما زالت متأصلة فى نفوسنا بحيث لا نستطيع أن نتخلص منها . اننا نريد سيذا فى كل شىء وفى كل مكان . وهذا السيد قد يكون شخصا حيا وقد يكون « اتجاها » يسيطر علينا . . . فنحن فى هذه الايام مثلا عبيد أرقاء للعلوم الطبيعية . اما لماذا تقبل على انفسنا هذا النوع من الرق فأمر لايسهل فهمه ، ولكن يبدو أنه بعض طبيعتنا . واهم شىء على كل حال هو أن يكون لنا سيد . فاذا كان بيننا هذا السيد فمعنى ذلك أنه لنا ، ولا علينا بعد ذلك من شىء ! عبيد ! وكبرياؤنا كبرياء العبيد ، وخضوعنا خضوع العبيد . فاذا ظهر سيد جديد فقد انتهى امرالسيد القديم . كان زيدا ثم أصبح عمرا ، فنحن نلکم زيدا ونسجد لعمرو ! تذكر كم مرة لعبت فينا هذه اللعبة ! ونحن نزعّم أن الشك هو خصيصتنا الاصلية ، ولكننا حتى عندما نشك لا نكون كمحارب يقاتل بسيفه بل كخادم يضرب يقبضته ، ولعله انما يفعل ذلك طاعة لأمر سيده . ثم اننا شعب لين العريكة ، وليس من العسير أن نبقى ملجمين . وهكذا أصبح السيد جوباريوف قوة بيننا . لقد ظل يدق فى موضع واحد حتى نفذ منه . الناس يرون رجلا معتدا بشخصيته ، يؤمن بنفسه ويلقى الاوامر — وهذا اهم ما فى الامر ، انه يلقي الاوامر ! — فلايد اذن أن يكون على صواب ، ولايد أن نطيعه . هكذا نشأت الفرق الدينية عندنا ، الاونفريون والاكواينيون وغيرهم . من أمسك العصا فهو القائد .

كان بوتوجين غائم العينين ، مشتعل الوجنتين ، ولكن العجيب ان حديثه على قسوته وعنفه لم يكن فيه شىء من الماراة ، بل كان يشف عن حزن صادق عميق .
سأله لتفينوف :

— كيف عرفت جوباريوف ؟

- عرفته منذ زمن طويل .. اليك خاصة أخرى من خصائصنا :
الكاتب الذي أمضى حياته كلها يحارب المسكرات بالشعر والنثر ،
ويهاجم شركات الخمر بحرارة وعنف ، هذا الكاتب لا جناح عليه
أن يشتري معملين للتقطير وافتتح مائة حانة ! ولو فعلها رجل غيره
لمحى من وجه الأرض ، أما هذا فلا يلومه ولا يعتب عليه أحد !
وكذلك السيد جوباريوف ، فهو سلافوفيل وديموقراطي واشتراكي
وما شئت فسمه ، ولكنه كان - وما زال - يكل إدارة ممتلكاته
لأخيه ، وهو سيد من طراز السادة الإقدمات الذين يلقبون
« بالجلادين » . ومع ذلك فمدام زوها نتشيكوف تغفر رأسها في
التراب عند قدمي جوباريوف ، وهي التي طربت لأن مسز بيتشر
ستو صفتت تنثيف على خده ! وما ذاك إلا لأن جوباريوف يوهم
الناس أنه يقرأ كتباً قيمة ! هذا كل ما له من فضل ! لقد رأيت
بعينيك اليوم مبلغ قدرته على التعبير والحمد لله على قلة كلامه
وانطوائه على نفسه . فهو حين يتبسّط وينطلق لا يطيقه أحد ولو
كان ضيورا مثلي . أنه يسترسل في النكات الفليضة والنوادر
البذيئة .. أجل ، ان السيد جوباريوف المبجل يروى نوادر مكشوفة
ويقهقه قهقهة صاخبة وهو يرويها .

قال لتفينوف :

- أصبور أنت ! لقد كان يخيل إلى عكس ذلك . ولكن اسمح
لي أن أسألك عن اسمك .

فرشف بوتوجين قليلا من الكرشفاسر .

- اسمي سوزونت .. سوزونت أيفانتش . وقد سموني بهذا
الاسم تيمنا بقريب لي أرشمندريت (١) لا أدين له بغيره . وأنا من
بيت دين أن جاز لي أن أقول هذا . أما شكك في صبري فلا أساس
له . فأنا جد صبور . وقد خدمت الدولة اثنتين وعشرين سنة .
وكننت مرعوسا لعمي . وهو الآن مستشار . واسمه أبرينار
بوتوجين . هل تعرفه ؟

- لا .

- أذن أهئك . أجل . انني صبور . ولنعد إلى الاصل - كما
كان يقول منذ بضعة قرون زميلي المطران يواقيم (٢) الذي إحرق

(١) الارشمندريت في الكنيسة الروسية شيخ دير أو مجموعة من الديرية .

(٢) شيخ « السلبيين » Raskolnik في القرن السابع عشر ، وكانوا فرقة رفضت
الاصلاحات الدينية التي أدخلها بطرك الكنيسة الروسية نيكون (١٦٠٥ - ١٦٨١) ،

في عهد القيصر تيودور . اننى اعجب ياسيدى لآبناء وطنى .
فكلهم شديدا الكآبة يمشون ناكسى الرءوس . وهم مع ذلك
حفعمون بالأمل . فما أسرع ما تطيش عقولهم واذا هم ينتفضون
حماسة ! انظر الى السلافوفيل الذين يعد جوباريوف نفسه واحدا
منهم . انهم من خيار الناس . ولكن فيهم هذا المزاج نفسه من
اليأس والاندفاع . ولهذا تراهم يعيشون فى الزمن المستقبل . كل
شيء سوف يكون . واياك أن تنسى انه سوف يكون ! أما عن
الحاضر فاننا لم نعمل شيئا . ولم تخلق روسيا شيئا من انتاجها
الشخصى ، لا فى السياسة ولا فى القانون ، ولا فى الفن . بل ولا
فى الصناعة اليدوية !.. ولكن مهلا مهلا . والصبر الصبر . فكل
شيء سوف يكون . ولماذا ! اسمحوا لى أن أسألكم هذا السؤال !
عجبا ! لاننا نحن المثقفين لا خير فينا . أما الشعب .. آه !
الشعب العظيم . أرايت الى قميص هذا الفلاح ؟ انه المنيع الذى
ميصدر عنه كل شيء . لقد تحطمت كل الاصنام الاخرى ، فعلينا
أن تؤمن بالقميص . حسنا ! فماذا اذا أخلف القميص ظننا !..
كلا ، انه لن يخلف الظن . اقرأ مدام كوهانوفسكا وارفع عينيك
الى السماء ! حقا لو كنت رساما لرسمت صورة كهذه : رجل
مثقّف راكم امام فلاح وهو يقول له : اشغنى ياسيدى الفلاح ،
فان المرض يفتك بى ، وفلاح راكم بدوره امام الرجل المثقف وهو
يقول له : علمنى ياسيدى الشريف ، فان الجهل يفتك بى.. كلاهما
باق - طبعاً - حيث هو . ان واجبنا هو أن نستشعر شيئا من
التواضع - فعلا لا قولا - وأن نستعير من اخوتنا الكبار ما ابتكروه
قبلنا وأتقنوه . أكثر منا ! Kollner, noch ein glaschen kirsch (1)
لا تظن انى سكير ، ولكن الخمر تطلق لسانى .
فقال لتفينو ف مبتسما :

— لا حاجة بى — بعد ما قلته لى الآن — الى سؤالك عن الفريق
الذى تنتمى اليه ، ولا عن رايك فى أوربا . ولكن دعنى أوجه
الك ملاحظة واحدة : تقول اننا يجب أن نستعير من اخوتنا الكبار .
ولكن كيف نستطيع أن نستعير بغير أن نراعى ظروف المناخ
والأرض ، وخصائص البيئة والأمة ؟ اذكر أن أبى اشتري من

وقد اضطهدوا اضطهادا عظيما ، ونفى كثيرون منهم الى سيبيريا ، واشتهروا بجدهم
وتقواهم وتقشفهم .
(1) « جرسون ! كأسا أخرى من الكرش ! » .

«بوتنوب» مكنة للدراس من الحديد الصب - مكنة مشهورة وممتازة في الحقيقة . أتدرى ما الذى حدث ؟ لقد بقيت في الجرن خمس سنوات طوالا بلا فائدة حتى استبدلت بها أخرى أمريكية مصنوعة من الخشب ، وأقرب الى أساليبنا وعاداتنا كأكثر المكنات الأمريكية . لافائدة من أن نستعير دون تدبر ياسوزونت إيفانتش . فرفع بوتوجين رأسه ، وبقي لحظة صامتا ، ثم قال :

- لم أكن أتوقع مثل هذا النقد منك يا عزيزى جريجورى ميهالوفتش . ما الذى يدعوك أن تستعير شيئا ما بدون تدبر ؟ أنت تأخذ ما ليس لك لا لأنه ملك لفيرك ، بل لأنه يناسبك . واذن فأنت تراعى وتختار . أما عن النتائج فلا نعلم أنفسنا ، فسوف يكون لها حظ كاف من الاصاله بفضل تلك الظروف والبيئة المناخية وغيرها مما ذكرته أنت . ما عليك الا أن تضع أمام المعدة الطبيعية غذاء طبيبا فتهضمه بطريقتها الخاصة ، وعندما يمر الزمن ويزداد السكان قوة يمنحه من عنده لونا جديدا . خذ لفتنا نفسها مثلا . لقد غمرها بطرس الاكبر سيل من آلاف الكلمات الأجنبية ، من هولندية ، وفرنسية ، والمانية ، وكانت تلك الكلمات تدل على أفكار يجب أن يالفها الشعب الروسى ، فصبها بطرس علينا بلا تردد ولا تلطف . وكان النتاج الاول بالطبع نتاجا هجينا مختلطا . ثم بدأت عملية الهضم التى أشرت اليها . لقد ثبتت الأفكار وهضمت ، فتبخرت الصيغ الأجنبية بالتدريج ، ووجدت اللغة في نفسها مايفنى عن هذه الصيغ . والآن يستطيع أى كاتب عادى أن يترجم لك أية صفحة تريد من هيجل - أجل ، من هيجل نفسه ! - دون أن يستعين بكلمة واحدة غير صقلية . وما حدث في اللغة يجب أن تأمل حدوثه في النواحي الأخرى : فمرد الأمر كله الى سؤال واحد : ألنا طبيعة ذات حيوية قوية ؟ . حسنا ، اننى أقول ان طبيعتنا . حسنا ، انها سوف تثبت للتجربة ، فقد اجتازت محنا أعظم من هذه . انما تخشى على سلامتها واستقلالها الأمم الضعيفة المنحلة ، وانما يتباهى « بالاصالة الروسية » ضعفاء العقول منا . فقد يكون المرء معنيا كل العناية بصحته ولكن ذلك لا يحمله على أن يتحمس في الحديث عنها ، ولو فعل ذلك لحق له أن يخجل من نفسه . - هذا كله صواب محض ياسوزونت إيفانتش . ولكن لماذا لا نغفى أنفسنا من التعرض لمثل هذه التجارب ! أنت نفسك تقول ان النتاج الاول كان هجينا مختلطا ! فماذا لو بقى ذلك النتاج

أنهجين ! لقد بقى بالفعل كما تعلم أنت نفسك .
- ولكنه لم يبق في اللغة - وليس هذا بالشئ القليل ! ثم
ان الشعب هو الذى استبقاه لا أنا ، فليست ملوما اذا كان مقدورا
على هذا الشعب أن يتبع مثل هذا النظام . يصيح السلافوفيل :
« لقد تطور الالمان تطورا عاديا ! » ولكن انى لنا ذلك اذا كانت
اول خطوة خطاها جنسنا - أعنى استدعاء أمير من وراء البحار
ليحكمهم - خطوة شاذة غير عادية ، لا تزال تتكرر الى اليوم في كل
امرى منا ! كل منا بلا ريب قد قال لشئ أجنبى - ولو مرة
واحدة في حياته - « تعال ، احكمنى وسدنى ! » أنا بالطبع على
استعداد لأن أسلم لك بأننا حين نضع مادة أجنبية في جسمنا لا
نستطيع أن نحكم حكم اليقين أى مادة تلك التى نضعها فيه ،
أدسم أم سم . ولكن من المعروف ان الانتقال من السيئ الى
الحسن لا يكون بشئ أحسن نسبيا ، بل بشئ أسوأ . والسم
نفسه ينفع في الطب . لا يجدر بغير البله أو اللئام أن يحتجوا
بفقر الفلاحين بعد التحرير ، أو بانتشار السكر منذ الفاء احتكار
الخمور ، فالقاعدة دائما : من الأسوأ الى الأحسن ..

مرر بـوتوجين يده على وجهه ، واستطرد قائلا :
- سألتنى عن رأى في أوربا . وأقول لك انى معجب بها ،
ومناصر لمبادئها الى أبعد حد ، ولا أرى حاجة الى اخفاء هذه
الحقيقة . لقد تعلمت من زمن طويل - لا ، ليس من زمن طويل
- لقد تعلمت من زمن ألا أهاب التعبير عن معتقداتى بجلال .
وقد رأيتك أنت أيضا لا تتردد في اطلاق جوباريوف على طريقتك
الخاصة في التفكير . اننى أحمد الله على انى لم أعد أعبأ بأراء
الرجل الذى أحادثه ولا بوجهات نظره ولا بعاداته . والحق انى
لا أعلم شيئا أقبح من هذا الجبن الذى لا داعى له - هذه الرغبة
في الارضاء التى تنبعث عن الملق ، وتجعلك ترى أحيانا رجلا من
ذوى الشأن بيننا يحاول أن يتحجب الى طالب صغير ليس بشئ في
عينيه ، فيهبط معه الى نوع من العبث الفكرى ، ويلجأ الى الخداع
والحيله . هب ان ذوى الشأن قد يلجأون الى ذلك رغبة في
الشهرة ، ولكن ما الذى يجبرنا نحن العاديين من الناس على أن
نتزحزح عن آرائنا ، وننزل عن كرامتنا ؟ أجل ، أجل ، اننى غريب
أدين بالولاء لأوربا . ومعنى ذلك - اذا شئت التحديد - انى
أدين بالولاء للحضارة . تلك الحضارة التى يهزأ بها أصحابنا الآن

هزءا شنيعا. معنى ذلك انى ادين بالولاء للمدينة . أجل ، للمدينة ،
فهذه كلمة أفضل . وانى احبها واومن بها من صميم قلبى ، وانى
لا اومن ولن اومن بشيء سواها . هذه الكلمة « ال ه د نية »
(ونطق بوتوجين بكل مقطع فى جزم وتأکید) كلمة واضحة نقية
مقدسة ، وكل ما عداها من المثل كالقومية والمجد وما اليهما -
كل هذه المثل تنبعث منها رائحة الدم ... سحقا لتلك المثل !
- هذا حسن . ولكن ألا تحب روسيا - وطنك - ياسوزونت
ايفانتش !

فمرر بوتوجين يده على وجهه قائلا :
- اننى احبها حبا عنيفا واكرهها كرها عنيفا .
فهز لتفينوف كتفيه مرددا :

- هذه عبارة قديمة يا سوزونت ايفانتش . هذه عبارة مبتذلة .
- وای شيء فى ذلك ؟ اتراه يخيفك ؟ عبارة مبتذلة ! اننى أعرف
كثيرا من العبارات المبتذلة الرائعة . « النظام والحرية » مثلا . هذه
عبارة مبتذلة جد معروفة ، فهل تظن اننا لسنا بحاجة اليها مع
ما نحن فيه من تحلل من القوانين ، ومن استبداد بيروقراطى ؟
الا تجد أن كل العبارات التى تدير رءوسا كثيرة شابة ، من مثل
« البورجوازية العفنة » و « سيادة الشعب » و « حق العمل » -
الا تجد أن هذه العبارات أيضا عبارات مبتذلة ؟ أما الحب الذى
لا يمكن أن ينفصل عن الكره ...
فقاطعه لتفينوف قائلا :

- بيرونزم .. رومانتيكية العقد الرابع .
- معذرة اذا قلت انك مخطيء . ان مثل هذه الانفعالات
المختلطة قد سبق الى الاشارة اليها كاتلس - الشاعر الرومانى
كاتلس - منذ ألفى سنة . وقد قرأت ما كتبه فى ذلك ، فانى أعرف
شيئا من اللاتينية بفضل دراستى الدينية . أجل ، اننى احب
روسيا واكرهها فى وقت واحد . روسيا ، بلادى القرية الحلوة
الكرهية العزيزة ! لقد غادرتها منذ قليل الانى بحاجة الى شيء من
الهواء النقى بعد أن جلست عشرين عاما على كرسي كاتب فى ادارة
حكومية . لقد غادرت روسيا وانى لأحمد المقام هنا ، ولكننى أشعر
انى سأعود اليها عما قريب . هذه الارض طيبة للحدائق ، ولكنها
لا تصلح لثمارنا البرية .
قال لتفينوف :

— أنت تحمد المقام ، وأنا أيضا أحب هذه البلاد ، وقد جئت اليها
لأتعلم ، ولكن ذلك لا يمنعني أن أرى مثل هذه الأشياء ...
وأشار إلى فتاتين من بائعات الهوى تسيران وقد أحاطت بهما
ثلة من أعضاء نادى القروسية وهم يحاولون أن يتكلموا الفرنسية
بلهجة باريس ، وإلى بهو القمار وقد غص بالناس على الرغم من
تقدم الليل .

فقاطعه بوتوجين قائلا :

— وما إدراك أنى لا أرى هذه الأشياء ؟ معذرة اذا قلت لك ان
ملاحظتك تذكرنى بتهليل صحفييننا المساكين أثناء حرب القرم كلما
وصفت جريدة التيمس سيئة من سيئات مجلس الحرب الانجليزى .
أنا نفسى لست متفائلا . أن البشرية كلها ، وحياتنا كلها ، وهذه
المهزلة كلها بخواتيمها المحزنة ، لا تبدو امام ناظرى فى اللون وردية .
ولكن لماذا ناصق بالغرب ما لعله أن يكون متصلا فى طبيعتنا
البشرية نفسها ؟ ان كان بهو القمار هذا يقضى العين فهل تراك تجد
مقامرينا الوطنيين أحسن منظرا ؟ لا يا عزيزى جريجورى ميهالوفتش .
يجب علينا أن نتواضع قليلا ، ونراجع قليلا . ان التلميذ النجيب
يرى اخطاء استاذة ولكنه يلزم الصمت ازاءها لانه يحترم هذا
الاستاذ . وهذه الاخطاء نفسها تنفعه وترشده الى الطريق السوى .
أما ان آبيت إلا أن تسلق الغرب بلسانك ، فهذا هو الأمير كوكو
يعدو الى بهو القمار عدوا ، ولعله سيخسر على المائدة الخضراء فى
ربع ساعة الايجار الذى انتزع من مائة وخمسين أسرة شقيت فى
كسبه . ان أعضابه ثائرة ، فقد رأته اليوم فى قهوة ماركس يتصفح
رسالة لفايو (١) ... ستجده خير مخلوق تتحدث معه !

فأسرع لتفينوف يقول حين رأى بوتوجين ينهض من مكانه :

— لا لا . معذرة . أنا لا أكاد أعرف الأمير كوكو . ثم انى أفضل
ان أتحدث معك .

فقاطعه بوتوجين وهو ينهض وينحنى :

— أشكرك كثيرا . ولكننا تحدثنا طويلا ، أعنى اننى تحدثت
وحدى فى الحقيقة . ولعلك لاحظت من قبل ان المرء يعترية دائما
شبه خجل وارتباك حين يجد أنه تكلم وجده ، وخصوصا اذا كان
ذلك فى مقابلة أولى ، فكانه يريد أن يظهر براعته لصاحبه . الى

(١) لى فايو (١٨١٣ - ١٨٨٣) كاتب وصحفى فرنسى ، عرف بتعصبه الشديد
للكاثوليكية وعدائه العنيف لكل ألوان التفكير الحر .

لقاء قريب . واكرر لك أنى سعيد جدا بمعرفتك .
- لحظة واحدة ياسوزونت أيفانتش . أخبرنى على الأقل أين
تسكن ، وهل تنوى أن تبقى كثيرا ؟
فبدأ على بوتوجين شىء من الارتباك :
- سأبقى نحو أسبوع فى بادن . نستطيع أن نلتقى هنا على كل
حال . فى قهوة فيبر أو فى قهوة ماركس . وقد أزورك .
- أريد عنوانك على كل حال .
- اننى أعيش وحيدا .
فسأله لتفينوف بفتة :
- أمتزوج انت ؟
- لا . معاذ الله من ذلك ! ولكن معى بنتا ...
- آه !

وكان فى نبرة لتفينوف معنى الاعتذار ، وفى ملامحه تأدب
مقصود ، فمضى بوتوجين يقول :
- ان عمرها لا يتجاوز ست سنوات . انها يتيمة ... ابنة
سيدة ... صديقة حميمة لى . يحسن بنا اذن أن نلتقى هنا .
وداعا .

وكبس قبعته على رأسه الجعد الشعر واختفى سريعا . ولمح
لتفينوف شبحه مرتين تحت فوانيس الطريق المعتم المؤدى الى طريق
لختنتالر .

- رجل غريب ! يجب أن أبحث عنه !
هذا ما جال بخاطر لتفينوف وهو عائد الى فندقه . ودخل حجرته فاستوقفت نظره رسالة على المنضدة . فقال في نفسه : « آه ! تانيا ! » واستخفه الفرح ، ولكن الرسالة كانت من بلده - من أبيه . وفض لتفينوف الخاتم العائلى السميكة ، وكاد يبدا في قراءة الرسالة عندما نبهه شذا قوى ممتع مألوف لديه ، ورأى في النافذة طاقة كبيرة من الهليوتروب الفضة فى كوب ماء . فانحنى عليها بشيء من الدهشة ، وشمها ... وكأنما نبض فى ذاكرته شيء سحيق البعد ... ولكن أى شيء هو ؟ لم يستطع أن يعرف . فدق الجرس يدعو الخادم ، وسأله من أين جاءت هذه الازهار . فأجابه الرجل أن سيدة أحضرتها . وأبت أن تذكر اسمها ، وقالت : ان «الهرتسليتنيوف» سيعرفها من هذه الازهار . وعاد ذلك الشيء ينبض فى ذاكرة لتفينوف . وسأل الرجل كيف كان شكل السيدة ، فأخبره أنها كانت فارعة الطول رائعة الملبس تسدل على وجهها نقابا . وأضاف : « لعلها كونتة روسية » . فسأله لتفينوف :
- لماذا تظن ذلك ؟

فأجابه الخادم باسمه عن نواجذه :
- لأنها أعطتني جلدتين .

وصرف لتفينوف الخادم ، وظل واقفا امام النافذة وقد غرق فى تفكير عميق ، ثم لوح بيده وانصرف ثانية الى الخطاب الآتى من الريف . كان أبوه يصب عليه شكاواه المعتادة ، مؤكدا له ان القمح قد بار اذ لم يرض أحد أن يأخذه ولو بغير ثمن ، وأن الناس قد خرجوا تماما عن حدود الطاعة ، وأن نهاية العالم ربما كانت وشيكة الوقوع . جاء فى رسالته : « أتذكر سائقى الاخير - ذلك الفتى الكالموكى ؟ لقد أصيب بمس من الجنون وأشرف على الموت المحقق ، وكدت أصبح بلا سائق لولا لطف الله . فقد أشار على بعض أولى الخير أن أرسل الفتى المريض الى رياران حيث يقيم قس مشهور

ببراعته في افساد السحر ، فنجع علاجه على قدر الامكان . واليك رسالة الاب الطيب تأييدا لما اقول وتذكارا لهذا الحادث . « واجال لتفينوف بصره في تلك الوثيقة العجيبة فوجد فيها : « ان الخادم نيكافور ديمتريف قد اصابته علة لا ينفع فيها طب ، وكانت هذه العلة من فعل اناس اشرار ، ولكنه هو نفسه ، اى نيكافور ، كان السبب فيها ، اذ حنث في وعده لفتاة معينة ، فاستعانت بغيرها حتى جعلته لا يصلح لشيء ، ولو لم اظهر انا لمساعدته في هذه الحال لقضى عليه بأن يهلك كما تهلك الديدان ، ولكنى بايمانى العميق بالعين المطلعة على كل شيء كنت سببا لامتداد اجله . ولست في حل من البوح بالطريقة التى سلكتها لشفاؤه ، ولكنى اسأل سعادتكم الا تعطفوا على هذه الفتاة الماكرة ، بل انه لا ضرر من انتهارها حتى لا تعود الى اصابته بأذى » .

شرد ذهن لتفينوف في هذه الوثيقة ، فقد حملت اليه نفحة من الصحراء ، من المروج ، من الظلمة العمياء التى تخيم على الحياة المتعفنة هناك . وبدا له غريبا ان يقرأ مثل هذه الرسالة في بادن دون غيرها من المدن . وكان الليل قد جاوز منتصفه بكثير فأوى الى فراشه واطفأ النور . ولكنه لم يستطع نوما . فقد ظلت الوجوه التى رآها والاحاديث التى سمعها تتوارد عليه وتدور وقد تشابكت واختلطت اختلاطا غريبا في راسه المتهب المصدع من ادخنة التبغ . فمرة كان يخيل اليه أنه يسمع جوباريوف يهمهم ، ويرى عينيه مثبتتين على أرض الغرفة بتحديثهما البليد العنيد . ثم اذا بهاتين العينين تلمعان وتقفزان واذا هو يرى وجه مدام زوها تشيكوف ويسمع صوتها الحاد ، فيردد هامسا دون وعى : « اجل ، اجل ، لقد صفعته على وجهه » ثم يمر امامه وجه بوتوجين المتنافر الملامح ، ويسترجع للمرة العشرين كل كلمة قالها . ويقفز فوروشيلوف كمفريت العلبة ، في سترته الانيقة المحبوكة كأنها حلة عسكرية جديدة . ويومئ بشتشالكن - في جد ورزانة - برأسه المشذب الذى لا يفكر الا في الخير ، ويجأر بنداسوف ويقسم ويبكى بمبايف من شدة الطرب ... وفوق كل شيء هذا العطر ... هذا هذا العطر الملح الثقيل لم يترك له راحة ، بل أخذ يقوى ويقوى في الظلام ، مذكرا اياه في دأب بشيء ما زال يند عن ذاكرته ... وخطر للتفينوف ان رائحة الازهار في حجرة النوم يمكن أن تضره ، فنهض واخذ يتلمس طريقه الى الطاقة حتى نقلها الى الغرفة الاخرى .

ولكن الشذا المتهالك ظل ينفذ من هناك الى وسادته ، وتحت
ملاءته ، وهو يتقلب على جنبه في ألم . وبدأت تستولى عليه
أحلام محمومة ، فاعترض طريقه مرتين ذلك القس « المشهور
ببراعته في افساد السحر » على هيئة أرنب لعبوب له لحية وذيل
كذيل الخنزير . وغرد فوروشيلوف أمامه وهو جالس في قبعة
جنرال بريشة ضخمة ، وكأنه بابل في شجيرة ... وفجأة قفز من
سريره وصاح وهو يضرب يدا بيد : « أمعقول انها هي ؟ .. غير
معقول ! »

ولكى نوضح صيحة لتفينوف هذه يجب أن نسأل القارئ
السمح أن يكر معنا بضع سنوات الى الوراء .

في أوائل العقد الخامس كانت أسرة الأميرين أوزينين تعيش في موسكو بأفرادها العديدين ، في ضيق يقرب من الفقر . وكانوا أمراء روسيين أصلاء من سسل روريك الخلف لا من تتر جورجيا ، واسمهم يرد في التواريخ القديمة التي ترجع الى عهد أمراء موسكو الكبار الاول الذين ضموا أطراف الأراضى الروسية . وقد ملكوا أقطاعات وراثية واسعة ، وكوفئوا مرات كثيرة على « بلائهم وحسبهم وتضحياتهم » ، وجلسوا في مجلس البويار (١) . بل ان أحدهم أبيح له أن يستعمل اسمه كاملا طبقا لسلسلة النسب . ولكن أعداءهم نسبوا اليهم « استعمال السحر والرقى المؤذية » ، فحلت عليهم لعنة الامبراطورية ، ونكبوا « نكبة مروعة لم يستطيعوا النهوض منها » . وجرّدوا من رتبهم ، ونفّوا إلى جهات نائية . لقد هوى آل أوزينين ثم لم يرتفعوا ثانية . وقد رفعت عنهم اللعنة بعد ازمان ، وردت اليهم ممتلكاتهم المصادرة ، وتبوأوا منزلهم القديم في موسكو . ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئا . فقد أفقرت أسرتهن ، ونضبت مواردها ، ولم تنتعش في عهد بطرس ولا في عهد كاترين ، ومازالت تضمحل وتنحدر حتى أصبح من بين أعضائها رؤساء خدم في المنازل الكبيرة ، ومديرو حانات ومفتشو بوليس .

وكانت الأسرة التي أسلفنا ذكرها زوجا وزوجة وخمسة أبناء . وكانوا يعيشون قرب « ساحة الكلاب » في منزل خشبي صغير ذي طبقة واحدة ، له مدخل منقوش مظل على الشارع ، وأسود خضر على البوابات ، الى آخر ما هنالك من شعائر النبل ، على الرغم من انهم كانوا لا يستطيعون تدبير معاشهم الا بجهد شديد ، وكانوا دائما مدينين للخضري ، وربما أعوزهم الشمع والوقود في الشتاء .

(١) « البويار » لقب كان يطلق منذ أقدم عصور التاريخ الروسى على السادة المقربين من أمراء روسيا ، وكانوا أصدقاء الأمير ومستشاريه وقادة حرسه ، والأعضاء البارزين في مجلسه الاستشارى ، وقد تطوروا حتى أصبحوا طبقة أرستقراطية لها حق امتلاك الأراضى والرقى .

وكان الأمير نفسه رجلاً غيبياً خاملاً ، كانت له في شبابه شهرة بالغندرية والاناقة ثم انحدرت به الحال حتى منح وظيفة من وظائف موسكو العتيقة ذات الراتب الصغير والاسم الطنان ، والتي لا عمل فيها على الإطلاق . وكانت هذه المنحة تقديراً لزوجته - التي كانت وصيفة شرف - أكثر مما كانت تكريماً لاسمه . . ولم يكن الأمير يشغل نفسه بشيء ، ولم يكن له عمل إلا أن يجلس متدثراً بمعطفه ويدخن ويزفر بشدة من الصباح الى المساء . وكانت زوجته امرأة عليلة حادة الطبع ، دائمة الاهتمام بتوافه البيت ، وبإدخال أولادها المدارس الأميرية ، والمحافظة على صلاتها في بطرسبرج . ولم تستطع قط أن تألف حياتها ولا بعدها عن البلاط .

وكان والد لتفينوف قد عرف آل أوزينين في أثناء إقامته بموسكو ، وأتيح له أن يسدى اليهم بعض الخدمات ، وأقرضهم مرة ثلاثمائة روبل . وكان ابنه يتردد عليهم وهو طالب ، وقد اتفق أن مسكنه لم يكن بعيداً عن منزلهم . ولكن الذي اجتذبه لم يكن قرب دارهم ، ولا خشونة معيشتهم ، إنما أخذ يكثر من زيارتهم بعد أن أغرم بابنتهم الكبرى إيرينا .

كانت وقتئذ في السابعة عشرة من عمرها ، جديدة عهد بالمدرسة الداخلية الأرستقراطية التي أخرجتها منها أمها لسخطها على المديرية . وكان منشأ هذا السخط أن إيرينا اختيرت في الحفلة السنوية لتلقى ألباتا بالفرنسية في تكريم المراقب ، وقبيل الاحتفال أحلت محلها فتاة أخرى كان أبوها من كبار موردي الخمر ، ولم تستطع الأميرة أن تسكت على هذه الإهانة . والحقيقة أن إيرينا نفسها لم تفتقر للمديرية قط هذا الظلم ، فقد كانت تحلم كيف أنها ستقف أمام الجميع لتلقى أشعارها ، فتتعلق بها الأنظار ، ثم تتحدث عنها بموسكو . . . والحق أنها كانت جديرة أن تتحدث موسكو عنها . فقد كانت فارعة رشيقة ، ذات صدر لم يكد يمتلىء ، وكتفين ضيقتين لما تستدبرا ، وبشرة بيضاء مرمية نادرة في مثل سنها ، صافية ملساء كالقشاني ، وشعر أثيث أشقر تتخلله خصل داكنة تمنحه طرافة عجيبة . وكانت قسماتها الرائعة الدقة - إلى حد الكمال المعرط - لم تكد تفقد سداجة الصبا . . ولكن استدارة جيدها البديع ، وابتسامتها الحاملة الشاردة ، كانا يحدثان عن سيدة شابة حادة المزاج . وكان في تقويس هاتين الشفتين اللتين لا تكادان تنفرجان بالابتسام ، وفي ذلك الأنف الصغير الاقنى الاقرب إلى الضيق ،

شيء من العناد والاندفاع يوشك أن يوردها وغيرها الموارد. وعيناها كانتا رائعتين ، ناعستين حالمتين ، لوزيتين كعيني الهة مصرية ، رماديتين في خضرة ، وطفاوين مقرونتي الحاجبين وكان لتينك العينين تعبير غريب ، كأنما تتأملان بانتباه من عمق بعيد مجهول .

وكان المشهور عن إيرينا في المدرسة أنها من أذكي الطالبات وأقدرهن ، ولكنها متقلبة المزاج ، مشغوفة بالسلطة ، متشبثة برأيها ، وقد تنبأت لها إحدى مدرساتها بأن عواطفها ستكون سببا في شقائها « Vos Passions vous Perd Eront » على حين عابتها مدرسة أخرى ببرود الطبع وجمود الاحساس . ووصفتها بأنها « فتاة بلا قلب » . وكانت أثرها يرينها متكبرة منقبضة ، واخوتها يكادون يرهقونها ، وأما لا تثق بها ، وأبوها يجزع حين تثبت عليه نظراتها الفامضة . ولكن أباه وأما كليهما كانا يشعران نحوها شعورا غير ارادي بالاحترام ، لا لشخصيتها بل لآمال غريبة مبهمة كانت تبعثها في نفسيهما .

قال الأمير الشيخ يوما وهو يخرج غليونه من فمه :
- سوف ترين يابراسكوفيا دانيلوفنا أن صغيرتنا إيرينا سترفعا من هذا الحضيض .

ففضبت الأميرة وقالت لزوجها أن له « des expressions insupportables » (١) ، ولكنها أخذت تحلم بكلماته بعد ذلك ، وتمتعت بين أسنانها : آه ! ليتنا نرتفع حقا من هذا الحضيض !

وكانت إيرينا في بيت أبيها لا يكاد يحد من حريتها شيء . لم يكونا يدلانها بل ، لعلهما كانا يتجنبانها شيئا ما ، ولكنهما كانا لا يعترضان سبيلها ، ولم تكن تريد غير هذا . وعندما كان يحدث أمر شديد الأذلال ، كان يأتي أحد الباعة ويظل يصيح لسمعه أهل الفناء كله ، قائلا أنه مل المجيء للمطالبة بنقوده ، أو يبدأ الخدم أنفسهم بلفظون القول لسادتهم « انكم أمراء مدهشون حقا ، يمكنكم أن تصفقوا في طلب العشاء وتذهبوا جياعا الى الفراش » ... كانت إيرينا تلزم كرسيها دون أن تحرك ساكنا ، ولكن وجهها العابس تنزلق عليه بسمة شريرة أمر على أبيها من كل تأنيب . كانا يشعران بألها مذبذب - وان لم يذبنا - نحو هذه الانسانة التي وهبها مولدها وحده الحق في الثراء والترف والتكريم .

وقد أحب لتفينوف إيرينا من النظرة الاولى . ولم يكن يكبرها

(١) « الفاظ لا تحمل » .

إلا بثلاث سنوات . ولكنه لبث مدة طويلة عاجزا عن الفوز بحبها بل عن جذب انتباهها . وكان في سلوكها نحوه شيء من العداوة ، وكأنما أهانها فانطوت على الجرح إلا أنها لم تستطع أن تغفر أبدا . وكان في ذلك الوقت أصغر سنا وأكثر تواضعا من أن يفهم ما قد يكمن تحت هذه الجفوة التي تشبه الأزدراء . وربما نسي محاضراته وواجباته وبقي جالسا في صالون آل أوزينين الكثيب ، يرقب إيرينا خلصة وقلبه يدق دقا بطيئا مؤلما يكاد يخنقه . فكان يبدو عليها حينذاك شيء كالغضب ، فتفادر مجلسها وتتمشى وتنظر إليه نظرات باردة وكأنه منضدة أو كرسي ، ثم تهز كتفها وتشبك ذراعيها . وربما تجنبت النظر إليه أيضا طول المساء ، حتى عندما يتحادثان ، فكانها تحرمه حتى نعمة النظر !.. وربما عمدت الى كتاب تحديق فيه دون أن تقرأ ، وقد زرت حاجبيها وعضت على شفيتها ، ثم تسأل أباهما أو أخاهما فجأة بصوت مرتفع : « ما معنى الصبر بالالمانية ؟ » وحاول أن ينتزع نفسه من الدائرة المسحورة التي كان يضطرب فيها عاجزا معذبا كطائر في فخ ، وغاب عن موسكو أسبوعا حتى كاد يجن من الشوق والألم ، ثم عاد الى منزل آل أوزينين نحىلا مريضا .. والعجيب أن إيرينا كانت قد نحلت هي الأخرى نحولا ظاهرا خلال تلك الأيام ، وشحب وجهها وذبل خذاها .. ولكنها قابلته بمزيد من البرود ، واهمال يكاد ينطوي على البغض ، وكأنه نكأ ذلك الجرح الخفى الذى طعنه في كبرياتها .. وهكذا عذبتة شهرين . ثم انقلب الحال كله في يوم واحد . اشتعل الحب كالنار ، انقض عليها كالصاعقة . كان جالسا - لقد ظل يذكر هذا اليوم سنين - في صالون آل أوزينين قرب النافذة ، ينظر الى الشارع ولا يعي ، وقلبه يعتلج فيه الفيظ والسأم ولكنه لا يستطيع أن يتحرك من مكانه .. وفكر أن لو كان يجري تحت النافذة نهر لرمى نفسه فيه برعشة خوف ، لكن بغير ندم . وكانت إيرينا جالسة غير بعيدة منه في صمت وسكون غريبيين . وكانت قد لشت أياما عدة لا تكلمه بل لا تكلم أحدا ما . ظلت جالسة معتمدة براسها على يدها وكأنها في حيرة ، وهي تنظر حولها ببطء بين الفينة والفينة . وأخيرا أصبح هذا العذاب البارد أعظم مما يستطيع لتفينوف أن يحتمل . فنهض ، وبدأ يبحث عن قبعته دون أن يسلم . وإذا بصوت رقيق يهمس : « أبق » .

وخفق قلب لتفينوف ، ولم يعرف لتوه صوت إيرينا ، فقد كانت

فى تلك الكلمة الواحدة رنة لم تكن فيه من قبل . ورفع راسه فذهل ... لقد كانت ايرينا تنظر اليه بشفف ، أجل ، بشفف ! ورددت قولها : « ابقى ، لا تذهب ، اود ان اكون معك » وأردفت وقد زاد صوتها انخفاضا : « لا تذهب . انى اريد ذلك » . اقترب منها دون ان يفهم شيئا ، ومد اليها يديه وهو لا يكاد يعى ما يفعل ... فأسلمته يديها ، ثم التفتت باسمه وقد احمر وجهها احمرارا شديدا ، وخرجت من الحجرة وهى لا تزال تبتسم . وعادت بعد دقائق قليلة مع اختها الصفرى ، ونظرت اليه مرة اخرى تلك النظرة الطويلة الحنون ، وأجلسته بجانبها ... ولم تستطع اول الامر ان تقول شيئا ، بل ظلت تتنهد ووجهها يحمر خجلا ، ثم تشجعت فأخذت تسأله عدة مرات ان يصفح عنها لأنها لم تنصفه فيما مضى ، وأكدت له انها قد تغيرت تماما ، وادهشته اذ تحمست فجأة للنظام الجمهورى (وكان فى ذلك الوقت يعبد روبسبير عبادة ، ولا يستبجح لنفسه أن يجاهر بانتقاد مارا) . ولم يعرف انها تحبه الا بعد أسبوع . نعم ، لقد ظل يذكر ذلك اليوم الاول طويلا ... ولكنه لم ينس الايام التى تلتها أيضا ، تلك الايام التى رأى فيها - وهو لا يزال يقهر نفسه على الشك ويدودها عن اليقين - رأى فيها بجلاء وفى نشوة من الحبور تكاد تمازجها نشوة الخوف ، تلك النعمة التى يؤس منها تبعث الى الحياة ، وتزكو وتجرف كل شيء امامها حتى تصل اليه . ثم جاءت لحظات الحب الاول ببهجتها واشراقها . لحظات لا تتكرر فى حياة واحدة ، ولا ينبغى لها ان تتكرر . أصبحت ايرينا على غير انتظار هادئة كالحمل ، ناعمة كالحرير ، عطوفا كل العطف . أخذت تعطى اخوتها الصفار دروسا فى الفرنسية والانجليزية الا البيان فانها لم تكن موسيقية - وكانت تقرا معهم كتبهم المنزلية ، وتعنى معهم بشئون المنزل . كانت تجد فى كل شيء طرافة وممتعة ، وكانت اما تثرثر بلا انقطاع واما تسبح فى حنان صامت . وكانت تفكر فى شتى الخطط ، وتهيم فى الحلم بما سوف عمله عندما تتزوج لتفينوف (لم يرتابا قط فى أن زواجهما سيتم يوما) ، وكيف أنهما معا سوف ... فيقول لتفينوف مسرعا : « نعمل ؟ » فتزدرد ايرينا : « أجل نعمل ، ونقرأ ، ولكن السفر أولا » وكانت شديدة الرغبة فى أن تغادر موسكو بأسرع ما يمكن . وعندما كان لتفينوف يذكرها بأنه لم يتم دراسته فى الجامعة بعد ، كانت تجيبه دائما بعد تفكير قصير : انه من الممكن جدا أن يتم دراسته فى برلين أو ...

في مكان ما. وكانت ايرينا قليلة التحفظ في التعبير عن مشاعرها ، فلم تخف علاقتها بلتيفنوف طويلا على الأمير والأميرة ، اللذين وان لم يفرحا - فانهما حين قدرا جميع الظروف لم يجدا ضرورة لبثها . فقد كانت ثروة لتفينوف جسيمة ...
- ولكن أسرته ، أسرته !

هكذا كانت تحتج الأميرة فيجيبها الأمير : « نعم ، أسرته بالطبع . ولكنه من النبلاء على كل حال . وأهم ما في الأمر إن ايرينا لن تصفى إلينا كما تعلمين . ومتى لم تعمل كما تهوى ؟! ...
(١) Vous connaissez sa violence وبعد فلم يتحدد شيء بعد »
هكذا كان الأمير يجادل ، ولكنه كان يتبع ذلك في سره : « مدام لتفينوف - أهذا كل شيء ؟ لقد كنت أتوقع شيئا آخر » . وقد سيطرت ايرينا على خطيبها المستقبل سيطرة تامة ، والحق أنه هو نفسه أنقاد لها راضيا وكأنه سقط في دوامة ، ولم يعد يملك نفسه ...

كان ذلك رهيبا وحلوا ، لم يكن ثمة ما يندم عليه ، ولم يكن ثمة ما يرضن به . لم يستطع أن يفكر في معنى الزواج ومسئوليته ، أو بقرر هل يستطيع رجل خاضع كل هذا الخضوع أن يكون زوجا صالحا ، وأي طراز من الزوجات سوف تصبح ايرينا ، وهل يقف كل منهما في الموضع الذي ينبغي أن يقفه من صاحبه ؟ .. كان أسير هواه ، كل ما يعلمه أنه يحب أن يتبعها ، أن يكون معها - هكذا دائما - وليكن ما يكون !

ولكنه ، وان لم يبد مقاومة ، وان فاضت ايرينا حنانا دافقا ، فان علاقاتهما لم تخل من سوء تفاهم ونزاع . فذات يوم ذهب اليها توا بعد خروجه من الجامعة وعليه سترة بالية ، ويداه ملطختان بالحبر ، وأسرعت لتلقاه بترحابها المألوف ، واذا بها تتوقف فجأة ، وتقول بغير تمهيد :

- أين قفازك ؟ .. ثم أضافت بسرعة : يا للخجل ! انك لا تختلف عن أي - طالب !
فقال لتفينوف :

- أنت تسرفين يا ايرينا ..

فكرت :

(١) « أنت تعرفين استبدادها » .

— انك لا تختلف — عن اى طالب (١). Vous n'ête pas distingué.

واولته ظهرها وخرجت من الحجرة .. الا انها استغفرتة بعد ساعة ... وكانت سريعا ما تندم وتسأله أن يسامحها ، ولكن العجيب انها كثيرا ما كانت تتهم نفسها بشرور لا أصل لها الا في خيالها ، وتنكر بعناد نقائصها الحقيقية . ومرة اخرى وجدها تبكي ، ورأسها بين يديها وشعرها مشعث ، وعندما سألتها في اضطراب عن سبب حزنها ، أشارت باصبعها الى صدرها ولم تتكلم . فلمعت في ذهنه كلمة « السل ! » وأمسك بيدها ، وغغم بصوت مرتعش : — أنت مريضة يا ايرينا ؟ (وكانا قد اعتادا أن ينادى الواحد منهما الآخر باسمه الاول في المناسبات الكبرى .) سأذهب حالا لأحضر الطبيب .

ولكن ايرينا لم تدعه يكمل ، بل دقت الارض بقدميها في غيظ : — اننى بصحة تامة ... ولكن هذا الثوب ... الا تفهم ؟ فردد في حيرة :

— ماذا ؟ .. هذا الثوب ؟ ..

— ماذا ؟ ماذا ؟ أنا لا أملك غيره ، وهو قديم كريحه ! ولا بد لي أن ألبسه كل يوم ... حتى عندما تأتى أنت يا جريشا — يا جريجورى — الى هنا ... ستزهد في حبي أخيرا حين تجدنى بهذه الرثاثة !

— يا لله ! ماذا تقولين يا ايرينا ؟ ان هذا الثوب ظريف جدا ... وهو عزيز لدى ايضا لأنى رأيتك فيه اول مرة يا حبيبتي ... فاحمر وجهها خجلا :

— أرجوك الا تذكرنى يا جريجورى ميهالوفتش بأننى لم يكن لدى ثوب غيره حتى فى ذلك الحين .

— ولكنى أؤكد لك يا ايرينا بافلوفنا أنه جميل عليك جدا ! — لا ، أنه كريحه ، كريحه .. وألحت فى قولها وهى تشد خصلات شعرها الطويلة الناعمة بحدة عصبية — أف ! هذا الفقر ! هذا الفقر وهذه القذارة ! كيف يهرب الانسان منه ؟ كيف ينجو الانسان من هذا المستنقع !

ولم يدر لتفينوف ماذا يقول ، وتحول عنها قليلا .
وفجأة وثبت ايرينا من مقعدها ، ووضعت كلتا يديها على كتفيه ،

وتمتعت وهى تقرب وجهها منه ، وعيناها اللتان ما زالتا مليئتين
بالدموع تلمعان بنور السعادة :

- ولكنك تحبنى يا جريشا ؟ أنت تحبنى ؟ أنت تحبنى أيها
العزير حتى فى هذا الثوب الكريه ؟ ..

فركع لتفينوف عند قدميها . فهمست وهى تنحنى عليه :
- آه . أحبنى يا جميلى ! يا منقذى !

وهكذا كانت الايام تعدو، والاسابيع تمر . ولم يعلن شىء رسمى .
وظل لتفينوف يؤجل طلب يدها . ولم تكن تلك رغبته طبعاً ،
ولكنه كان ينتظر ما تشير به ايرينا (فقد كانت تلاحظ أحياناً
أنهما كليهما صغيران الى درجة مضحكة ، وأنهما يجب أن يزيدا
على الاقل بضعة أسابيع على سنيهما) . الا أن كل شىء كان
يتجه الى خاتمة ، وكان المستقبل فى اقترابه يزداد وضوحاً وتحدداً ،
عندما حدث فجأة حادث بعثر كل أحلامهما وخططهما كأنها غبار
الطريق .

فى ذلك الشتاء زار البلاط موسكو ، وتتابع الاحتفالات تترى ، حتى جاء دور الحفلة الراقصة التقليدية الكبرى فى بهو النبلاء . ووصل نبأ تلك الحفلة الى المنزل الصغير فى ساحة الكلاب وان لم يصل اليه الا عن طريق اعلان فى « الجريدة الرسمية » . وكان الأمير أول من اثاره النبأ ، فقرر على الفور أنهما يجب أن يذهبا ومعهما ايرينا ، وان من الائم الا ينتهز هذه الفرصة لرؤية مليكتهما وان هذا ليس الا نوعا من الواجب على أبناء الأسر العريقة . ودافع عن رايه فى حرارة ظاهرة غير مألوفة منه ، ووافقته الأميرة الى حد ما ، ولم يكن ضجرها الا حسرة على ما يقتضيه ذلك من نفقات ، ولكن ايرينا أظهرت معارضة شديدة ، وأجابت على كل حجج والديها بأن «لا ضرورة للذهاب ، وأنها لن تذهب» وبلغ عنادها حدا جعل الأمير يقرر آخر الأمر أن يرجو لتفينوف ليحاول هو اقناعها ، بأن يذكرها - بين ما يسوقه من الاسباب - أنه لا يحسن بفتاة صغيرة أن تتجنب المجتمع ، وأنها ينبغي أن « تمر بهذه التجربة » ، وأن أحدا لم يرها قط فى أى مكان - وكان هذا صحيحا . وأخذ لتفينوف على نفسه أن يعرض عليها « الحشيات » فنظرت اليه ايرينا نظرة ثابتة فاحصة جعلته يرتبك . ثم قالت بهدوء وهى تعبت بطرفى زناورها :

- أتريد أنت ذلك ؟

فأجاب لتفينوف مترددا :

- نعم . أظن هذا . انى أوافق أباك ... حقا لماذا لاتذهبين؟ .. وضحك ضحكة قصيرة وأضاف : لثرى الناس ، ويروك ... فكررت ببطاء :

- برونى ؟ حسن جدا . سأذهب اذن ... ولكن تذكر أنك أنت الذى أردت ذلك .

- اننى ...

- أنك أنت الذى أردت ذلك . وهالك شرطا آخر : يجب أن

تعدنى بالآ تحضر هذه الحفلة .

— لماذا ؟

— انى أرغب فى ذلك .

فرفع لتفينوف يديه :

— سمعا وطاعة ... ولكنى اعترف بأنى كنت اود ان أستمتع برؤيتك فى كامل بهائك ، وملاحظة الاعجاب الذى لا يبد انك ستثريه ...

وأضاف وهو يتنهد :

— واذن كم كنت افخر بك ...

فابتسمت ايرينا :

— ان كامل البهاء لن يكون الا ثوبا أبيض . اما الاعجاب ... حسنا ، لا أريد أن تكون هناك على كل حال .

— ايرينا ابتها الحبيبة ، كأنك غاضبة !

فابتسمت ثانية :

— آوه ، لا ، لست غاضبة . ولكن يا جريشا (وثبتت عينيها عليه ، وطن انه لم ير قط مثل هذا التعبير فيهما ، وأضافت هامسة) .. لعله لا بد أن يكون .

— ولكنك تحبيننى يا ايرينا ، يا عزيزتى ؟

فأجابت فى جد يوشك أن يكون حزينا ، وشدت على يده بقوة كأنها رجل :

— انى أحبك !

وظلت ايرينا طيلة الايام التالية منصرفة الى ثوبها وتزيين شعرها . وفى اليوم السابق للحفلة أحست بوعكة ، ولم تستطع أن تستقر ، وانفجرت بالبكاء مرتين فى وحدتها ، أما أمام لتفينوف فقد تكلفت تلك الابتسامة التى لا تتغير ... لم يتبدل حنانها المهود ، ولكنها كانت شاردة اللب ، دائمة النظر الى نفسها فى المرآة . وفى يوم الحفلة ظلت صامتة شاحبة ، ولكنها كانت مالكة زمام نفسها . وجاء لتفينوف فى الساعة التاسعة مساء ليراها ، فلما أتت لتقابلها فى ثوب من حرير أبيض شف ، وفى شعرها المرفوع قليلا عنقود أزهار صغيرة زرقاء ، كادت تبدر منه صيحة ، فقد بدت أجمل وأروع من سنها كثيرا ، وقال فى نفسه « أجل ، أنها كبرت منذ الصباح ! وكم تبدو شامخة ! هذا ما تصنعه الوراثة ! » ووقفت ايرينا أمامه ، ويدها مسترخيتان ، لا تبسم ولا تتصنع ، وهى

تنظر في ثبات يشبه التحدى، لا اليه بل الى الفضاء البعيد امامها.
قال لتفينوف أخيرا :

- لكأنك أميرة في كتاب قصص . أنت تشبهين محاربا قبل
المعركة ، قبل النصر ... واستمر في قوله وهى لا تزال واقفة بغير
حرك ، وكأنها تصفى ... لا اليه بل الى صوت آخر في أعماق
نفسها : انك لم تسمحى لى بأن اذهب الى هذه الحفلة ، ولكن
لعلك تقبلين هذه الازهار وتأخذينها معك ؟

وأهدى اليها طاقة من الهليوتروب ، فلحظته لحظا سريعا ،
وامسكت فجأة طرف العنقود الذى كان يزين شعرها ، وقالت :
- أتريدنى ان أبقي ؟ قلها فأمزق هذا كله ، وأبقى في المنزل !
وخيل الى لتفينوف أن قلبه ينشق . وكانت يد ايرينا قد
سبقت الى انتزاع العنقود ...

فبادر يقول مسرعا ، في فيض من الكرم والسماحة :
- لا ، لا . لماذا ؟ انا لست أنانيا ... لماذا أحبس حريتك ،
في حين أعلم أن قلبك ..
فقال مسرعة :

- حسنا ، لا تقترب منى والا كسرت ثوبى .
واضطرب لتفينوف ، وسأل :
- ولكنك ستأخذين الزهور ؟
- طبعاً . انها جميلة جدا . وانا أحب هذه الرائحة . شكرا .
سأحفظها ذكرى ...

- لحفلتك الاولى . لانتصارك الاول .
ونظرت ايرينا من فوق كتفها الى نفسها في المرآة ، وهى تشنى
قوامها ولا تكاد .

- وهل ابدو جميلة حقا ؟ الا تفالى ؟
فأفاض لتفينوف في الثناء الحار ، بينما كانت ايرينا غير منصتة
اليه ، وقد قربت الازهار من وجهها وجعلت تنظر مرة أخرى الى
الفضاء البعيد بعينين غريبتين كأنما زادت دكنة وسعة . وارتفع
شريطاها الرقيقان خلفها قليلا وقد حركهما تيار خفيف من الهواء
فكانا أشبه بجناحين .

وظهر الأمير في رباط عنق أبيض وسترة سهرة سوداء باهتة ،
وقد صفف شعره ووضع وسام النبالة على شريط فلاديمير في
عروة سترته . وجاءت الأميرة بعده في فستان حرير صينى عتيق

انظران ، وبتلك الصرامة القلقة التى تحاول الأمهات أن تخفين بها اضطرابهن أصلحت هيئة ابنتها من خلف ، بأن هزت ثنيات ثوبها دونما ضرورة . وزحفت عربة أجرة مقفلة عتيقة بأربعة مقاعد ، يجرها حصانان هرمان أشعثان ، إلى مدخل الدار ، على الأكوام المتجمدة من الثلج المتراكم . وأطل من باب الصالون سائس عجوز فى حلة غريبة الشكل ، وأعلن بنوع من المخاطرة أن العربة معدة . . وبعد أن استودع الأميران الله أبناءهما الباقيين بالمنزل إلى الصباح ، لبسا معطفيهما وخرجا إلى الدرج . وتبعتهما إيرينا وقد التفت بحرمة شديدة الرقة شديدة القصر - كم كرهت هذه الحرمة الصغيرة فى تلك اللحظة ! - وصحبها لتفينوف إلى الخارج طامعا فى نظرة أخيرة من إيرينا ، ولكنها جلست فى مقعدها من العربة بغير أن تلتفت .

وحول منتصف الليل سار تحت نوافذ بهو النبلاء . وكانت أضواء لا تحصى من شمعدانات ضخمة تبدو من خلال الستائر الحمراء أشبه شئ بوشى معدنى لامع ، وأنغام فالس لشتراوس تطير مرحة فاضحة متحدية فوق الميدان الذى ازدحم بالعربات . وفى الساعة الواحدة من اليوم التالى ذهب لتفينوف إلى منزل آن أوزينين . فلم يجد فى المنزل أحدا سوى الأمير ، الذى أخبره على الفور بأن إيرينا أصابها صداع واعتكفت فى سريرها ، وأنها لن تفاديه حتى المساء ، لكن مثل هذه الوعكة غير مستغربة بعد أول مرة تذهب فيها الفتاة إلى حفلة راقصة . ودهش لتفينوف حين أردف الأمير بالفرنسية :

(١) C'est très naturel, vous savez, dans les jeunes filles

ولاحظ فى الوقت نفسه انه لا يرتدى ثوب المنزل كعادته ، بل يلبس سترة رسمية . وأضاف الأمير :

- ثم أنها كانت مضطربة قليلا بعد أحداث البارحة !

فتمتم لتفينوف :

- أحداث ؟

- أجل ، أجل ، أحداث ، أحداث des vrais événements

انك لا تستطيع أن تتخيل يا جريجورى ميهالوفتش quel succès

(٢) elle a eu لقد استرعت أنظار البلاط كله ! وقال الأمير

(١) « هذا طبيعى جدا عند الفتيات كما تعلم » .

(٢) « أى نجاح ثالثه ! »

الكسندر فيدوروفتش ان مكانها ليس هنا ، وانها تذكره بالكونتة ديفونشير (١) : أنت تعرف ... هذه ... السيدة المشهورة ... وأعلن بلازنكراميف العجوز على مسمع من الجميع أن إيرينا هي ملكة الحفلة ، ورغب في أن يقدم اليها . وقدم نفسه الى . اعنى قال لى انه يذكرنى عندما كنت فى سلاح الفرسان ، وسألنى : ماذا تعمل الآن ؟ .. انه ظريف جدا ذلك الكونت ... ياله من (٢) adonateur du beau sexe ! ولم يكتفوا بى ... زوجتى أيضا لم يتركوها فى حالها . لقد تحدثت معها ناتاليا نيكتشنا نفسها .. هل كنا نطمع فى أكثر من ذلك ؟ لقد رقصت إيرينا (٣) avec tous les meilleurs cavaliers كانوا يحضرونهم الى باستمرار . لم أستطع فى الحقيقة أن أذكر عددهم . أتصدق ؟ لقد كانوا جميعا يتزاحمون حولنا . وأرادوا كلهم أن يرقصوا معها المازوركا . وعندما سمع أحد الدبلوماسيين الأجانب انها فتاة من موسكو قال للقيصر : Sire, décidément c'est (٤) Moscou qui est le centre de votre empire وأضاف دبلوماسى آخر (٥) C'est une vrais revolution, sire, لعله قال : (٦) révélation أو (٧) revolution . شيئا كهذا . أجل . أجل . لقد كانت ... لقد كانت فوق التصور ! سأل لتفينوف وقد سرت برودة فى يديه وقدميه لسماع حديث الأمير :

— حسنا : وإيرينا بافلوفنا نفسها ؟ هل استمتعت بالحفلة ؟ هل كان يبدو عليها السرور ؟
— طبعا استمتعت بالحفلة . السرور ؟ لا بد انها كانت مسرورة ! ولكنك تعرفها ... لايمكنك أن تعرف دخيلة نفسها ! لقد كان كل انسان يقول لى البارحة « هذا عجيب » *J'aurais on ne dirait que*

(١) دوق ديفونشير (١٧٥٧ - ١٨٠٦) انجليزية كانت من أجل وأذكي نساء عصرها وكان لها جيش من المفجيين وصالون يتردد عليه مشاهير العصر ، وكانت تقول الشعر وتشتغل بالسياسة .

(٢) « عابد للجنس اللطيف » .

(٣) « مع كل الفرسان البارزين » .

(٤) « مولاي ! لا شك أن موسكو هى قلب امبراطوريتكم ! » .

(٥) « هذه ثورة حقا يا مولاي ! »

(٦) الهام .

(٧) ثورة ..

(١) . » mademoiselle votre fille est à son premier bal

الكونت ريزنباخ مثلا ... أظنك تعرفه ؟
- لا . لا أعرفه مطلقا . ولم أره في حياتي .
- من أقرباء زوجتي .
- انى لا أعرفه .

- رجل ثرى . من أمناء القصر . يعيش فى بطرسبرج . فى ذروة السلطان وهو الحاكم بأمره فى ليفونيا . لم يكن يهتم بنا قبل اليوم ... ولكن لا تظن أنى حانق عليه لهذا . J'ai l'humeur facile, comme vous savez. (٢) هذا هو الرجل . لقد جلس بجانب إيرينا وكلمها ربع ساعة لا أكثر ، وبعد ذلك قال لأميرتى : « ma cousine, votre fille est une perte, c'est une perfection » (٣)

(٣) « ان كل امرئ يهنئنى بقرابتها ... » وبعد ذلك رأته يذهب الى ... الى شخصية عظيمة جدا ، ويكلمه وهو ينظر الى إيرينا ... وكان الآخر ينظر اليها أيضا ... فسأل لتفينوف مرة أخرى :

- واذن فان تظهر إيرينا بافلوفنا طول اليوم ؟
- بالضبط . فهى تعاني صداعا شديدا . وقد سألتنى أن أبلغك تحيتها ، وأن أشكرك على أزهارك (٤) qu'on a trouvé charmants انها بحاجة الى الراحة ... لقد خرجت الأميرة لتؤدى بعض الزيارات ... وأنا أيضا ... كما ترى ...

وتنحج الأمير ، وأخذ يتململ فى مجلسه كأنه لا يدرى ماذا يقول بعد الذى قاله . فتناول لتفينوف قبعته وخرج ، قائلا انه لا يريد ازعاج الأمير ، وانه سياتى مرة أخرى ليسأل عن صحة إيرينا . وعلى مسيرة خطوات من منزل آل أوزنين رأى عربة أنيقة ذات مقعدين واقفة أمام كشك رجل الشرطة . وكان سائس فى حلة أنيقة أيضا ينحنى بتراخ ويسأل الشرطى الفنلندى عن مسكن الأمير بافل فاسيليفتش أوزنين . ورمى لتفينوف العربة . كان يجلس بداخلها رجل متوسط العمر ، مترهل الجلد ، ذو وجه مقضن سامخ وأنف مقوس وفم قاس ، متدثر بفراء ثمين ، تدل جميع المظاهر على انه حقا رجل عظيم جدا .

(١) « من يقول ان هذه هى اول حفلة راقصة تذهب اليها الانسة كريمتكم ! »

(٢) « اننى طيب القلب كما تعلم » .

(٣) « يا عزيزتى ، ان ابنتك جوهرة ، انها تحفة » .

(٤) « التى لقيت الاستحسان » .

لم يف لتفينوف بوعدده أن يعود فيما بعد ، فقد فكر أن **يُوجله** زيارته الى اليوم التالى . وعندما ذهب فى الساعة الثانية عشرة الى الصالون المألوف وجد هناك الأميرتين الصـفـيرتين **فكتورنكا** و **كليوباترنكا** . فحياهما ، وسأل : هل تحسنت حال ايرينا بافلوفنا ، وهل يستطيع أن يراها ؟ فأجابته فكتورنكا ، وكانت على الرغم من لثفتها أسرع جوابا من أختها :

- ايرينوتشكا ذهبت مع مامى .
فردد لتفينوف :

- ذهبت ؟ كيف ؟ - واحس فى قرارة قلبه شبه رعشة حبيسة - اليسى . اليسى تعطيكما دروسا فى مثل هذا الوقت ؟ فأجابت فيكتورنكا :

- ايرينوتشكا لن تدرس لنا بعد الآن .

وكررت كليوباترنكا بعدها :

- لن تدرس لنا بعد الآن .

فسأل لتفينوف :

- هل بابا فى المنزل ؟

فمضت فكتورنكا تقول :

- بابا ليس فى المنزل . وايرينوتشكا مريضة . طول الليل هى

تبكى ، تبكى ...

- تبكى ؟

- نعم تبكى . هكذا اخبرنى يجوروفنا . وعيناها حمراوان

جدا . انهما مل . مل . تهبتان جدا .

ومشى لتفينوف فى الفرفة جيئة وذهابا مرتين ، وهو يرتجف كأنما

أصابه برد ، ثم عاد الى منزله ، وخالجه احساس كذلك الذى

يتملك الناظر من برج عال . تهافت كل شىء فى باطنه ، واستولى

عليه دوار بطيء ممرض . حيرة خرساء ، وأفكار تركض كالغيران ،

وفزع مبهم ، وتوقع أشل ، ودهشة غريبة، توشك أن تكون وحشية . وفي حلقه مرارة الدموع المحتبسة ، وعلى شفثيه بسمة فارغة مفتتصة . ثم دعاء ضارع بغير معنى ، لغير أحد ... آه ، ما أقسى وما اذل وما افظع ! « ايرينا لا تريد أن ترانى » - كانت هذه هى الفكرة التى ظلت تدور فى رأسه . « هذا واضح . ولكن ما سببه ؟ ليت شعرى ماذا حدث فى تلك الحفلة المشؤمة ؟ وكيف يمكن أن يتم هذا التحول فجأة ... فجأة هكذا ؟ » ان الناس يرون الموت يأتى دائما فجأة ، ولكنهم لا يمكن أن يألّفوا مفاجاته ، بل يجدون هذه المفاجأة شيئا لا يقبله العقل . « انها لم تكتب الى . لم تفسر لى شيئا ! »

وسمع لتفينوف صـــــــــــــوتا مرتفعا يناديه بالقرب من اذنه : « جريجورى ميهالتش ! » فانتفض ، ورأى امامه الخادم وفى يده ورقة . وتبين فيها خط ايرينا . وأحس قبل أن يفض الخاتم بالويل الحقيق ، وثنى رأسه على صدره وحذب كتفيه كأنه يتقى الضربة النازلة .

ثم استجمع شجاعته أخيرا ، وفض الفلاف، فوجد على قصاصة صغيرة من الورق هذه الاسطر :

« سامحنى يا جريجورى ميهالتش . لقد انتهى كل شىء بيننا . سأذهب لأعيش فى بطرسبرج . اننى شديدة التعاسة - ولكن المسألة كلها مقررة الآن . يبدو أن هذا هو القدر المكتوب على ... ولكن لا . أنا لا أريد أن أبرئ نفسي . لقد تحققت مخاوفى . سامحنى ، وانسنى . اننى غير جديرة بك . كن كريما لا تحاول أن ترانى . « ايرينا » .

قرأ لتفينوف هذه الاسطر وتهافت على الاريكة كان احدا مك صدره . وسقطت منه الورقة ، والتقطها وقراها مرة أخرى ، وتمتم : « فى بطرسبرج » ثم سقطت منه ثانية . وانتهى الامر . بل لقد هبط عليه شعور بالسلام . بل انه سوى يديه المنطرحتين خلفه الوسادة التى تحت رأسه . وقال فى نفسه : « من يطعن طعنة الموت لا يترنج . كما جاءت ذهبت . كل هذا طبيعى . لقد كنت أتوقعه دائما (كان يكذب على نفسه ، فانه لم يتوقع قط شيئا كهذا .) تبكى ؟ .. اهى كانت تبكى ؟ .. علام ؟ انها لم تكن تحببى ! ولكن هذا كله مفهوم ، متفق مع شخصيتها ... هى - هى غير جذبة بى ... أجل أجل (وضحك بمرارة) انها لم تكن

تعلم القوة الكامنة في نفسها ، ولكنها تبينت تأثيرها في الحفلة ، فهل يعقل أن تبقى مع طالب متواضع ؟... كل هذا طبعى . »
ولكنه لم يلبث أن تذكر الفاظها الرقيقة ، وتلك البسمة وتلك العينين ، العينين اللتين لن ينساها ، العينين اللتين لن يراها أبدا ، العينين اللتين كانتا تسطعان وتذويان كلما قابلتا عينيه ! وتذكر قبلة واحدة سريعة وجلة مشتعلة ... وإذا هو ينتحب . ينتحب انتحابا متشنجا عنيفا حائقا . ثم انقلب على وجهه يكاد يخنقه انفعاله المجنون ، كأنه يود لو يمزق نفسه وكل ماحوله أربا ، ودس وجهه المحرور في وسادة الأريكة وراح يعضها بأسنانه .

ياحسرتاه ! إن السيد الذى رآه لتفينوف بالأمس في العربة لم يكن إلا قريب الأميرة أوزينين ، أمين القصر الكونت رينباچ . فان انكونت . لما رأى الإعجاب العظيم الذى أثارته أربنا وشخصيات عليا ، فكر لساعته في المزايا التى يمكن الظفر بها من ذلك (١) mit etwas akkuratesse وكان رجلا سريع التصرف يعرف من

أين تترك الكتف ، فوضع خطته من فوره ، وصمم على أن يعمل عملا نابليونيا خاطفا ، قال لنفسه : « سأخذ هذه الفتاة النادرة إلى منزلى في بطرسبرج . يا للشيطان ! سأجعلها وريثتى ، بل وريثتى الوحيدة ، فليس لى ولد . إنها قريبتى ، وقرينتى الكونتة تعيش في وحدة مملعة ... الأفضل على كل حال أن يكون في ضالون المرء وجه جميل . نعم ، نعم ... هذا هو الصواب !

(٢) Est ist eine Idee, Est ist eine Idee . المهم أن ينهر الأيوان ويذهلان فيسلما أمرهما . وتابع الكونت تفكيره وهو في العربة في طريقه إلى ساحة الكلاب . « انهما يعيشان عيش الكفاف . وما اظنهما يتشددان . ثم انهما من طراز لا يمتاز بحنانه المفرط . ويمكننى أن أعطيهم في الصفقة مقدارا من المال . وهى ؟ انها ستوافق . الشهد حاو . وقد ذقت طعمه في الليلة الماضية . لعلها نزوة منى ، فليستغلوها ... هؤلاء الحمقى ! سأدخل عليهم من كل باب ... ويجب أن تقررروا ، والا فاني اتبنى فتاة أخرى - يتيمة ، لعل هذا أفضل . نعم أو لا . ولكم أربع وعشرون ساعة لتفكروا ، (٣) und damit Punctum

(١) « بشئ من المهارة » - بالالمانية .

(٢) « انها فكرة ! فكرة ! » .

(٣) « ولا كلام بعد ذلك » .

وقابل الكونت الأمير وهذه الكلمات نفسها على شفثيه ، وكان قد أعلمه بزيارته في الليلة الماضية أثناء الحفلة . ونحن في غنى عن اطالة القول في نتائج هذه الزيارة . فان الكونت لم يكن مخطئا في تنبؤاته ، وقد كان الأمير والأميرة حقا غير عنيدين ، وقبلًا مبلغًا من المال ، ووافقت ايرينا قبل أن تنتهى الاربعة والعشرون ساعة . ولم يكن يسيرا عليها أن تقطع ما بينها وبين لتفينوف ، فقد كانت تحبه ، وبعد أن أرسلت اليه كلمتها كادت تمرض ، ولزمت فراشها معظم الوقت وظلت تبكى ، ونحلت وشحبت . ورغم هذا كله فقد رافقتها الأميرة بعد شهر الى بطرسبرج ، واستودعتها منزل الكونت ، وركلتها الى عناية الكونتة ، وهى امرأة في غاية الطيبة ، ولكن لها مخ دجاجة ، وشكل دجاجة أيضا .

وانقطع لتفينوف عن الجامعة . وعاد الى أبيه في الريف . واخذ جرحه يندمل رويدا رويدا . ولم تكن تصل اليه انباء عن ايرينا في أول الأمر ، وكان في الحقيقة يتحاشى كل حديث عن بطرسبرج ومجتمع بطرسبرج . ثم أخذت تنتشر حولها الاشاعات - اشاعات لا نقول انها فاضحة ولكنها غريبة على كل حال ، واشتغلت الألسن بالحديث عنها ، وأخذ اسم الأميرة أوزينين الشسابة يتردد بكثرة متزايدة حتى في مجتمعات الاقاليم ، حيث كان ينطق في شفث واحترام وحسب ، وقد أحاطت به هالة غريبة من المجد ، كما كان اسم الأميرة فوروتنسكى في يوم من الايام . وأخيرا جاء نبأ زواجها . ولكن لتفينوف لم يكدهم بهذا النبأ الاخير ، اذ كانت خطبته لتانيا قد تمت .

والآن يستطيع القارئ بلا شك أن يفهم بسهولة وعلى وجه الدقة ما تذكره لتفينوف حين صاح : « أيمن أن تكون هي ؟ » . الى بادن اذن لنصل ما انقطع من قصتنا !

نام لتفينوف متأخرا ، ولم تطل نومته ، فحين استيقظ كانت الشمس قد أشرقت ولما تكد ، وكانت قمم الجبال السود التى تبدو من نوافذ حجرته ترتسم وردية باهتة على صفحة السماء الصافية . فقال فى نفسه : « لاشك ان الجو لطيف هناك تحت الاشجار . » ولبس على عجل ، ونظر بلا اهتمام الى الطاقة التى ازدادت تفتحا أثناء الليل ، ثم تناول عصا وبدأ السير قاصدا الى « القلعة القديمة » على « الجبال » الشهيرة . واحتواه الصباح فى احضانه اللطيفة المنشطة ، وتنفس أنفاسا طويلة ، وأخذ يخطو بحماسة ، وكل عرق من عروقه يتنزى بقوة الشباب ، وكأن الارض نفسها تميد تحت خطواته الخفيفة . وكانت كل خطوة تزيده مرحا وسعادة وسار فى الظل المطول على حصباء الدروب الصغيرة ، بجانب أشجار الشربين التى زهت أطراف اغصانها ببراعم الربيع الناشئة . وظل يكرر لنفسه : « ما أبدع وما أروع ! » وفجأة سمع نبرات مألوفة ، فانزعجه ونظر أمامه فرأى فوروشيلوف وبمبايف قادمين نحوه . فازعجه مرأهما ، وابتعد مسرعا كتلميذ صغير يتحاشى رؤية معلمه ، واختبأ خلف شجيرة ... ودعا فى سره : « اللهم برحمتك أبعد عني بنى وطنى ! » وهان عليه أن يدفع أى مقدار من المال ولا يرياه ... وكان الله رحيما به فمر مواطناه دون أن ينتبها اليه . وكان فوروشيلوف يحاضر بمبايف بصوته الصياني المعجب بنفسه عن « الاطوار » المختلفة لفن العمارة القوطية ، وبمبايف يكتفى بأن يزمجج مستحسنا ، وكان واضحا أن فوروشيلوف قد امتعه طويلا بالحديث عن هذه الاطوار ، حتى بدأ المتحمس الطيب القاب يشعر بالملل . وأنصت لتفينوف برهة طويلة الى وقع خطاهما المتباعدة ، وقد زم شفتيه ومد عنقه . وظلت الانغام الجلقية والانفيسة من محاضرة فوروشيلوف تصل الى أذنيه مدة ، ولكن السكون عاد فشمل كل شىء . وتنهذ لتفينوف مرتاحا ، وغادر مخبأه ، وواصل المشى . وظل يتجول بين الجبال ثلاث ساعات . وكان يعتمد عن الدرب

أحيانا ويثب من صخرة الى صخرة ، منزلقا بين الحين والحين على الطحلب الناعم ، او يجلس على نتوء من الجبل تحت سندية أو زانة ، ويسبح في خيالات لذيذة ، على خريز الجداول التي حنا عليها نبات السرخس ، وحفيف الاوراق اللطيف ، وانغام ضحلة يهتف بها شحرور وحيد . وأخذ يتسلل اليه نعاس خفيف للذيد ، وكأنه يقترب منه ملاطفا ، ثم غلبه النوم ... ولكنه ابتسم فجأة ونظر حواليه ، فداعب عينيه ذهب الغابة وخضرتها ، وأوراق الشجر المتحركة ، فأغمضهما ثانية وهو لا يزال يبتسم . وأخيرا شعر بالرغبة في الافطار ، فقصد الى القلعة القديمة حيث يستطيع ببضع « كرويتزرات » أن يحصل على كوب من اللبن الجيد والقهوة . ولكنه لم يكد يستقر على احدى الموائد البيضاء الصغيرة في الشرفة أمام القلعة حتى سمع وقع حوافر جراد ، وأقبلت ثلاث عربات مكشوفة ، نزلت منها جماعة كبيرة من السيدات والسادة . وعرف لتفينوف للحال أنهم روس ، وان كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية... بل لأنهم كانوا كلهم يتكلمون الفرنسية . وكانت ملابس السيدات تمتاز بأناقة مسرفة ، أما السادة فكانوا يلبسون سترات محبوكة مخصرة غير مأووفة في هذه الايام ، وسراويل رمادية منقطة ، وقبعات مدنية صقيلة . وكان رباط عنق اسود منخفض يقبض بشدة على عنق كل واحد من هؤلاء السادة ، وشيء عسكري يبدو في هيئتهم وتصرفاتهم كلها . والحقيقة أنهم كانوا رجالا عسكريين . لقد التقى لتفينوف بصحبة من الجنرالات الشبان ذوي المكانة العالية في المجتمع ، والنفوذ البارز في الحكومة . وكانت أهميتهم تتجلى في كل شيء . في مرحهم المتحفظ ، وتهافتهم الساحر ، ونظراتهم الشاردة المتكلفة واهتزازات اكتافهم الصغيرة المخنثة ، وطريقتهم في تحديق أجسامهم وثني ركبهم . وكانت تتجلى في نبرات أصواتهم نفسها ، فكأنهم يشكرون في تلطف متكلف جمجورا ذليلا من الناس . كان هؤلاء المحاربون كلهم ملمعين محققين مضمخين بعطر النبلاء والحرس الاصيل - وهو مزيج من دخان أفخر أنواع السيجار وأجمل عطور الباتشولوى . وكلهم كانت لهم أيدي النبلاء أيضا - أيد بيضاء كبيرة ، ذات أطراف صلبة كالعاج ، وكلهم كانت لهم شوارب مصقولة ، وأسنان لامعة ، وبشرات رقيقة ، وردنة على الخدود ، زرقاوية على الذقون . وكان بعض الجنرالات الشبان ممراحا ، وبعضهم جادا ، ولكن طابع الادب العالى كان مرتسما

عليهم جميعا . كان كل واحد كأنما هو شاعر شعورا عميقا بكرامة
شخصه ، وبأهمية الدور الذي سيلعبه في الحكومة في المستقبل ،
وكان يمازج هذا الايمان شىء من النزق والاستهتار اللذين يتعودهما
المرء بالضرورة خلال تجواله في بلاد اجنبية . وبعد أن جلسوا بكثير
من الضوضاء والأبهة نادوا الندل الذين بادروا الى تلبية أوامرهم .
وأفرغ لتفينوف كوب لبنه ، ودفع ثمنه ، وليس قبضته ، وبينما
كان مارا بجماعة الجنرالات سمع صوت امرأة تناديه :

— جريجورى ميهالتش ... ألا تعرفنى ؟

فوقف بلا وعى . ذلك الصوت ... ذلك الصوت كثيرا جدا ما
خفق له قلبه في الأيام الخالية ... والتفت حوله ورأى ايرينا .
كانت جالسة الى مائدة ، معتمدة يديها على ظهر كرسي قد قربته
منها ، تنظر اليه وهى تبتسم ورأسها مائل الى ناحيته .. نظرات
فيها حنان يكاد يكون فرحا بلقائه .

عرفها لتفينوف من أول نظرة ، وان كانت تغيرت منذ رآها للمرة
الاخيرة قبل عشر سنين ، واستحالت من فتاة الى امرأة . كان
قوامها النحيل قد امتلأ وتفتح ، وكتفاها اللتان كانتا ضيقتين
تذكرانك الآن بصور الالهات على سقوف القصور الإيطالية القديمة .
ولكن عينها بقيتا كسابق عهده بهما .. وخيل الى لتفينوف أنهما
تنظران اليه تماما كما كانتا تنظران قديما في ذلك المنزل الصغير
في موسكو .

قال في تردد :

— ايرينا بافلوفنا ...

— هل عرفتني ؟ ما أسعدنى ! ما أسعدنى ! ..

وصمتت فجأة ، واحمر وجهها قليلا ، واعتذرت في جلستها .
واستمرت تقول ، ولكن بالفرنسية :

— اننى سعيدة بلقائك . دعنى أقدمك الى زوجى . فاليران !
هذا هو السيد لتفينوف ، صديق من أصدقاء الطفولة . فاليران
فلاديميروفتش راتميروف ، زوجى .

ونفض أحد الجنرالات الشبان من مقعده — ولعله كان أشدهم
ثأقا — وانحنى للتفينوف بأدب بالغ ، بينما زوى بقية رفاقه
حواجبهم ، أو بالاحرى انكمش كل واحد منهم لحظة في نفسه ،
وكأنه يحتج مقدما على أى اتصال بمدنى غريب . ورات السيدات
الأخريات المشتركات في النزهة ان يخزنن عيونهن قليلا وبتسمن

ببلاهة ، بل يتكلفن مظاهر الحيرة والدهشة .
سأل الجنرال راتميروف وهو يتقصع بحركات غير روسية مطلقا
- وكان بينا انه لم يدر فيم يتحدث مع صديق طفولة زوجته :
- آ ... انت في بادن من زمن طويل ؟
فأجابه لتفينوف :

- لا ، ليس من زمن طويل .

فاستمر الجنرال المهذب سائلا :

- وهل تنوى البقاء طويلا ؟

- لم أفكر في الأمر بعد .

- آه ! جميل . جميل جدا ...

وسكت الجنرال . ولم يجد لتفينوف هو الآخر ما يقوله . وكان
كلاهما ممسكا قبعته في يده ، منحنيا الى الامام بابتسامة ، يحرق
في قمة رأس صاحبه .

وبدا أحد الجنرالات يدندن - بنغم مضطرب طبعاً ، ولم تر قط

نبيلاً روسياً الا يدندن بنغم مضطرب : *Deux gendarmes un beau*

Dimanche « I say, Velerien, give me some fire » (١)

وكان أرمد العينين أصفر الوجه ، ينم تعبير وجهه عن حنق
دائم ، كأنه لا يستطيع أن يفتخر لنفسه سوء منظره . وكان ممتازاً
تن رفاقه جميعاً بأن بشرته لا تشبه الوردية .
وأخيراً قالت إيرينا :

- لماذا لا تجلس يا جريجورى مبهالتش ؟

فأطاع لتفينوف وجلس .

قال جنرال آخر بالانجليزية (٢) « I say, Velerien, give me some fire »

وكان هذا الجنرال صغير السن أيضاً ، وإن ظهرت عليه البدانة
قبل الاوان ، وكانت عيناه ثابتتين كأنهما تحمقان في الهواء ،
وعارضاة غزيرين ناعمين كالحرير يدس فيهما ببطء أصابعه الناصعة
انبياض .

وأعطاه راتميروف علبة كبريت فضية .

وسألت إحدى السيدات :

- Avez vous des papiros ?

وكانت تلثغ الرء كالنطق الباريسى .

(١) « كان شرطيان ذات يوم أحد » .

(٢) « بالله يا فاليريان أعطني شمعة » - وتلاحظ ركافة العبارة الانجليزية .

— (1) Des vrais papelitos, contesse —

ودندن الجنرال الأرمد العينين مرة أخرى بفيظ شديد :
Deux gendarmes un beau dimanche

وكانت إيرينا تقول للتفينوف في الوقت نفسه :
— يجب أن تأتي لتزورنا ، نحن نقيم في فندق أوربا . وأنا في
المنزل دائماً من الساعة الرابعة الى السادسة . اننا لم نتقابل من
زمن طويل .

ونظر لتفينوف الى إيرينا ، فلم تفض بصرها .
— أجل يا إيرينا بافلوفنا . انه لزم من طويل ، مذ كنا في موسكو .
فردت باختصار :

— في موسكو . نعم ، في موسكو . تعال . سنتكلم ونتذكر
الأيام الخالية ، اتدري يا جريجورى ميهالنش أنك لم تتغير كثيراً ؟
— حقا ؟ ولكنك أنت تغيرت يا إيرينا بافلوفنا .
— لقد كبرت .

— لا ، لم أعن هذا .
— « إيرين ؟ » نادتها سيدة ذات قبعة صفراء وشعر أصفر ، بعد
أن مهدت لذلك بهمس وضحك مع الضابط الجالس بجانبها .
وكان في صوتها نبرة الاستفهام .
— إيرين ؟

ومضت إيرينا تقول بغير أن تجيب السيدة :
— اننى أكبر مما كنت ، ولكنى لم أتغير . لا ، انى لم أتغير
في شيء .

— « Deux gendarmes un beau dimanche » —

سمع اللحن مرة أخرى . وكان الجنرال الضيق الصدر لا يذكر
غير السطر الاول من الاغنية المشهورة .

« انها لا تزال تخز قليلا يا صاحب السعادة . » قالها الجنرال
السمين ذو العارضين ، في نبرات عالية ممطولة ، مستعيدا —
على ما يظهر — عبارة من قصة مسلية ، معروفة في « المجتمع
الراقى » بأسره . ثم ضحك ضحكة قصيرة جافة وعاد يحدق في
الهواء من جديد . وضحك سائر الجماعة أيضاً . وقال راتميروف
هامساً : « يالك من جرو حزين يا بوريس ! » وكان يتكلم

(1) سوء تفاهم حول اسم نوع الكبريت أو الملقف لا تمكن ترجمته .

بالانجليزية ، ونطق اسم بوريس نفسه كأنه اسم انجليزى .

قالت السيدة ذات القبعة الصفراء مستفهمة للمرة الثالثة :
- ايرين ؟

فالتفتت اليها ايرينا بحدة :

- (١) Eh bien? quoi? que me voulez-vous?

فأجابت السيدة ، وهى تعبت بالحروف وتتغامز :

- (٢) Je vous le dirai plus tard.

وكانت تلك السيدة على قبحها لا تزال تتعابث وتتغامز. كانت
تغامز الهواء ، كما قال عنها أحد الظرفاء .

وقطبت ايرينا جبينها وهزت كتفيها بصبر نافذ . وصاحت
احدى السيدات بتلك النبرة المبطونة التى اختص بها أهل روسيا
الكبرى ، والتى لا تكاد تطيقها الاذن الفرنسية :

- Mais que fait donc monsieur Verdier ? Pourquoi ne vient-il
pas ? (٣)

فزفرت سيدة أخرى ، كان مسقط رأسها ارزاماس :

Ah wooi, ah wooi, M'sieur Verdier, M'sieur Verdier. (٤)

وتدخل رانميروف فى حديثهما قائلا :

Tranquillisez-vous, mesdames, Monsieur Verdier m'a promis de
venir se mettre à vos pieds (٥)

- هـى هـى هـى !

وحركت السيدات مراوحن .

واحضر النادل بضعة أكواب من البيرة ، فسألى الجنرال ذو
العارضين ، مصطنعا صوتا أحش :

- (٦) Baierisch-Bier ? guten morgen!

وسأل جنرال شاب جنرالا آخر فى برود وتراخ :

- حسنا ، الا يزال أكونت بافل هناك ؟

فأجابه الآخر يمثل بروده :

(١) « حسنا ، ماذا ؟ ماذا تريد منى ؟ » .

(٢) « سأقول لك فيما بعد » .

(٣) « ترى ماذا يفعل مسيو فردييه ؟ لماذا لا يأتى ؟ » .

(٤) « آه نعم ، آه نعم ، مسيو فردييه ، مسيو فردييه » .

(٥) « صبرا بالسيدات ، لقد وعدنى مسيو فردييه بأن يأتى ليرتقى عند أقدامكن »

(٦) « بيرة بافاريا ؟ صباح الخير ! » (بالالمانية) .

— نعم . (١) Mais c'est provisoire . يقولون أن سرج سوف
يحل محله .

فنفث الاول من بين أسنانه :

— آها !

ونفث الثانى :

— آه : نعم ..

وبدا الجنرال الذى كان يدندن بالاغنية يقول :

— انى لا أفهم ما الذى جرى لعقل بول ، لماذا يحاول تبرئة
نفسه ، ويحتج بشتى الاسباب ؟ صحيح انه كان قاسيا على التاجر
(٢) Il lui a fait rendre Gorge . ولكن أى بأس فى ذلك ؟ لعل
له ذوافعه الخاصة .

فتمتم واحد منهم :

— لقد خاف ... أن تتحدث عنه الصحف .

فاحتد الجنرال الحنق :

— لم يبق إلا هذا ! الصحف ! تتحدث عنه ! لو كان الأمر
بيدى لما تركت شيئا يطبع فى هذه الصحف إلا الضرائب على اللحم
والخبز ، والإعلانات عن بيع الفراء والاحذية .
فأضاف راتميروف :

— وممتلكات النبلاء المعروضة فى المزاد .

— نعم ، ربما ، فى هذه الاوقات .. ولكن هذا ليس موضوعا

نتكلم فيه فى بادن ، (٣) . au vieux château

فأجابت السيدة ذات القبعة الصفراء :

— Mais pas du tout! Pas du tout ! اننى J'adore les quest

ions Politiques tons Politiques (٤)

وزاد جنرال آخر ذو وجه طلق أشبه بوجوه الفتيات :

— (٥) Madame a raison . لماذا نتجنب هذه الموضوعات ...

وان كنا فى بادن ؟ (٦) ونظر الى لتفينوف متلطفًا وابتسم فى تسامح ،
ان الرجل الشريف يجب ألا ينكر معتقداته مهما تكن الظروف .
الا ترى ذلك ؟

(١) « لكن هذا مؤقت » .

(٢) « وطفحة الدم » .

(٣) « فى القلعة القديمة » .

(٤) « أبدا أبدا . اننى أعبء الموضوعات السياسية » .

(٥) « السيدة على حق » .

فأجاب الجنرال الحنق ، وهو يرمى لتفينوف بنظرة ، وكأنه يهاجمه من طريق خفى :

— طبعا . ولكنى لا أجد ضرورة ...

فقاطعه الجنرال المتسامح بتلك الرقة عينها :

— لا لا . ان صديقك فاليريان فلاديميروفتش قد أشار منذ برهة الى بيع ضياع النبلاء . اليست هذه حقيقة واقعة ؟
فصاح الجنرال الحنق :

— ولكنها لا تباع في هذه الايام . فلا أحد يرغب فيها !

— ربما ... ربما . هذا ادعى الى أن نقرر الحقيقة — المحزنة —

في كل مناسبة . اننا نفتقر ، نعم ، وتضيع هيبتنا ، هذا لاشك

فيه . ولكننا ، نحن الملوك الكبار ، نمثل مبدأ : un principe

وواجبنا هو أن نحافظ على هذا المبدأ . Pardon, Madame

أظن أن منديلك وقع . عندما تشتبه الأمور على أكبر العقول يجب

عينا — بوصفنا مواطنين — أن نشير في تواضع الى الهاوية التى

ينحدر إليها كل شيء (وأشار الجنرال بأصبعه) . يجب أن نقول

في ادب وحزم : « ارجعوا ، ارجعوا ... » هذا ما يجب أن نقوله .

فقال لتفينوف ساهما :

— ولكنك تعلم أن الرجوع مستحيل .

فلم يزد الجنرال المتسامح على أن ابتسم وقال :

الرجوع ، الرجوع ، (١) mon très cher وكلما رجعنا وجدناه خيرا .

ونظر الجنرال مرة أخرى الى لتفينوف متلظفا . فنقد صبر لتفينوف .

— أترى سعادتك أن نتراجع حتى البويار السبعة ؟

— لم لا ؟ اننى أقول رأى بصراحة تامة . كل ما عمل يجب ،

نعم ، يجب الفأوه .

— و ١٩ فبراير ؟ (٢)

— و ١٩ فبراير — كلما أمكن (٣) . On est patriote ou on ne

l'est pas . تسألوننى : « والحرية ؟ » ولكن هل تظنون أن

(١) « يا عزيزى » .

(٢) صدر مرسوم تحرير الارقاء فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ .

(٣) « أما أن يكون المرء وطنيا أو لا يكون » .

الشعب يقدر هذه الحرية ؟ سلوهم ...
فقاطعه لتفينوف :

— حاولوا اذن أن تنتزعوا تلك الحرية مرة أخرى !
فهمس الجنرال مخاطبا راتميروف :

(١) Comment nommez-vous ce monsieur ?

وانطلق الجنرال السمين فجأة يقول :

— فيم تتناقشون هنا ؟ — وكان جليا أنه يمثل بين أصدقائه دور الطفل المدلل — أكل هذا عن الصحف ؟ عن الجرائدية ؟ سأخبركم بحكاية لى مع كاتب صغير — لزيد جدا . قيل لى انه كتب بشهر بى . أمرت بشده حالا . فشده . قلت له : « كيف حدث أنك شهرت بى ؟ هل حتمت عليك الوطنية هذا ؟ » قال : « نعم . » قلت له : « والنقود يا حضرة الجرنالجي ؟ هل تحبها ؟ » قال : « نعم » . عند ذلك ياسادتى الاعزاء وضعت مقبض عصاى تحت أنفه ، وقلت له : « وهل تحب هذا ياملاكى ؟ » قال : « لا ، انى لا أحب هذا . » قلت له : « شمه جيدا . ان يدى نظيفتان . » فما قدر الا انه كرر : « لا ، انى لا أحبه . » قلت : « أما أنا فأحبه جدا يا عزيزى . ولكنى لا أحبه لنفسى . أفهم هذا المثل ياكنزى ؟ » قال : « نعم . » قلت : « اذن فاعمل على أن تكون غلاما طيبا فى المستقبل . والآن هاك روبلا فضا جميلا من أجلك . اذهب وسبح بحمدى آناء الليل وأطراف النهار . » وهكذا ذهب الجرنالجي .

وانفجر الجنرال ضاحكا . وحذا الباقون حذوه مرة أخرى ، الا ايرينا فانها لم تبتسم بل نظرت الى المتكلم نظرة سوداء .

وضرب الجنرال المتسامح بيده كتف بوريس :

— هذا كله من خيالك يا صديقى العزيز ... أنت تهدد أى

انسان بعصا؟ بل أنت لاتحمل عصا (٢) .
est pour faire rire ces dames.

انما تريد أن تروى قصة مسلية . ولكن ليس هذا هو المهم . لقد قلت منذ برهة اننا يجب أن نرجع الى الوراء تماما . افهمنى . اننى لست عدوا لما يسمى التقدم . ولكن كل هذه الجامعات والمعاهد والمدارس — كل هؤلاء الطلاب أبناء القسيس والعوام ، كل هذا الفقس الصقم ،
tout se fond du sac, la petite propriété, pire

(١) « ما اسم هذا السيد ؟ »

(٢) « انما أردت أن تضحك السيدات » .

que la proletariat ر بطق الجنرال هذه العبارة بصوت متراخ يكاد يكون متهاكاً (١) Voilà ce qui m'effraie . هذا
يجب على المرء أن يقف ، ويضع حداً فاصلاً . (ونظر الى لتفينوف مرة أخرى نظرة لطيفة .) نعم ، يجب أن نضع الحد الفاصل - تذكروا أننا لا نريد شيئاً . ليست لنا أى مطالب . الحكم الذاتى مثلاً - من يطلبه ؟ أطلبه أنت ، أو أنت ، أو أنت ، أو أنتن ياسيداتي ؟ أنكن لا تحكمن أنفسكن فقط ، بل تحكمنا جميعاً أيضاً . (وأشرق وجه الجنرال بابتسامة رضا .) إذن لماذا نجامل يا أصدقائى الاعزاء ؟ ان الديمقراطية ترحب بكم ، انها تتملقكم ، انها مستعدة لتحقيق أهدافكم ... ولكنها سلاح ذو حدين . خير من هذا أن نعود الى طريقنا القديم ، طريقنا الجرب .. انه أكثر أمناً . لا تتركوا الفوغاء يجترئون عليكم ، بل ثقوا بالارستقراطية ، ففيها وحدها القوة ... لاشك ان هذا أفضل . أما التقدم .. فأنا لا أعارضه فى الحقيقة بشرط ألا تعطونا محامين ومحلفين وموظفين منتخبين .. بشرط ألا تمسوا النظام . النظام قبل كل شيء . تستطيعون أن تبثوا الجنود ، والارصفة ، والمستشفيات ، ولا بأس أيضاً بأن تضيقوا الشوارع بالفاز ... فتتجنح الجنرال الحنق :

- انهم يضرمون الحرائق فى بطرسبرج من كل ناحية . هذا هو التقدم الذى تحدث عنه !

وقال الجنرال السمين ، وهو يترجح فى كرسية ببلادة :
- انت شديد المرارة . هذا واضح . يجب أن يجعلوك نائباً عاماً . ولكننى أعتقد أن (٢) le progrès «Orphée aux enfers» Avec
a dit son dernier mot.

فقال السيدة التى من أرزاماس ضاحكة :
- (٣) Vous dites toujours des bêtises.

فأظهر الجنرال الغضب :
Je ne suis plus serieux, madame, que quand je dis
dee bêtises. (٤)

(١) « كل هذه الحشالة : صفار الملاك الذين هم شر ممن لا يملكون - هذا ما يرعبنى » .
(٢) التقدم قال كلمته الأخيرة عندما ظهرت « أورفى فى الجحيم » (أوبرا هراية لدموسيقى الالماني أوفنباخ - ١٨٥٨) .
(٣) « أنت دائماً تهزل » .
(٤) « أنا أكثر ما أكون جداً ياسيدتى عندما أهزل » .

فقلت ايرينا بصوت خفيض :
— لقد قال السيد فردييه هذه العبارة نفسها عدة مرات من قبل .

وصاح الجنرال السمين :
De la poigne et des formes, de la poigne surtout. —

او بالروسية : « كن مؤدبا لكن استعمل قبضتيك . »
فقاطعه الجنرال المتسامح :

— آه . أنت شيطان ، شيطان خبيث . سيداتى ، لا تستمعن اليه . ان الكلب النابخ لا يعض . انه لا يهتم بشيء سوى الفزل .
وبدا راتميروف يقول ، بعد أن تبادل مع زوجته نظرة :
— أنت مخطيء يا بوريس . لا بأس بأن تكون ماجنا ، ولكنك تسالغ كثيرا . ان التقدم ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية ، وهذا ما لا يجب أن ننساه . انه بادرة يجب علينا أن نراقبها .
فأجاب الجنرال السمين مجعدا أنفه :

— حسنا . نحن جميعا نعلم أنك طامع فى الوزارة .
— كلا ، مطلقا ! تقول الوزارة ! ولكن المرء لا يسعه أن يفرض عينيه عن الحقيقة .

ودس بوريس أصابعه فى عارضيه مرة أخرى ، وحقق فى الهواء .
— .. الحياة الاجتماعية مهمة جدا . فى تطور الشعب ، وفى مصائر البلاد ان صبح التعبير ...
فقاطعه بوريس مؤثبا :

— (١) . Valerien, il y a des dames ici لم أكن أتوقع هذا منك . أم أنت تريد أن تصبح عضوا فى لجنة ؟

فعلق الجنرال الحثق على ذلك قائلا :
— ولكن هذه اللجان حلت كلها الآن والحمد لله .
وأخذ يندندن مرة أخرى :

Deux gendarmes un beau dimanche

ورفع راتميروف منديلا من الكتان الكبرى الرقيق الى أنفه وانسحب من المناقشة . واستمر الجنرال المتسامح يكرر :
« شيطان ! شيطان ! » ولكن بوريس التفت الى السيدة التى « تقامز الهواء » ، ولفه أن يخفض صوته أو يغير تعبير وجهه ،

(١) « فاليريان ، هنا سيدات ! » .

أخذ يلح عليها بالسؤال « متى تقدر خلاصه » ، لأنه يحبها ،
ويقاسى العذاب من جراء ذلك .

وفى إثناء هذا الحديث كان لتفينوف يزداد ضيقا فى كل لحظة .
وثارت كبرياؤه ، كبرياؤه الشعبية النظيفة ، ثورة بالغة . فى أى
شئ يشارك هو ، ابن الموظف البسيط ، أولئك الارستقراطيين
الفسكريين من بطرسبرج ؟ انه يحب كل ما يكرهون ، ويكره كل
ما يحبون . وان شعوره بذلك لقوى حاد ، يحسه فى كل جزء من
كيانه . انه يجد نكاتهم سمجة ، ونبراتهم ممجوجة ، وكل اشارة
من اشاراتهم كاذبة مصطنعة . وحتى نعومة حديثهم كان يجد فيها
نبرة احتقار تشير كراهيته . ولكنه كان كالخجل امامهم ! أمام
هذه المخلوقات ، هؤلاء الاعداء ! « اف ! يا للخزى ! ان وجودى
يضايقهم . انهم يروننى أضحكة . » كانت هذه هى الفكرة التى
ظلت تدور برأسه . لماذا أبقي ؟ فلأذهب ، فلأنج الآن ! « وماكان
وجود ايرينا ليستبقيه ، فانها هى أيضا كانت تشير فيه انفعالات
سوداوية . فنهض عن مقعده وبدأ يستأذن فى الانصراف . فقالت
ايرينا :

— اذهب الآن ؟

ولكنها بعد قليل من التفكير لم تلح عليه فى البقاء ، بل انتزعت
منه وعدا بأن يزورها . وودعه الجنرال راتميروف بتلطفه البالغ ،
وصافحه ورافقه الى نهاية الشرفة . . ولكن لتفينوف لم يكـد
يعرج فى أول منحنى من منحنيات الطريق حتى سمع ضحكا صاخبا
خلفه . ولم يكن لهذا الضحك صلة به ، بل أثاره مقدم السيد
فرديه المرتقب ، وقد ظهر فجأة على الشرفة ، لابس قبعة تيرولية
وجلبابا أزرق ، وراكبا حمارا . ولكن الدم اندفع الى خدى
لتفينوف اندفاعا ، وأحس بمرارة فظيعة ، وانطبقت شفتاه كأنه
تجرع علقما . وتمتم : « مخلوقات سافلة حقيرة » ، ولم يفكر
ان الدقائق القليلة التى أمضاها فى صحبتهم غير كافية لأن يصدر
عليهم مثل هذا الحكم القاسى . هذه هى الدنيا التى سقطت فيها
ايرينا ! ايرينا التى كانت له فى يوم من الأيام . . . فى هذه الدنيا
كانت تتحرك ، وتعيش ، وتحكم . لأجلها ضحت كرامة نفسها ،
وانبل مشاعر قلبها . . . هذا بلا ريب ما كان يجب أن يكون .
لأشك أنها ما كانت تستحق مصيرا أفضل ! ما أسعده لأنها لم
تسأله عما ينتويه ! لعله كان يفتح قلبه « أمامهم » ، « فى

محضرهم « ... وتمتم لتفينوف وهو ينشق أنفاسا عميقة من الهواء النقي ، ويهبط في الطريق المنحدر الى بادن يكاد يعدو : « لا يمكن ! أبدا ! أبدا ! » وفكر في خطيبته .. في تانيانا الحلوة الطيبة النقية ، وفي طهرها ونبلها وصدقها ، فباى حنان صادق تمثل ملامحها وكلماتها وعاداتها ، وباى شوق تمنى عودتها !

وهذا المجهود السريع أعصابه . فلما عاد الى مسكنه جلس الى منضدته وتناول كتابا ، وفجأة تركه يسقط ، وقد أصابته رعدة ! ماذا جرى له ؟ لا شيء ، ولكن ايرينا ... ايرينا ... وعلى حين غرة بدا له لقاءه واياها شيئا مدهشا ، غريبا - غير عادى . أهذا ممكن ؟ لقد رأى ايرينا نفسها ... لقد تحدث معها ... وكيف لم يجد فيها أثرا من تلك الدنيوية البغيضة التى كانت تتجلى في كل أولئك الآخرين ؟ لماذا خيل اليه انها كالضجرة أو كالحزينة أو كالساخطة على ما يحيط بها ؟ انها في معسكرهم ، ولكنها ليست بعدو . وماذا يجبرها على أن تبش له وتدعوه لزيارتها ؟ وذعر لتفينوف ، وصاح بحرارة : « تانيا ! تانيا ! أنت وحدك ملاكى الحارس - ملاكى الطاهر ، انى أحبك وسأحبك دائما . ولن اذهب اليها ... سأساها نسيانا ..! فلتسل نفسها مع جنراتها ! »

وعاد لتفينوف الى كتابه .

تناول لتفينوف كتابه ثانية ، ولكنه لم يستطع ان يقرأ . فغادر المنزل ، وسار قليلا ، واستمع الى الموسيقى ، وشاهد القمار ، وعاد مرة أخرى الى غرفته ، وحاول ان يقرأ ، فلم يفلح في هذه المرة ايضا . كان الزمن يمر متشابكلا كثيبا . وجاء بشتشا لكن - قاضى التحكيم الطيب - وجلس ثلاث ساعات كاملة . وكان يتكلم ويجادل ، ويشير مسائل ، ويحاضر من حين الى حين . وكانت محاضراته في موضوعات فكرية عالية اول الامر ثم في موضوعات عملية بعد ذلك . وقد نجح في ان يشيع حوله جوا من الملل الفظيع ، حتى ان لتفينوف المسكين كاد يصرخ . كان بشتشا لكن لا يجارى في قدرته على ان يرفع الاملال - الاملال الاوالم المروع المؤسس - الى فن جميل ، ولم يكن له نظير في ذلك حتى بين ذوى الاخلاق الممتازة انفسهم ، وهم اساتذة ذائع الصيت في هذا الباب . وكان مرأى رأسه المشذب يبعث في النفس قنوطا لا فكاك منه ، ونبرات صوته الوئيدة الكسلانة كأنها لم تخلق الا لتقرر في يقين وجلاء حقائق من طراز ان اثنين في اثنين تساوى اربعة لا خمسة او ثلاثة ، وان الماء سائل ، وان العفو من شيم الكرام ، وان نظام الائتمان ضرورى في المعاملات المالية - ضرورى للدولة كضرورته للأفراد ، وضرورى للأفراد كضرورته للدولة . وكان على الرغم من هذا كله رجلا من خيار الناس ! ولكن هذا هو ما حكمت به الاقدار على روسيا . ان خيار الناس أغبياء .

واخيرا ذهب بشتشا لكن وجاء بنداسوف ، وسأل لتفينوف من فوره : بصفاقة غريبة - ان يقرضه مائة جلد . واعطاه لتفينوف ما طلب ، مع انه لم يكن يميل الى بنداسوف ، بل كان يبغضه ويحتقره ، وكان واثقا انه لن يرى نقوده ثانيا ، وكان هو نفسه في حاجة اليها . وسوف يسأل القارئ : فما الذى جعله يعطيه النقود اذن ؟ الشيطان وحده يعلم ! فهذه ناحية قد برز فيها الروس ايضا . وليضع القارئ يده على قلبه وليتذكر كم عملا

اتاه هو نفسه في حياته بلا سبب ما . لم يعن بندياسوف حتى بأن يشكر لتفينوف بل طلب كوبا من الافتتالز أنيذ بادن الاحمر ، وانصرف دون أن يمسح شفثيه ، وهو يدق الارض بقدميه دقا عاليا مثيرا . وما كان أشد سخط لتفينوف على نفسه وهو ينظر الى قفا البلطجى الفليظ الاحمر وهو خارج !

وقبل المساء تلقى لتفينوف رسالة من تانيانا تخبره فيها بأن عمتها مريضة ، وانهما لاتستطيعان الحضور الى بادن الا بعد خمسة أيام أو ستة . وكان لهذا النبأ اثر سيء في نفس لتفينوف ، فزاد غيظه ، وأوى الى سريره مبكرا وهو ضيق الصدر . ولم يكن اليوم التالى خيرا من سابقه ، بل لعله كان شرا منه . فقد امتلأت حجرة لتفينوف من الصباح الباكر بأنساء وطنه : بمبايف ، وفورشيلوف وبشتشالكن ، والضابطين ، والطالبيين من هيدلبرج ، تكاثروا عليه جميعا دفعة واحدة ، ولم ينصرفوا الا وقت العشاء ، مع أنهم كانوا قد افرغوا سريعا ما عندهم من حديث وبدأ عليهم الملل .

والحقيقة أنهم كانوا لايعلمون ماذا يصنعون بأنفسهم ، فلما وجدوا في مسكن لتفينوف « لزقوا » فيه كما يقولون . تكلموا أولا عن عودة جوباريوف الى هيدلبرج ، وضرورة رحيلهم في اثره . ثم تفلسفوا قليلا ، وذكروا المسألة البولندية ، ثم عرجوا على القمار وبنات الهوى ، واستطردوا الى نوادر فاحشة . وأخيرا هبطوا الى حكايات « الدباغين » وذوى القوة المفرطة . فتذكروا أولا كل ماكان بروى عن لوكيه ، وعن ذلك الشماس الذى التهم فى رهان اكثر من ثلاث وثلاثين « رنجة » ، وعن الاولانى ازيدينوف المشهور بفرط بدائنه ، وعن ذلك الضابط الذى كسر عظمة ساق على جبهته . ثم تلا ذلك كذب صراج . فروى بشتشالكن نفسه وهو يتشاءب انه عرف امرأة فلاحه فى روسيا الصفرى ، وجد عند وفاتها أن وزنها اكثر من نصف طن ، وعينا افطر بثلاث وزات وسمكة ضخمة . وتحمس بمبايف فجأة وأعلن انه يستطيع أن يأكل شاة كاملة - بشرط أن تكون « مثلة » طبعاً . وانفجر فوروشيلوف بروى شيئا عن رفيق له فى المدرسة شديد الأبد ، وكانت روايته مختلطة اختلاطا ألزهم الصمت ، وبعد برهة نظر بعضهم الى بعض وتناولوا قبعاتهم وانصرفوا .

وحين فرغ لتفينوف لنفسه حاول أن يعمل ، ولكنه أحس كأن

راسه مليء بأبخرة متكاثفة . فلم يستطع أن يعمل شيئا ، وضاعت منه الليلة كما ضاع النهار . وفي صبيحة اليوم التالي لم يكد يتأهب لتناول فطوره حتى طرق بابه ، فقال لتفينوف في نفسه : يا الله ! انه واحد من اصدقاء الامس أيضا » . ونطق بشيء من الوجل :
- Herein ! (١) .

فانفتح الباب ببطء ودخل بوتوجين . وسر لتفينوف برؤيته سرورا عظيما ، وجعل يقول وهو يشد بحرارة على يد ضيفه غير المنتظر :

- أهلا أهلا ! لقد احسنت صنعا بمجيئك ، كنت أود أن أذهب اليك ، ولكنك لم تشأ أن تخبرني بمثواك . تفضل بالجلوس . ضع قبعتك . اجلس .

ولم يجب بوتوجين على ترحاب لتفينوف الحار ، وظل واقفا وسط الغرفة وهو يبدل ساقيه ، ولم يزد على أن ابتسم وهز راسه ، وكان جليا أن استقبال لتفينوف الحفي قد مس قلبه ، ولكن تعبير وجهه نم بشيء من الارتباك .
بدأ يقول في تردد :

- هناك ... سوء تفاهم بسيط . طبعاً ... يسرني دائما أن أراك . ولكن الحقيقة ... أني رسول اليك .
- أتعني أنك ما كنت لتأتي الى هنا من تلقاء نفسك ؟
- بلى ! ولكني ... لا أظنني كنت أقدم على أن اتطفل عليك اليوم ، لولا أني سئلت المجيء اليك . أجل ، انني أحمل رسالة اليك .

- أستطيع أن أعلم مرسلها ؟
- شخص تعرفه . أنها من إيرينا بافلوفنا راتميروف . لقد وعدتها منذ ثلاثة أيام أن تزورها ولم تفعل .
فحدق لتفينوف في بوتوجين دهشا :

- أتعرف مدام راتميروف ؟
- كما ترى .
- وتعرفها جيدا ؟
- يمكنني أن أقول اني صديق لها .
وصمت لتفينوف برهة . وأخيرا قال :

(١) « أدخل ! » (بالالمانية) .

- اسمح لى ان ان أسألك : هل تعلم لماذا تريد ايرينا بافلوفنا ان ترانى ؟

فمشى بوتوجين الى النافذة :

- الى حد ما . لقد سرت برؤيتك سرورا عظيما على ما يبدو لى . وهى تريد أن تجدد علاقتها القديمة بك .
فردد لتفينوف :

- تجدد ... معذرة اذا اثقلت عليك . ولكن اسمح لى ان أسألك سؤالا آخر : اتعلم انت ماذا كانت طبيعة تلك العلاقة ؟
- لا ... لا أعلم فى الحقيقة .. وأضاف بوتوجين وهو يلتفت الى لتفينوف فجأة وينظر اليه بعطف : ولكنى أظنها كانت علاقة وثيقة . لقد أننت عليك ايرينا بافلوفنا ثناء عظيما ، واضطرت ان أعدها باحضارك . فهل تأتى ؟

- متى ؟

- الآن . حالا .

فرفع لتفينوف يديه دهشا . وأضاف بوتوجين :

- ان ايرينا بافلوفنا تظن ان ال ... لا أدري ماذا أقول ...
ان الملابس التى صادفتها فيها أول أمس ما كانت تسر كثيرا .
ولكنها كلفتنى أن أقول لك ان الشيطان ليس حالك السواد كما يصورونه .

- م - م ... اهذا القول عن الملابس ذاتها ؟

- نعم .. وعلى العموم أيضا .

- م - م ... حسنا ، وما رأيك انت فى الشيطان ياسوزونت ايفانتش ؟

- أظن يا جوريجورى مبهالتش انه ليس كما يصورونه على أية حال .

- أهو خير مما يصورونه ؟

- لا أدري ان كان خيرا أو شرا ، ولكنه مختلف . حسنا .
هل نذهب ؟

- أرجو ان تجلس قليلا أولا . يجب ان اعترف بأن الامر ما زال يبدو غريبا .

- أى غرابة ، ان جاز لى أن أسأل ؟

- كيف أمكن ان تصبح صديقا لايرينا بافلوفنا ؟
فأخذ بوتوجين يفحص نفسه بنظرة . ثم قال :

- حقا ان الامر يبدو بعيد التصديق بالنسبة الى منظرى
ومنزلى فى المجتمع ولكنك تعلم ان شكسبير قال : ان فى السماء
والارض ياهوراشيو ... الخ . ليست الحياة سهلة ، واليك هذا
المثل : هذه شجرة قائمة أمامك والريح ساكنة ، فكيف تتلقى
ورقة من غصن منحط مع ورقة من غصن عال ؟ هذا محال .
ولكن العاصفة تهب ، فيتغير كل شيء ، وتتلقى الورقتان .

- ايه ؟ اذن فقد كانت ثمرة عواصف ؟
- كيف لا؟ هل تمر الحياة بغير عواصف؟ ولكن كفانا فلسفة،
فقد آن ان نذهب .

وكان لتفينوف لايزال مترددا ، فصاح بوتوجين وقد جعد وجهه
ليشير الضحك :

- يا الله ! ماذا جرى للشبان فى هذه الايام ؟ سيدة رائعة الجمال
تدعوهم الى زيارتها ، وتبعث اليهم الرسائل ، وهم يتهبون
ويترددون ! يجب ان تخجل ياسيدى العزيز . يجب ان تخجل .
هذه قبعتك . خذها و « الى الامام » كما يقول اصدقائنا الالمان
المتحمسون !

وطال تردد لتفينوف برهة اخرى ولكنه تناول قبعته اخيرا
وخرج من الحجرة مع بوتوجين .

ذهبا الى أحد الفنادق الكبرى في بادن وسألا عن مدام راتميروف . وسألها الحارس أولا عن اسميهما ، ثم أجاب على الفور ان « الأميرة بالمنزل » ، وصعد هو نفسه الدرج معهما ، وطرق باب المسكن ، وأنبأ بحضـورهما ، فخفت الأميرة الى استقبالهما . وكانت منفردة ، فقد سافر زوجها الى كارلسروهة ليقابل شخصية رسمية كبيرة . كان مارا بتلك المدينة .

وكانت إيرينا جالسة الى منضدة صغيرة تطرز حين عبر بوتوجين ولتفينوف عتبة الباب . فألقت بسرعة ما كانت تطرزه ، وأزاحت المنضدة الصغيرة ونهضت وقد غمر وجهها سرور صادق . وكانت تلبس رداء صباحيا مرتفعا عند العنق ، يشف نسيجه الرقيق عن تعاريج كتفيها وذراعيها ، وكان شعرها المعقوص بغير اعتناء قد تهدل على جيدها النحيل . ورمقت إيرينا بوتوجين بنظرة سريعة وتمتمت :
Merci ، ومدت يدها الى لتفينوف وهي تؤنبه برقة على نسيانه .
وأضافت :

— وأنت صديق قديم !

وبدا لتفينوف يعتذر . فأسرعت تقول C'est bien, c'est bien (١) وأخذت منه قبعته والحت عليه بلطف حتى جلس . وكان بوتوجين قد جلس أيضا . ولكنه نهض مسرعا ، وأستأذن في الذهاب قائلا أنه على موعد لا يستطيع تأجيله وأنه سيأتي ثانية بعد الغداء . ورمقته إيرينا مرة أخرى بنظرة سريعة ، وأومات اليه برقة ، ولكنها لم تحاول أن تستبقيه وما كاد يختفى خلف ستر الباب حتى التفتت بتلهف نحو لتفينوف ، وقالت : بالروسية في صوتها الموسيقى الرقيق :

— ها قد أصبحنا وحيدين أخيرا . وأستطيع أن أقول لك كم أنا مسرورة برؤيتك . لأنها ... لأنها تمنحني فرصة ... (وثبتت

(١) « حسن ، حسن » .

ايرينا عينيها على وجهه بغير اضطراب (لأن أسألك المغفرة .
وأجفل لتفينوف على الرغم منه . انه ما كان يتوقع مثل هذا
الهجوم السريع ما كان يتوقع أن تدير هي نفسها الحديث على
الأيام الخالية . فتمتم :
- المغفرة ... عمه ؟

فاحمر وجه ايرينا . وقالت :

- عمه ؟ أنت تدري عمه - وأشاحت بوجهها قليلا - لقد
أسأت اليك يا جريجورى ميهالتش ، وان كان ذلك قدرا كتب على
(وتذكر لتفينوف رسالتها) ولست آسفة على شيء ... وعلى كل
حال فقد فات أوان الاسف . ولكنى حين التقيت بك ذلك اللقاء
المفاجيء ، قلت لنفسى اننا يجب أن نصبح صديقين ، لا بد من
ذلك ... وسوف أتألم كثيرا أن لم يتم ... ويبدو لى أن أول ما
يجب هو أن نفسر مافات ، ولا تؤجل ذلك ولا نترك شيئا لما بعد ،
حتى لا يكون هناك أى ... gêne ... أى ارتباك ... يجب
أن نفرغ من ذلك سريعا يا جريجورى ميهالتش ، ويجب أن تقول
انك عفوت عنى ، والا خلثك تحس ... de la rancune. Voila (١) .
لعله غرور منى ، ولعلك نسيت كل شيء منذ زمن طويل جدا ،
ولكن لا بأس قل لى انك عفوت عنى .

نطقت ايرينا بهذا الحديث كله دون أن تتوقف ، واستطاع
لتفينوف أن يرى دموعا تلمع فى عينيها ... أجل ، دموعا . فأخذ
يقول مسرعا :

- كيف هذا يا ايرينا بافلوفنا ؟ كيف تسألينى العفو والغفران؟
ان كل هذا قد مضى وانقضى ، وانى لا أملك الا أن أدهش حين
أراك - فى كل ما يحيط بك من مظاهر البذخ - مازلت تذكرين
رفاق شبابك الخاملين ...

فقال ايرينا برقة :

- أیدهشك هذا ؟

فأضاف لتفينوف :

- انه يهزنى . لأنى ما كنت أظن ...

فقاطعت ايرينا :

- ولكنك لم تقل لى انك عفوت عنى .

(١) بعض المودة . هذا هو !

- انى مسرور بسعادتك سرورا صادقا يا ايرينا بافلوفنا .
وانى لاتمنى لك من صميم قلبى كل خير ...

- ولن تذكرنى بشر ؟
- لن اذكر شيئا الا اللحظات السعيدة التى كنت مدينا لك بها
فى وقت من الاوقات .

ومدت ايرينا اليه كلتا يديها ، فقبض عليهما بحرارة ، وأبقاهما
بين يديه زمنا ... وكأنما تحرك فى قلبه لتلك الملامسة الرقيقة
شئ لم يحس به منذ زمن طويل . وكانت ايرينا مثبتة عينيها على
وجهه مرة أخرى ، ولكنها كانت تبسّم هذه المرة ... ونظر هو
اليها للمرة الاولى نظرة طويلة فاحصة ... فعرف ثانية تلك
القسمات التى كانت عزيزة عليه زمنا ، العينين العميقتين بأهدابهما
الرائعة ، الشامة الصغيرة على خدها ، منبت شعرها العجيب على
جبينها ، عاداتها فى عقد حاجبيها ولى شفثيها بطريقة فائنة بديعة ..
كل ذلك عرفه . ولكن أى جمال ! أى سحر أنشئ وأى حمى
شباب فى جسمها الفتى ! ولا طلاء ولا مساحيق على الوجه النضر
النقى ... نعم ، ان هذه امرأة جميلة . وغمرت لتفينوف موجة
من التفكير ... ظل ينظر اليها ، ولكن أفكاره كانت بعيدة ...
ولاحظت ايرينا ذلك ، فقالت بصوت مرتفع :

- حسنا . هذا جميل جدا . الآن استراح ضميرى . ويمكننى
ان ارضى تطلعى . فرد لتفينوف شبه حائر :
- تطلعى ؟

- أجل ، أجل . انى اود قبل كل شئ ان أعرف ماذا كنت
تعمل كل هذا الوقت ، وماذا تريد ان تعمل فى المستقبل ، اريد
ان أعرف كل شئ . كيف وماذا ومتى ... كل شئ . وحذار
ان تخفى عنى الحقيقة ، فان اخبارك لم تنقطع عنى ... بقدر
استطاعتى ...

- اخبارى لم تنقطع عنك .. انت .. هناك .. فى بطرسبرج ؟
- بين مظاهر البذخ التى تحيط بى ، كما قلت منذ برهة .
اجل ، انها لم تنقطع عنى فى الحقيقة . اما ذلك البذخ فسوف
تحدث عنه فيما بعد ، ولكنك يجب ان تخبرنى الآن بكل ما عندك ،
وأن تطيل ، ولا تختصر ، فلن يقطع احد علينا حديثنا .

ثم اضافت ايرينا وهى تجلس فرحة مستروحة فوق كرسى كبير:
- ما أحلى هذا الحديث ! هات ما عندك !

- فبدا لتفينوف قائلا :
- قبل أن أروى قصتى يجب أن اشكرك .
 - علام ؟
 - على طاقة الزهر التى وجدتها فى غرفتى .
 - أبة طاقة ؟ اننى لا أعرف شيئا عنها .
 - ماذا ؟
 - أقول لك انى لا أعرف شيئا عنها ... ولكنى منتظرة ..
 - منتظرة سماع قصتك ... ما اكرم بوتوجين اذ جاء بك الى هنا !
 - وأرهف لتفينوف اذنيه . وسأل :
 - هل عرفت هذا السيد بوتوجين منذ وقت طويل ؟
 - أجل ، منذ وقت طويل ... ولكن أخبرنى بقصتك .
 - وهل تعرفينه جيدا ؟
 - فتنهدت ايرينا وقالت :
 - أجل ! لأسباب خاصة ... لقد سمعت بالطبع عن اليزا بيلسكى .. التى ماتت منذ عامين تلك الميتة المروعة ؟ .. آه ، كلا ، لقد نسيت أنك لست عالما بكل فضائحننا ... هذه نعمة ! اوه !
 - quelle chance (١) أخيرا ، أخيرا التقى بانسان ، بانسان حقيقى لا يعلم شيئا عنا ! وأتكلم معه بالروسية ... ولو أنها روسية رديئة ، بدلا من هذه الفرنسية البطرجية الكريهة الباهتة المملة !
 - تقولين ان بوتوجين كان على اتصال بـ ...
 - فقاطعته ايرينا قائلة :
 - ان مجرد الإشارة الى هذه القصة يؤلمنى . لقد كانت اليزا صديقتى الحميمة فى المدرسة ، وكنا نتزاور دائما بعد ذلك فى بطرسبرج . وكانت تفضى الى بكل اسرارها ، فقد كانت شقية معذبة . وبوتوجين كان شهما حقا فى مسلكه نحو المسألة كلها .
 - لقد ضحى بنفسه ، ولم أقدره الا منذ ذلك الحين .
 - ولكننا ابتعدنا عن موضوعنا مرة أخرى . انى منتظرة قصتك يا جريجورى ميهالتش .
 - ولكن قصتى لا تشوقك البتة يا ايرينا بافلوفنا .
 - هذا لايعنيك .
 - تذكرى يا ايرينا بافلوفنا أننا لم نتقابل منذ عشر سنوات .

(١) « ياله من حظ سعيد ! »

عشر سنوات كاملة . ما أكثر ما فعل الزمن في هذه السنوات العشر !

- ولهذا اريد ان اسمع حديثك .
- ثم انى لا ادرى من أين أبدا .
- من البداية . منذ ... منذ رحلت الى بطرسبرج . لقد غادرت انت موسكو بعدئذ . أتدرى انى لم أعد قط الى موسكو منذ ذلك الحين ؟

- حقا ؟
- كان ذلك مستحيلا في اول الأمر . ثم لما تزوجت ...
- هل تزوجت منذ زمن طويل ؟
- منذ أربع سنوات .
- اليس لك أبناء ؟
- فأجابت بخشونة :
- لا .

وصمت لتفينوف برهة .
- وهل مكثت عند ذلك ... الكونت ريزنباخ حتى تزوجت ؟
فنظرت اليه ايرينا نظرة ثابتة ، كأنها تريد أن تعلم لماذا سأل هذا السؤال . وأخيرا أجابت :

- لا .
- اظن ابويك ... معذرة ، انى لم اسأل عنهما . أهما ...
- انهما كليهما بخير .
- ويعيشان في موسكو كما مضى ؟
- ويعيشان في موسكو كما مضى .
- وأخوتك وأخواتك ؟
- كلهم بخير . وأنا ارفعهم جميعا .

فقال لتفينوف وهو يرمق ايرينا من طرف خفى :
- آه ! لست أنا الذى يجب أن أروى قصتى ، بل أنت . لو ..
وربتك فجأة وصمت . ورفعت ايرينا كفيها الى وجهها وأخذت تدير خاتم الزواج فى اصبعها . وأخيرا قالت :

- حسنا . لن أرفض ذلك . ربما .. فى يوم من الايام ...
ولكن أبدا انت ، فأنى لا أكاد أعلم شيئا عنك ، مع انى حاولت ان اتتبع أخبارك . اما أنا فقد سمعت عنى كثيرا . اليس كذلك؟
الم تسمع عنى ؟

— انك يا ايرينا بافلوفنا قد شغلت مكانا ظاهرا في المجتمع ،
مهل ان يمكن الا يتحدث الناس عنك . خصوصا في الريف ، حيث
كنت أعيش ، وحيث كل شائعة تصدق ؟
— وهل تصدق الشائعات ؟ وما نوع هذه الشائعات ؟
— ان أردت الحقيقة يا ايرينا بافلوفنا فان هذه الشائعات كانت
نادرا ما تصلنى . لقد كنت أحييا في عزلة تامة .
— كيف هذا ؟ ألم تكن في القرم ؟ وفي الجيش ؟
— أعلمين هذا أيضا ؟
— كما ترى . لقد قلت لك انك كنت مراقبا .
فاحس لتفينوف بالحيرة مرة أخرى . وقال هامسا :
— ولما أخبرك بما تعرفينه من قبل ؟
— لماذا ؟ لاني أسألك . الا ترى انى أسألك هذا منك يا جريجورى
ميهالتش ؟

فحنى لتفينوف رأسه وبدأ ... بدأ يقص على ايرينا في أسلوب
مضطرب مجمل مفاخراته التي لا تشوق . بل انه كان كثيرا ما يقف
وينظر الى ايرينا مستفهما ، كأنه يسأل هل اكتفت بما روى ،
ولكنها الحت عليه ليتم قصته ، وبدأت وهى تنحى شعرها خلف
أذنيها ، وتعتمد بعرفقيها على ذراع كرسيها ، كأنما هى تلتقط كل
كلمة فى انتباه شديد . ولعلك لو نظرت اليها من جانب وتابعت
تعبير وجهها لخيّل اليك أنها لا تسمع شيئا مما يقوله لتفينوف ،
ولكنها غارقة فى تأملها . بيد أنها لم تكن تتأمل لتفينوف ، وان
أطالت اليه النظر حتى اضطرب واحمر وجهه . لقد كانت تتمثل
أمامها حياة بأسرها ، حياة مخالفة جد المخالفة لما كانت تسمع ،
حياتها هى لا حياته .

لم يتم لتفينوف قصته ، بل قطعها وقد خامره احساس
بالضيق . ولم تقل له ايرينا شيئا فى هذه المرة ، ولم تحثه على
المضى فى قصته ، بل ضغطت راحتها على عينيها كأنما هى متعبة ،
واضطجعت فى الكرسي ببطء ، وظلت بغير حراك . وانتظر لتفينوف
قليلا ، ثم تذكر ان زيارته قد دامت أكثر من ساعتين ، فمد يده
يريد قبضته ، واذا بصوت حذاء من جلد الماعز ينبعث من الحجرة
المجاورة ، وفاليريان فلاديميروفتش راتميروف يدخل مسبوقا
بعطره الارستقراطى البديع .
ونهض لتفينوف ، وتبادل الانحناء مع الجنرال الوسيم ، بينما

رفعت ايدينا يدها عن وجهها في غير عجلة ، وقالت بالرئيسية وهي تنظر الى زوجها نظرة باردة :

— آه ، لقد عدت ! ولكن كم الساعة الآن ؟

فأجابها الجنرال :

— نحو الرابعة يا عزيزتى — وأنت لم تلبسى بعد . ان الأميرة تنتظرنا .

وحنى قوامه المحبوك نحو لتفينوف انحناءة رشيقة ، وقال بنبرته العابثة المتهالكة التى تكاد تكون انثوية :

— الظاهر ان ضيفك العزيز انسلك الوقت .

وليسمح لنا القارئ عند هذه النقطة ان نحدثه بشيء عن الجنرال راتميروف . لقد كان أبوه ابنا غير شرعى لشخصية ممتازة في عصر الكسندر الاول ، من ممثلة فرنسية صغيرة حلوة . وقد مهد ذلك الشخص الممتاز لابنه طريقا في الحياة ، ولكنه لم يترك له مالا ، ولم يتسع الوقت للابن (والد بطلنا) حتى يجمع ثروة ، بل مات قبل ان يجاوز رتبة كولونيل في البوليس . وكان قد تزوج قبل وفاته بعام امرأة شابة حسنة اتفق ان تستظلت برعايته . وادخلت « الواسطة » ابنهما فاليريان الكسندروفتش المدرسة الثانوية العسكرية ، وهناك لم يجتذب انتباه الرؤساء اليه بنجاحه في العلوم ، بقدر ما اجتذبه بهندامه وآدابه وحسن سلوكه (وان تعرض لكل ما لم ينج منه تلاميذ المدارس الحربية في تلك الايام) . ثم عين في الحرس . ووصل فيه الى مركز ممتاز بفضل تودده المؤدب ، ومهارته في الرقص ، وحسن جلسته على ظهر الجواد في الاستعراضات (وكان غالبا يستعير الجواد الذى يركبه) وقبل هذا كله براعة خاصة في رفع الكلفة مع الرؤساء دون غض من اقدارهم ، ونوع من الملق اللطيف المهذب تمازجه مسحة من التحرر باهتة خفيفة كالهواء . . . الا ان هذا التحرر لم يمنعه من ان يجلد خمسين فلاحا في قرية من روسيا البيضاء بعث اليها ليخمد ثورة وكان جذاب المظهر ، زاهر الشباب ، مورد الخدين ، ناعما خفيفا لعابا ، فوفق أعظم التوفيق مع النساء ، وجنت به السيدات الارستقراطيات الناضجات . وكان الحذر له عادة ، والصمت ذريعة ، فراح يتنقل بين أرقى الأوساط كمنحلة نشيطة تجمع العسل حتى من آتفه الأزهار . وكان بلا خلق ولا علم ، ولكن كانت له شهرة رجل عملى ، وحاسة في معرفة الناس ، ومقدرة على

فهم الظروف ، وكان له قبل ذلك كله عزم لا يتزعزع على منفعة نفسه ، فتفتحت له الأبواب كلها آخر الأمر .

ابتسم لتفينوف ابتسامة مفتتحة ، بينما لم تزد ايرينا على ان هزت كتفها ، وقالت دون ان يزايلها برودها :

— حسنا ، هل رأيت الكونت ؟

— نعم رأيته . وقد أمرني أن أبلغك تحيته .

— آه ! ألا يزال نصيرك هذا غيبا كما كان ؟

فلم يجب الجنرال راتميروف ، ولكنه ضحك ضحكة صغيرة من أنفه ، كأنه يتجاوز عما في حكم امرأة من تسرع . كانت ضحكته هي تلك التي يجب بها الكبار الطيبون على نزوات الاطفال . واستمرت ايرينا تقول :

— نعم ، ان غناء صديقك الكونت لشيء عجيب . وما اكثر ما رأيت من اعاجيب !

فتمتم الجنرال بين أسنانه :

— أنت التي أرسلتني اليه .

التفت الى لتفينوف وسأله بالروسية هل يعالج نفسه بمياه بادن ؟

فأجاب لتفينوف :

— انى بصحة تامة والحمد لله .

فمضى الجنرال يقول وهو يبتسم ابتسامة تودد :

— هذه أعظم نعمة . الحق ان الناس لا يأتون الى بادن عادة طلبا

للمياه ، ولكن المياه هنا طيبة الأثر je veu dire efficace وكل من يعاني سعالا عصبيا مثلى ...

فنهضت ايرينا بسرعة ، وقطعت بازدراء حديث زوجها قائلة بالفرنسية :

— نتقابل مرة أخرى يا جريجورى مهالتش ، وأرجو ان يكون ذلك

قريبا ولكنني يجب ان أستعد للخروج الآن . ان تلك الأميرة لا تطاق بحفلاتها الدائمة التي لا تبتث الا الملل .

فتمتم زوجها وهو يذلف الى الحجرة المجاورة :

— أنت قاسية على كل انسان اليوم .

وكان لتفينوف متجها الى الباب ... فاستوقفته ايرينا قائلة :

— لقد أفضيت الى بكل شيء ، ولكنك أخفيت عني أهم شيء .

— وما ذاك ؟

— الست خاطبا ؟ لقد سمعت ذلك .

فاحمر لتفينوف حتى اذنيه ... والحق انه تعمد الا يشير الى تانيا ، ولكنه احس بفيظ شديد لأن ايرينا كانت عالمة بزواجه ، ثم لأنها اتهمته بالرغبة في اخفاء الأمر عنها . وحاد فيما يقول ، بينما لم ترفع ايرينا عينيها عنه . وأخيرا قال :

— نعم ، انى خاطب .

وانصرف على الفور .

وعاد راتميروف الى الحجرة وسأل :

— حسنا . لماذا لم تلبسى ؟

— اذهب وحدك . انى احس صداعا .

— ولكن الاميرة ...

فقااست ايرينا زوجها من رأسه الى قدمه بنظرة واحدة ، وأولته ظهرها ، وذهبت الى مخدعها .

سخط لتفينوف على نفسه سخطا شديدا كأنه خسر في الروليت أو أخلف وعدا . قال له صوت في باطنه انه ما كان يجوز له ، وهو على عتبة الزواج ، وهو رجل رزين لا صى حدث ، أن يخضع لتوازع التطلع أو اغراء الذكريات . قال في نفسه : « ما كان أغنانى عن الذهاب ! الأمر من جانبها لا يعدو أن يكون نزوة طارئة . انها ملول . انها ضجرة بكل شيء . لقد اشتاقت الى كمن اتخمتها أطايب الطعام فهو يتوق فجأة الى الخبز الاسود ... حسنا ، ان هذا طبيعى جدا ... ولكن لماذا ذهبت اليها ؟ اننى لا أستطيع أن أحس نحوها شيئا .. سوى الاحتقار ! لم يستطع أن يفوه بهذه العبارة - حتى في خياله - الا بجهد ... وتابع أفكاره : ليس هناك أدنى خطورة بالطبع ، ولا يمكن أن تكون . اننى أعرف من أواجه ، غير ان المرء يجب الا يلعب بالنار ... لن أضع قدمى فى منزلها ثانية . ولم يجرؤ لتفينوف أو لم يستطع حتى ذلك الحين أن يعترف لنفسه كم بدت له ايرينا جميلة ، وكم أحس انه منجذب اليها .

ومضى اليوم مرة أخرى ثقيلًا كئيبا . واتفق أن جلس لتفينوف على الفداء بجانب رجل أنيق مصبوغ الشارب ، لم ينبس بكلمة ، بل ظل يلهث ويدير عينيه فى محجريهما . ثم أخذه الفواق فاذا هو روسى مثل لتفينوف ، فقد صاح بالروسية فى حرارة : « آه ! ما كان يحب لى أن أكل الشام ! » ولم يحدث فى المساء أيضا ما يعوض اليوم المفقود . وريح بنداسوف ، أمام عينى لتفينوف ، أربعة أضعاف ما اقترضه منه ، ولكنه - بدلا من أن يرد اليه دونه - حلق فى وجهه تحديقا فيه شيء من الوعيد ، كأنه مستعد لأن يقترض منه أكثر مما اقترض ، لا لشيء الا لأنه رآه يربح . وفى اليوم التالى غراه مرة أخرى جحفل من مواطنيه . وتخلص لتفينوف منهم بصعوبة ، وانطلق الى الجبال . التقى أولا بايرينا ، فتجاهلها ومر بها مسرعا . ثم التقى

بوتوجين . وكان موشكا ان يبداه بالحديث ، لولا ان بوتوجين لم ينشط لاجابته ، وكان ممسكا بيد طفلة أنيقة اللبس . ذات خصل خفيفة ناعمة تكاد تكون بيضاء اللون ، وعينين سوداوين واسعتين ، ووجه صفر مدنف ، عليه طابع الاصرار ونفاد الصبر الذى يتسم به الاطفال المدللون . وأمضى لتفينوف ساعتين فى الجبال . ثم سار فى طريق لختنتالر عائدا الى مسكنه ... وأذا هو بسيدة جالسة على مقعد ، وعلى وجهها نقاب أزرق ، تنهض بسرعة وتقبل نحوه . وعرف فيها ايرينا .

قالت فى ذلك الصوت المضطرب الذى يدل على انفعال كظيم :
- لماذا تتجنبنى يا جريجورى ميهالتش ؟

فأجفل لتفينوف :

- أنا أتجنبك يا ايرينا بأفوفنا ؟

- أجل . أنت ... أنت ...

وكانت ايرينا تبدو ثائرة الى حد الغضب :

- أؤكد لك أنك مخطئة .

- لا . لست مخطئة . أتظننى لم أعرف هذا الصباح - حين التقينا - أنك عرفتنى ، أم تريد أن تقول أنك لم تعرفنى ؟ أخرنى !
- حقا ... يا ايرينا بأفوفنا ...

- جريجورى ميهالتش ! أنت رجل صريح . لقد كنت صادقا معى دائما . أخبرنى . أخبرنى . ألم تعرفنى ؟ ألم تدر وجهك عامدا ؟

ونظر لتفينوف الى ايرينا . كانت عيناها تلمعان ببريق غريب ، بينما كان خداهما وشفتاهما شاحبة شحوب الموت تحت قناعها الكثيف . وكان فى تعبير وجهها ، وفى همسها المتقطع ، شئ حزين ضارع لا سبيل الى مقاومته ... فلم يستطع لتفينوف أن يعضى فى ادعائه . قال بجهد :

- نعم ... عرفتك .

ارتحفت ايرينا رجفة خفيفة ، وأرخت ذراعها ، وهمست :

- لماذا لم تأت الى ؟

- لماذا ؟ لماذا ؟

ومال لتفينوف الى جانب الطريق ، وتمتعه ايرينا صامتة . وردد مرة أخرى « لماذا ! » واتقد وجهه فجأة ، وشد على قامه وحلقه غضب مرر :

- انساين بعد كل ما حدث بيننا ! لا أعنى الآن بالطبع ، لا أعنى الآن ، بل هناك ... هناك ... فى موسكو .

وبدأت ايرينا تقول :

- ولكننا اتفقنا ... لقد وعدتني ...

- لم أعدك بشيء ! معذرة اذا تكلمت بخشونة ، فانك تريد الحقيقة . احكى أنت نفسك : كيف أفسر ... لست أدري ماذا أسميه ! كيف أفسر الحاحك الا أن يكون لعبا لا أفهمه ، رغبة فى أن تختبرى مقدار سلطانك الباقي على ؟ لقد سار كل منا فى طريق . لقد نسيت كل شيء . لقد قاسيت هذه المحنة كلها منذ عهد بعيد . لقد أصبحت رجلا آخر . وأنت متزوجة ، وسعيدة فى الظاهر على الأقل ، تشغلين مكانا مرموقا فى المجتمع ، فما الفاية وما الفائدة من لقائنا ؟ ما انا عندك ؟ وما أنت عندى ؟ اننا لا نستطيع حتى أن نفاهم الآن . لا شيء مشترك بيننا الآن ، لا من الماضى ولا من الحاضر ! وخصوصا ... وخصوصا الماضى !

قال لتفينوف هذا كله سريعا متقطعا ، لم يلتفت أثناء كلامه ، ولم تبد ايرينا حراكا ، الا أنها مدت يديها نحوه بضعف . كانت كأنها تضرع اليه أن يسكت ويستمع اليها ، ولكنها عضت شفثها السفلى عضا خفيفا عندما سمعت كلماته الاخيرة ، وكأنها تريد أن تصمد لآلم جرح حاد سريع .

وأخيرا بدأت تقول فى صوت أهدأ ، وهى تزداد ابتعادا عن الجادة حيث كان المارة يعبرون من حين الى حين :

- جريجورى ميهالتش !

وتبعها لتفينوف بدوره :

- جريجورى ميهالتش ! صدقنى ! اننى لو كنت اتوهم أن لى ذرة من السلطان عليك ، لكنت أول من يتجنبك . فان كنت لم أصنع ذلك ، ان كنت قد جرؤت على أن أجدد معرفتى بك ، رغم ... رغم الاساءة التى قدمتها اليك فى الماضى ، فما ذلك الا لان ... لان ...

فسأل لتفينوف بشيء من الفظاظة :

- لان ماذا ... ؟

فمضت ايرينا تقول بحدة مفاجئة :

- لاننى لم أعد احتمل ، لاننى أختنق فى هذا « المجتمع » ، فى هذه المكانة المرموقة التى تتحدث عنها . لاننى اذ ألقاك أجد

رجلا حيا بعد كل هؤلاء الدمى - لقد رأيت نماذج منهم منذ ثلاثة أيام في القلعة القديمة - فأسعد بك كآبك واحة في الصحراء ، بينما أنت تظننى أغازل ، وتحقرنى وتصدنى محتجا بأنى أسأت إليك ! لقد أسأت إليك حقا ، ولكنى أسأت الى نفسى اكثر ، مما أسأت إليك !

فقال لتفينوف مرة أخرى ، وبغير أن يلتفت أيضا :

- لقد اخترت مصيرك بنفسك يا إيرينا بافلوفنا .

فقالت إيرينا مسرعة ، وكأنها تجد عزاء خفيفا في خشونة لتفينوف :

- أجل ، لقد اخترته بنفسى ، وأنا لا أشكو ، ولا يحق لى أن أشكو . أنا أعلم أنك لابد أن تظن بى السوء ، ولن أبرئ نفسى . انى لا أريد الا أن أوضح لك احساسى . أريد أن أقنعك انى لست بحيث أغازل الآن ... أنا اغازل ! كيف ! ان هذا غير معقول ! عندما رأيته انبعث كل ما كان شابا ونبيلًا فى ... ذلك الزمن حين لم أكن بعد قد اخترت مصيرى ، كل ما فى تلك الفترة المشرقة التى اختفت وراء هذه الاعوام العشرة ...

- مهلا يا إيرينا بافلوفنا ! ان مبلغ علمى ان اشراق حياتك يبدأ بالضبط منذ افترقنا

فوضعت إيرينا منديلها على شفيتها :

- ان ما تقوله شديد القسوة يا جريجورى ميهالتش ، ولكنى لا أستطيع أن أحس حنقا عليك . كلا . لم يكن ذلك العهد مشرقا . اننى لم أرحل عن موسكو لأعدو سعيدة ، بل لم أعرف لحظة واحدة من السعادة ... صدقنى ، مهما قيل لك . لو كنت سعيدة لم حدثك كما أحدثك الآن ... أوكد لك أنك لا تدري حقيقة هؤلاء الناس ... انهم لا يفهمون شيئا ولا يعطفون على شيء . حتى الذكاء ليس عندهم (١) ni esprit ni intelligence لا شيء الا ال faire savoir (٢) . والخبث . وفى باطنهم لا يبالون بموسيقى ولا برسم ولا بشعر ... سوف تقول انى أنا أيضا لم أكن أبالى بشيء من ذلك ، ولكن ليس الى هذه الدرجة يا جريجورى ميهالتش ... ليس الى هذه الدرجة ! ان هذه التى تقف أمامك الآن ليست سيدة صالون ، ما عليك الا أن تنظر لترى - ليست

(١) « لا روح ولا عقل »

(٢) « المكر »

« نجمة مجتمع » - اظنهم يلقبونا بهذا الاسم - لكن مخلوقة مسكينة مسكينة ، تستحق الرثاء حقاً . لا تعجب لكلماتي ... فكبريائي لا تعينني الآن ! انى امد يدي اليك كشحادة ... انى أسألك الصدقة ..

وأضافت باندفاع وقد عجزت عن كبح نفسها :

- انى أسألك الصدقة ، وانت ...

وتهدج صوتها . ورفع لتفينوف رأسه ونظر الى ايرينا . كانت انفاسها تتلاحق ، وشفتاها ترتعشان . ودق قلبه سريعا وسكت عنه الغضب .

ومضت ايرينا تقول :

- تقول ان كلا منا سار في طريق . وأعلم أنك على وشك الزواج عن حب ، وأنك رسمت خطة حياتك . هذا كله صحيح . ولكننا لم نصبح غريبين كلا عن الآخر يا جريجورى ميهالتش . ما زلنا نستطيع أن نتفاهم . أم تظن أنى تفهت تماما ، أنى غرقت في الوحل الى اذنى ؟ كلا ! أرجوك ألا تظن هذا ! أرحنى قليلا من هذه الحياة - أضرع اليك بحق الايام القديمة نفسها ، ان كنت لا تريد أن تنساها . افعل هذا ، حتى لا يمر لقاؤنا وكأنه ما كان فهذا مرير ، ولن يطول لقاؤنا على كل حال ... لست أدرى كيف أوضح ... ولكنك ستفهمنى ، لأنى أريد شيئا قليلا ، شيئا قليلا جدا ... لا أريد غير قليل من العطف . أريد ألا تصدنى وأن تدعنى أتنفس ...

وكف ايرينا عن الكلام ، وكان صوتها دامعا . تنهدت ، ونظرت الى لتفينوف نظرة باحثة شبه مختلسة ، ومدت يدها اليه ...

فأخذ لتفينوف اليد وضغط عليها ضغطة خفيفة .

وهمست ايرينا :

- لنكن صديقين .

فردد لتفينوف حالما :

- صديقين .

- نعم صديقين . أما ان كان هذا اسرافا في الطلب ، فليكن بيننا على الأقل شيء من الود ... لنكن كأن لم يحدث بيننا شيء من قبل .

فردد لتفينوف مرة أخرى :

- كأن لم يحدث بيننا شيء من قبل ... لقد قلت يا ايرينا

بأفلوفنا منذ برهة انى لا أريد أن أنسى الايام الماضية ... فما
توكل ان كنت لا أستطيع أن أنساها ؟
فعبرت وجه إيرينا بسمة سعادة اختفت على الفور ، وتلاها
تعبير من الألم يوشك أن يكون رعبا .
- كن مثلى يا جريجورى ميهالتش . تذكر لطيب منها ، وعدنى
قبل كل شيء ... عدنى بشرفك ...
- ماذا ؟

- ألا تتجنبينى . ألا تؤذينى من غير داع . أتعد ؟ قل !
- نعم .

- وستبعد من عقلك كل فكرة سيئة عنى ؟

- نعم ... أما فهمك - فلن أحاوله .

- لا ضرورة لذلك ... على أنك بعد قليل ستفهم . أتعد ؟

- لقد وعدتك فعلا .

- شكرا . لقد اعتدت أن أصدقك . سانتظرك اليوم وغدا .

ان أخرج من المنزل . والآن يجب أن أتركك . ان عظمة الدوقة

مقبلة على الطريق ... لقد لمحتنى . ولابد أن أذهب لأكلها ...

وداعا حتى نلتقى ... هات يدك ! Vite, vite . الى اللقاء .

وبعد أن ضغطت إيرينا على يد لتفينوف بحرارة . سارت نحو

سيدة وقور فى منتصف العمر . تتهادى على الممر المغطى بالحصى ،

وفى صحبتها سيدتان أخريان وخادم جليل المنظر فى بزة رسمية .

قالت السيدة عندما انحنت إيرينا باحترام :

(٢) Eh bonjour, chère Madame. Comment allez-vous aujourd'hui?

Venez un peu avec moi.

فسمع صوت إيرينا يجيبها متملقا :

(٣) Votre altesse a trop de bonté. -

(١) « أسرع ، أسرع ! » .

(٢) « صباح الخير يا سيدتى العزيزة . كيف أنت اليوم ؟ تعالى معى قليلا » .

(٣) « هذا عطف كبير من عظمتك » .

انتظر لتفينوف حتى غابت الدوقة وحاشيتها عن نظره ، ثم سار منحدرًا في الطريق هو أيضا ، ولم يستطع أن يتبين مشاعره ، فقد كان خجلا بل خائفا ، وكان يحس مع ذلك زهوا ... لقد أخذه حديث إيرينا على غرة ، وغرق من كلماتها السريعة المندفعة في سيل عاصف ، وقال لنفسه : ما أعجب نساء المجتمع هؤلاء ! متقلبات ... ما أشد ما تفسد عن البيئة التي يعشن فيها ، والتي يشعرون هن أنفسهن بفظاعتها ! .. وكان في الحقيقة لا يفكر في شيء من ذلك ، ولكنه كان يكرر هذه العبارات المحفوظة تكرارا آليا ، وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه أفكارا أخرى أشد ايلاما . أحس أنه يجب ألا يفكر الآن بجذ فيندم ، فجعل يمشى بخطى متثاقلة ، يكاد يضطر نفسه الى الانتباه لكل ما يصادفه ... وفجأة رأى نفسه أمام مقعد ، ولح أمامه قدمين ، فصعد بصره فوجدهما لرجل جالس على المقعد يقرأ صحيفة . ووجد ذلك الرجل بوتوجين . وبدرت من لتفينوف نبرة تعجب خافتة . فألقى بوتوجين الصحيفة على ركبتيه ونظر الى لتفينوف بانتباه وبغير أن يتسم ، ونظر لتفينوف اليه أيضا بانتباه وبغير أن يتسم .

وسأل أخيرا :

- اتسمح لى أن أجلس بجانبك ؟
- بكل سرور . ولكنى أرجو ألا تفضب منى اذا حدثتنى ، فانى اليوم منقبض المزاج ، ساخط على البشرية ، يبدو لى كل شيء فى أسوأ صورة .

فأجاب لتفينوف وهو يهبط على مقعده :
- هذا حسن ياسوزونت ايفاتش . الواقع أن هذا المزاج يناسبنى جدا . ولكن ما الذى أوصلك اليه ؟
فأخذ بوتوجين يقول :

- فى الحقيقة يجب ألا اسخط . فقد قرأت فى الصحيفة منذ برهة مشروعا لاصلاح المحاكم فى روسيا . وقد سررت جدا لان

فقدنا سلكوا السبيل الصحيح أخيرا . فأبوا أن يضيفوا إلى المنطق
الأوربي الواضح المستقيم ذبلا من عنديتنا ، متعللين بالاصالة أو
الوطنية ، بل أخذوا شيئا طيبا بكل -لذا فيره ، وإن كان أجنبيا .
يكفى أننا تسامحنا في موضوع الأراضي الزراعية ، فليس من السهل
أن تلفى الملكية المشاعية ! أجل ، أجل ، لا يحق لي أن أسخط .
ولكنني وقعت لسوء حظي على أحد « ذوى المواهب الفطرية »
وتحدثت معه ، ويا ويلى من ذوى المواهب الفطرية هؤلاء ، الذين
علموا أنفسهم ! أنهم سيجعلوننى أتململ فى قبرى !
فسأل لتفينوف :

— من تعنى ؟

— أوه ! هنا رجل يتسكع ويتوهم أنه موسيقى عبقرى . يقول
لك : طبعاً أنا لست شيئاً ، أنا صفر ، لأننى لم أتعلم ، ولكن
فى راسى أنفاما وأفكارا أكثر مما عند مايرير . وأنا أقول : أولاً ،
لماذا لم تتعلم ؟ وثانياً : دعنا من مايرير ، إن أحقر نافخ ناي
ألماني ، يؤدى دوره فى أحقر أوركسترا ألمانية ، لديه من الأفكار
أكثر عشرين مرة مما لدى « ذوى المواهب الفطرية » مجتمعين .
ألا أن عازف الناي يحتفظ بأفكاره لنفسه ، ولا يهمل لها فى بلاد
مليئة بأمثال موزار وهایدن ، أما صاحبنا الموهبة الفطرية فما إن
يعزف فإلسا أو أغنية عزفا مخلخلاً حتى يضع يديه فى جيبى
بنظرونه وبسمة ازدراء على شفثيه — أنه عبقرى ! وهكذا الحال
فى الرسم وفى كل شئ آخر . آه من هذه المواهب الفطرية ! كم
أنفصهم ! كأن الناس جميعاً لا يعلمون أن هذه الهوشة الفنية
والعلمية لا توجد إلا حيث لا فن حقيقى أصيل ولا علم حقيقى
عميق الجذور . لقد حان الوقت لنطرح هذا التهويش ، بل هذا
الهراء السخيف ، مع تلك العبارات المجوجة من مثل قولهم : لا
أحد يموت جوعاً فى روسيا ... السفر البحرى فى روسيا أسرع
منه فى أى بلد آخر ... نحن الروس لا أحد يستطيع أن يفلبنا ...
أننى أسمع دائماً عن غنى الفطرة الروسية ، وعن غريزة الروس
التي لا تخطئ ، وعن كوليبيين ... ولكن ما هذه الفطرة الفنية
ياسادة ؟ أنها كلام النائم ، أو كحكمة الحيوان . الفريزة ! أى
فخر ! خذ نحلة فى القابة وضعها على مسافة ميل من بيتها ،
فستهدى إليه . إن الإنسان لا يستطيع أن يصنع شيئاً كهذا ،
ولكن هل تقول أنه أحقر من النحلة ؟ أن الفريزة لاتليق بالإنسان ،

ولو اصابنا دائما . العقل ، العقل السليم البسيط المستقيم . هذا هو تراثنا وفخارنا . ان العقل لا يأتي بمثل هذه الغرائب ولكنه عماد كل شيء . اما كوليبين الذى توصل الى صنع ساعات بالغة ارداءة دون ان يعلم شيئا عن الميكانيكا ، فاعتقد ان ساعاته يجب ان تعرض على الملأ مع هذه العبارة : انظروا ! هكذا يجب الا تصنع الساعات . ليس لاحد ان يلوم كوليبين نفسه ، ولكن عمله لآخر فيه . ولا بأس بأن نعجب بجرأة تيلاوشكين وبراعته اذ تسلق برج وزارة البحرية . ولكن لا حاجة بنا ان نصيح بأنه أظهر جهل المهندسين الألمان ، وأن كل ما يعملونه هو سرقة أموالنا ... فانه لم يظهر جهلهم مطلقا ، لأنه البرج احتاج الى اصلاح فلم يكن بد من رفع سقالة حوله وترميمه بالطريقة المعروفة . بالله لا تشجعوا دولهم في روسيا ان كل شيء يمكن عمله بلا تعلم ! كلا . قد يكون لك عقل سليم ، ولكنك يجب ان تدرس ، وأن تبدأ من ألف باء . والا فألجم لسانك واصمت وتواضع ! أف ! ان هذا يجعلنى أغلى ! ونزع بوتوجين قبعته وجعل يروح عن نفسه بمنديله . ثم عاد يقول :

— الفن الروسى ! الفن الروسى حقا !.. اننى أعرف الفرور الروسى ، والعجز الروسى ، أما الفن الروسى فاسمح لى أن أقول لك انى لم أعثر عليه قط . لقد مكثوا عشرين سنة بمجدون ذلك النكرة الهزيل بريولوف ، ويتوهمون أننا أنشأنا مدرسة فى التصوير خاصة بنا ، بل أن هذه المدرسة لا تقاس بها جميع المدارس الأخرى ... الفن الروسى ! ها ها ها ! هو هو هو !

فعقب لتفينوف :

— معذرة ياسوزونت ايفانتش . أتأبى الاعتراف بفضل جلنكا

أيضا ؟

— ان الشاذ كما تعلم يثبت القاعدة . على أننا لا نستغنى عن التنفج حتى فى أمر جلنكا . ولو قلنا مثلا أن جلنكا موسيقار ممتاز حقا ، وأنه لولا ظروف خارجة عنه وأخرى خاصة به لكان منشىء الاوبرا الروسية ، لو قلنا ذلك لما جادلنا فيه أحد ولكن لا ! اننا لا يمكن أن نكتفى بهذا . بل يجب أن نرفعه قورا الى رتبة القائد الأعلى فى الموسيقى . يجب أن نلزم الشعوب الأخرى حدها ، فليس عندهم من يضارعه . وسيؤيدنا فى ذلك عبقري وطنى عجيب لا تعدو ألعانه الكبرى ان تكون تقليدا للموسيقين الاجانب من

الطبقة الثانية لأن تقليدهم أسهل . ليس عندهم من يضارعه !
حقاً ! يالكُم من برابرة بلهاء مساكين لا يقدرُون الفن ، بل يرون
الفنانين أشبه شيء ببطلنا رابو ! فهم يقولون ان العملاق الاجنبى
يستطيع ان يرفع مائة رطل بيد واحدة ، أما رجلنا فيستطيع ان
يرفع أربعمائة ! ليس عندهم من يضارعه ! انى أخبرك بشيء أذكره
ولا أستطيع نسيانه : فى الربيع الماضى زرت قصر البلور قرب
لندن ، وفى ذلك القصر كما تعلم شبه معرض لكل ما ابتكرته
عبقريّة الانسان ، أو ان شئت دائرة معارف للانسانية . جعلت
أسير ذهاباً وجيئة بين المكينات والآلات وتماثيل عظماء الرجال ،
وقلت لنفسى : لو حكم بأن الأمة التى تختفى عن وجه الارض
يختفى معها كل ما لها فى قصر البلور من مخترعات لكان لأمنا
روسيا القدسة ان تختبئ فى أعماق الارض بغير أن ينقل مسمار
واحد من المكان . كل شيء يمكنه أن يستقر حيث هو . حتى
السماور وأحذية الليف والشكيمة والسوط - منتجاتنا الشهيرة -
لسنا نحن مخترعيها . ولكنك لا تستطيع أن تجرى هذه التجربة
حتى مع سكان جزر ساندوتش ، فهؤلاء الجزريون قد صنعوا
قوارب ومزاريق خاصة بهم ، فسوف يلاحظ زوار المعرض غيابهم .
انها معرة ! لعلك تقول أن هذه قسوة . ولكنى أجيبك أولاً أنى
لا أستطيع أن أهذل مثل الحمام وأنا أنظر الى هذه العيوب ،
وثانياً أن الشيطان ليس هو وحده الذى يخاف المرء أن ينظر الى
وجهه ، فما من أحد يجرؤ أن ينظر الى نفسه ، ولا الاطفال وحدهم
هم الذين يهددون حتى يناموا . لقد جاءتنا مخترعاتنا القديمة
من الشرق ، واستعرنا مخترعاتنا الحديثة من الغرب ، وكدنا
نفسدها بينما نصر على الحديث عن استقلال الفن الروسى . بل
لقد اكتشف بعض الاجرياء علما روسيا أصيلاً . ان اثنين فى اثنين
تساوى أربعة عندنا كما هى عند سوانا ، لكن يظهر أننا وصلنا الى
هذه النتيجة ببراعة أعظم !

فصاح لتفينوف :

- ولكن مهلاً ياسوزونت ايفانتش ! أرجو أن تنتظر دقيقة !
فأنت تعلم أننا نرسل بعض الاشياء الى المعارض العالمية . كما ان
أوروبا تستورد منا أشياء .

- نعم . الخامات . ولا تنس ياسيدى العزيز أن خاماتنا الجيدة
يرجع الفضل فى جودتها الى أشياء أخرى رديئة . فالشعر الذى

نصدره مثلا كبير وقوى لأن خنازيرنا هزيلة . والجلود قوية
وسميكة لأن أبقارنا نحيلة ، والشحم دسم لأنه أغلى مع نصف
اللحم ... ولكن لماذا أطيل عليك في هذا الكلام ؟ لقد درست
التكنولوجيا ، ولأريب أنك تعرف هذا كله خيرا مني . انهم يحدثونني
عن قدرتنا على الابتكار ! قدرة الروس على الابتكار ! هؤلاء فلاحونا
يشكون من الشكوى ويعانون الخسائر الفادحة لأنهم لا يجدون آلة
صالحة لتجفيف القمح ، تغنيهم عن وضع حزمهم في حجرة القرن
كما كانوا يفعلون أيام روريك . ان هذه الافران عظيمة الضرر -
مثلا في ذلك مثل أحذية الليف والحصر الروسية - وكثيرا ما
تسبب الحرائق . والفلاحون يشكون ، وليس هناك ما يبشر بآلة
تجفيف لم لا تظهر آلات التجفيف ؟ لأن الفلاح الالماني لا يحتاج
اليها . لأنه يستطيع أن يدرس قمحه كما هو ، فلا حاجة به الى
اختراع مثل هذه الآلة . ونحن ... نحن لانستطيع ان نخترعها
مهما نحاول . سأقول منذ اليوم كلما قابلت أحد هذه المواهب
الفطرية ، هؤلاء العباقرة الذين علموا أنفسهم بأنفسهم : « مهلا
باصديقي الفاضل ! أين آلة التجفيف ، نريد أن نراها ! » ولكن
أنى لهم هذا ! اننا قادرون أن نلتقط حذاء اطرحه سان سيمون
أوفورييه (١) منذ أجيال ، فنضعه فوق رؤوسنا ونعده أثرا
مقدسا ، وقادرون على أن نلحق مقالا عن الدور الذي لعبته
البروليتاريا في مدن فرنسا الكبرى قديما وحديثا ، ولكني سألت
مرة كاتباً وعالماً اقتصادياً من هذا النوع - أشبه بصديقك السيد
فوروشيلوف - أن يسمى عشرين مدينة في فرنسا ، فماذا تظنه
فعل ؟ لقد ألجأ اليأس الى ذكر مونت فرمي على أنها مدينة
فرنسية ، ولعله تذكرها من قصة لبول دي كوك . وهذا بذكرني
بقصة حدثت لي . كنت أجوس ذات يوم خلال غابة ومعى كلب
وبندقية ...

فسأل لتفينوف :

- أنت من هواة الصيد ؟
- اننى أخرج للصيد أحيانا . فذات يوم كنت أبحث عن مستنقع
... أطيب لي هواة الصيد في وصفه - لاصطياد الشناقب ، وبينما
كنت مارا في فرحة من الغابة رأيت شابا ظريفا جالسا أمام كوخ

(١) فيلسوفان اشتراكيان فرنسيان ، من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

أخذ تجار الخشب - ولابد أنه كان كاتب حساباته - وكان يتسم
لسبب لم أعلمه . فسألته : أين المستنقع ، وهل فيه كثير من
الشناقب ؟ فانطلق مرحبا وقد بدا عليه السرور كأنى منحتهم
روبلا : « أى خدمة . المستنقع من الطراز الاول ، أما الطيور
البرية بأنواعها . يا سلام ! انها كما تريد كثرة » . فانطلقت ، غير
أنى لم أجد شيئا من الطيور البرية . وكان المستنقع نفسه جافا
منذ زمن طويل . خبرنى الآن بربك : لماذا كان الروسى كذابا ؟
لماذا يكذب عالم الاقتصاد ، ولماذا الكذب على الطيور البرية أيضا ؟
فلم يجب لتفتنوف ، بل تنهد موافقا ، واستمر بوتوجين فى حديثه :
- أما اذا حدث هذا الاقتصادى نفسه عن أدق مشاكل علم
الاجتماع ، دون أن تتجاوز حدود النظرية ، او تتناول الحقائق ،
فانه يحلق كالبائر بل كالنسر . على أنى نجحت مرة فى اقتناص واحد
هذه الطيور . وكان الفخ الذى استعملته فخا بديعا ، وان يكن
ظاهرا ، كما سترى . كنت أتحدث مع واحد من شبابتنا المتحررين
فى مختلف « المشاكل » كما يقولون ، فتحمس كعادتهم دائما ،
وانطلق يهاجم فى حرارة صبيانية حققة ، وكان من بين ما هاجمه
نظام الزواج . وأوردت عليه الحجة بعد الحجة ... فكأنى أحدث
جدارا . ورأيت أنى لن أغلبه بهذه الوسيلة ، فخطرت لى فكرة
موفقة ! قلت له : « اسمح لى بملاحظة ياسيدى - ولابد أن تكون
رسميا دائما حين تكلم هؤلاء الشباب المتحررين - انى لأعجب منك
حقا ، فانت تدرس العلوم الطبيعية ، ومع ذلك غاب عنك أن جميع
الحيوانات الجارحة وآكلة اللحوم ، سواء أكانت وحوشا أم طيورا ،
لا بد لها أن تخرج باحثة عن الفريسة وأن تجتهد فى الحصول على
طعام حيوانى لها ولأولادها ... أظنك تعد الانسان من جنس هذه
الحيوانات ؟ » فقال « الشاب المتحرر » : « أجل انى أعد الانسان
مرجسها . ليس الانسان إلا آكل لحم . » فردت : « وجارحا ؟ »
فصرح : « وجارحا . » قلت : « حسنا . فكيف اذن لم تلاحظ
أن هذه الحيوانات تعيش أزواجا ؟ » فانتفض « الشاب المتحرر » :
« كيف هذا ؟ » قلت : « هو هذا . انظر الى الأسد ، والدب ،
والثعالب ، والنسر ، والصقر ... الواقع أنها لا يمكن أن تكون غير
ذلك . فبالكاد يستطيع الأبوان أن يقولوا صغارهما . » ففكر
الشباب ثم قال : « حسنا . يجب اذن ألا نقيس الانسان على
الحيوان . » وهنا قلت له انه مثالى ، ففرغ وكاد يبكي . واضطرت

ان اطمئنه بان وعدته الا أخبر اصداقاه . فليس من الهين ان يستحق المرء ان يدعى مثاليا ؛ ولكن اهم نقطة يضل عندها شبابنا هي انهم يتوهمون ان العمل السرى المتواضع القديم قد مضى اوانه ، وان آباءهم الشيوخ لم يكن امامهم الا ان يحفروا فى باطن الارض كالخلد ، اما هم فلا يليق بهم مثل هذا العمل ، فهم يقولون : سنعمل فى وضع النهار! سننزل الميدان ! يا اصدقاى المساكين حتى ابناؤكم لن ينزلوا الى الميدان ، فلماذا لا ترجعون الى الحفر فى بطن الارض لتواصلوا عمل الأسلاف ؟

وساد صمت قصير ، ثم عاد بوتوجين يقول :
 - اعتقد ياسيدى العزيز أننا لسنا مدينين للمدينة بالعلم والفن والقانون وحسب ، بل ان الاحساس بالجمال والشعر يتطور ايضا ويقوى بتأثير تلك المدينة نفسها ، وأن ما يسمى بالخلق الفطرى الشعبى ان هو الا سخف وهذيان . حتى هوميروس نجد فيه آثار مدنية رافهة متنوعة ، وحتى الحب يزداد بالمدينة غنى وعمقا . لو لم يكن السلافوفيل أناسا طبيى القلوب لشنقونى على هذا الكفر ، ولكنى لن اغير رأى ، ومهما يقدموا لى من مدام كوهانوفسكى و « عش النحل » فانى لا أستطيع أن احتمل رائحة مايسمونونه ال Triple extrait de moujik Russe (١) ، لأنى لست

من الطبقة الراقية التى تحتاج ان تطمئن نفسها من حين الى حين الى انها لم تعد فرنسية خالصة ، والتى لم يصنع ذلك الادب En cuir de Russie (٢) الا لفائدتها . حاول أن تقرأ امتع وأذيع القطع من « العش » على فلاح حقيقى ، فسيظن انك تقرأ عليه تعويذة تدفع شر الحمى أو تذهب داء السكر ، أعود فأقول : انه بغير المدينة لا يوجد شئ حتى ولا الشعر. وإذا أردت أن تظفر بفكرة واضحة عن المثل الاعلى الشعرى للروسى غير المتمدد فأرجع الى اغانينا وأساطيرنا . لن أطيل القول فى أن الحب يصور كأنه نتيجة للأشربة السحرية والتعساويد ، وأنه يسمى كهانة و « عملا » ، ولا فى أن ما يسمى بأدب الملاحم عندنا هو الادب الوحيد فى الشرق والغرب - الادب الوحيد - الذى لم يصور قط حببين نموذجيين ، الا اذا كنت تصد فانكا وتانكا (٣) من هذا

- (١) « روح الفلاح الروسى »
- (٢) « ذو الجلد الروسى »
- (٣) إشارة الى أغنية شعبية .

الطراز ، ولا في أن فارس روسيا المقدسة انما يبدأ معرفته بعروسه المقبلة بأن يضربها على جسمها الأبيض «بسوطه المجدول» ، «لأنه يجعل جنس النساء لينات كالحرير» . سأترك هذا كله ، لأننيك ألى الصورة الفنية للبطل الشاب ، «للجان بروميه» كما رسمه خيال الصقلي الساذج غير المتمدن . انظر اليه . ها هو «الجان بروميه» مقبلا ، «عليه معطف من السنجاب صنعه لنفسه ، وأتقن خياطته ، والحم غرزه وحزام من سبعة أدرج من الحرير عقده بأناقة على صدره ، وأصابه مخفية في كميه الطويلين النجميلين ، وياقته مرفوعة فوق رأسه تحجب وجهه المشرب بحمرة ، وكذلك رقبته الطويلة البيضاء وقد أمال قبعته الصغيرة على جنب ، ولبس في قدميه حذاء من الجلد البدع ، له طرفان مديبان مقوسان . وكعبان عاليان ، بحيث يمكنك أن تدير بيضة حول الطرفين ويمكن أن يطير عصفور بين الكعب والنعل . » وهذا الشاب الجميل يمشى بخطوات قصيرة سريعة مثل الكيبيادنا (١) - تشوريلو بلنكوفتش - الذي كان لمشيته المتصنعة تأثير عجيب أشبه بالدواء في قلوب العجائز والفتيات . وما زال نذل الفنادق عندنا يمشون هذه المشية ، فيخيل اليك حين يثبون بخطا صغيرة أن كل مفاصلهم محلولة . وهذه المشية هي زبدة الفندرة الروسية وزهرتها ، وغاية ما يتمناه الذوق الروسى . أنا لا أهزل . جمال الزكائب هذا مثل فننى . ما رأيك في هذا النموذج ؟ أتراه نموذجا طيبا ؟ أتراه يقدم مادة جيدة للرسم والنحت ؟ وتلك الحسناء التى تطلب لب البطل الشاب ، ذات «الوجه الأحمر كدم الارنب» ؟ أظنك غير مصغ الى .

وانتبه لتفينوف ، فانه لم يسمع في الحقيقة ما قاله بوتوجين . لقد كان يفكر تفكيرا مستمرا ملحا في أيرينا ، وفي لقائه الأخير بها . وبدأ يقول :

- معذرة ياسوزونت ايفانتش ، ولكنى سأتطفل عليك مرة أخرى بسؤالى السابق عن ... عن مدام راتميروف .
فطوى بوتوجين صحيفته ووضعها في جيبه .
- أتريد أن تعلم مرة أخرى كيف عرفتها ؟

(١) الكيبيادس قائد أثينى (٤٥٠ - ٤٠٤ ق م) اشتهر بجماله وثرائه وذكائه المفرط ، وقدرته الحربية النادرة ، ولكنه لم يكن يثبت على مبدأ ، وكان شديد الحول مع هواه ، فلم يطمئن اليه الايكتيون وانتهت حياته بالقتل .

- لا . ليس هذا ما أعنيه بالضبط . انى أود أن أسمع رأيك ..
فى الدور الذى كانت تلعبه فى بطرسبرج . ماذا كان ذلك الدور
فى الحقيقة ؟

- لا أدرى ماذا أقول لك يا جريجورى ميهالتش . لقد اتصلت
بمدم راتميروف اتصالا وثيقا ... غير أن ذلك الاتصال كان مصادفة
محضة ، ولم يدم طويلا . ولم أطلع قط على عالمها ، بل ظل ما
يحدث فيه مجهولا لدى . وقد سمعت شيئا من القيل والقال ،
ولكن الغيبة عندنا - كما تعلم - لاتسود الاوساط الديموقراطية
وحدها . ثم انى لم اكن أسأل . وأضاف بعد صمت قصير :
- ولكنى أراك مهتما بها .

- نعم . لقد تحدثت معها مرتين بكثير من الصراحة الا انى لا
أزال أتناول : أهى صادقة ؟ فخفض بوتوجين بصره :

- انها ككل امرأة عاطفية ، تصدق حين يفلها وجدانها . ثم
أن الكبرياء كثيرا ما تمنعها من الكذب .

- أهى متكبرة ؟ أغلب ظنى انها عنيدة .

- بل متكبرة كالشيطان . ولكن هذا لا يعيبها .

- يخيل الى انها تبالغ أحيانا ...

- ليس هذا بشئ أيضا . انها صادقة مع ذلك . وبعد فأين
تجد الحرص على الحقيقة ؟ ان خير نساء المجتمع هؤلاء عففات
حتى نخاع عظامهن .

- ألا تذكر ياسوزونت ايفانتش أنك سميت نفسك صديقتها ؟
ألم تجبرنى اجبارا على زيارتها !

- وماذا فى ذلك ؟ لقد سألتنى أن أجيء بك . فلم أر بأسا
بذلك . ثم انى صديقها حقا . انها لا تخلو من خير ، فهى كريمة ،
أعنى انها تسخو على غيرها بما لا تحتاج هى اليه . ولكنك بلا
ريب تعرفها قدر ما أعرفها على الأقل .

- كنت أعرف ايرينا بافلوفنا منذ عشر سنين . ولكن منذ
ذلك الحين ...

- آه ! ماذا تقول يا جريجورى ميهالتش ، اتظن أن أخلاق
الانسان تتغير ؟ كما يكون المرء فى المهد يكون فى اللحد . أم لعلك
(وهنا بالغ لتفينوف خفض رأسه) ... أم لعلك خائف أن تقع
فى شباكها ؟ لاشك أن هذا ... ولكن المرء لابد له بطبيعة الحال
أن يقع فى شباك امرأة ما .

— فضحك لتفينوف ضحكة مفتضبة :

— اتظن ذلك ؟

— لا مفر من هذا . الرجل ضعيف ، والمرأة قوية ، والمصادقة قادرة على كل شيء ، واحتمال حياة لا مسرة بها أمر عسير ، وسيان المرء نفسه جد مستحيل ... وفي أحد الجانبين الجمال والعطف والدفع والنور ، فكيف يستطيع المرء أن يقاوم ؟ أن المرء ليسرع اليها كما يسرع الطفل الى حاضنته . حقا أنه يجيء بعد ذلك البرد والظلام والفراغ ... في دورها الطبيعي . وينتهي الأمر بأن تصبح غريبا عن كل شيء . في أول الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تحب ، وفي آخر الأمر لا تفهم كيف يمكن أن تعيش .

نظر لتفينوف الى بوتوجين ، وراعه أنه لم ير من قبل رجلا يشبهه في وحدته ووحشته ... وشقائه . في هذه المرة لم يكن خجولا ولا جامدا ، بل كان يجلس مطاطيء الرأس شاحبا ، ورأسه على صدره ، ويداه على ركبتيه ، وهو لا يتحرك بل يبتسم ابتسامته الحزينة . وأحس لتفينوف بالأسى لذلك الرجل السوادوي القريب .

بدا لتفينوف يقول بصوت خفيض :

— لقد ذكرت إيرينا بافلوفنا في أثناء حديثها صديقة حميمة لها ، أظنها — ان لم تخنى الذاكرة — تسمى بيلسكى .. أو دولسكى . فرفع بوتوجين عينيه الصغيرتين الحزينتين ونظر الى لتفينوف . ثم عقب متثاقلا :

— آه ! لقد ذكرت ... حسنا ، وماذا عنها ؟

ثم أضاف وهو يتصنع التثاؤب :

— أن أن أعود الى مسكني للعشاء . في أمان الله . وتركت المقعد فجأة ومضى قبل أن يستطيع لتفينوف النطق بكلمة . فاستحال عطفه سخطا ، سخطا على نفسه طمعا ، فما كان التطفل من أخلاقه ، ولكنه أراد أن يعبر عن عطفه نحو بوتوجين ، فاذا به يلمزه لمزا غير رقيق . فعاد الى فندقه معذب الضمير .

وبعد قليل كان يقول لنفسه : « عفنة حتى نخاع عظامها ... ولكنها متكبرة كالشيطان ! هي — تلك المرأة التي تكاد تركع أمامي — متكبرة وليست عنيدة ؟ »

وجاؤل أن يطرد من رأسه صورة إيرينا فلم يفلح . ولهذا السبب نفسه تعمد الا يفكر في خطيئته . فقد شعر أن تلك

الصورة التى سكنت مخيلته لن تزول منها اليوم . فعزم على أن ينتظر انجلاء هذا « الأمر الغريب » دون أن يزيد نفسه قلقا .
لم يكن هذا الجلاء ليتأخر طويلا ، ولم يدرك لتفينوف أدنى شك فى أنه سيأتى بلا عناء ولا افتسار . هكذا كان يحدث نفسه ، بينما ظلت صورة إيرينا ماثلة أمامه ، وكل كلمة قالتها تعود - فى دورها - الى ذاكرته .

وأحضر اليه خادم الفندق بطاقة ، وكانت هى أيضا من إيرينا :
« ان لم يكن لديك ما عمله هذا المساء فأرجو أن تأتى . لن أنون وحيدة . سيكون لدى ضيوف . وستنظر من قرب الى أصحابنا ، الى مجتمعنا . انى شديدة الرغبة فى أن تطلع عليهم ، وأتوقع أنهم سيظهرون بكامل روعتهم . يجب أن تعلم أى جو ذلك اندى أنففس فيه . تعال . ستسعدنى رؤيتك ، أما انت فلن تشعر بالضجر (أخطأت إيرينا فى كتابة هذه الكلمة الروسية الأخيرة) . أثبت لى أن حديثنا اليوم قد جعل كل خصام بيننا مستحيلا الى الأبد . المخلصة . ا . »

لبس لتفينوف سترة سهرة ورباط عنق أبيض ، وانطلق الى مسكن إيرينا . وكان يردد فى نفسه وهو ذاهب : « لا ضرر... النظر اليهم ... لماذا لا أنظر اليهم مرة ؟ انه مشهد مسل . »
مع أن هؤلاء الناس أنفسهم أثاروا فيه منذ أيام قلائل شعورا آخر ، لقد أثاروا فيه السخط والكراهية .

سار بخطا حثيثة وقد أنزل قبعته على عينيه ، واغتصب ابتسامة على شفثيه ، بينما كان بمبايف جالسا أمام ندى فيبر يشير اليه من بعيد ليراه فوروشيلوف وبشتشالكن ، ويصيح بحماسة : « أترون هذا الرجل ؟ انه حجر ! انه صخر ! انه صوان ! »

وجد لتفينوف عند ايرينا ضيوفا غير قليلين . فكان ثلاثة من الجنرالات الذين رآهم يوم النزهة ، وهم الجنرال السمين ، والجنرال الحق ، والجنرال المتسامح جالسين الى منضدة للعب الورق في أحد الاركان ، يلعبون « البشكة » . وليس في لغة الانسان كلمات تعبر عن وقارهم وهم يرمون الورق ، ويدبرون الخطط ، ويؤلفون بين البسطوني والكومي . . . لاشك الآن في كونهم من رجال الدولة ! فهم يتركون للعوام - البورجوا - تلك العبارات والاشارات الصغيرة التي تتردد عادة في أثناء اللعب ، ولا ينطقون الا بما لا غنى عنه من المقاطع ، وان اباح الجنرال السمين لنفسه أن يقول بحرارة بين ريميتين : *ce satané a de pique* (١) وعرف لتفينوف من بين الزوار سيدات كن في النزهة ، ولكن كان هناك ايضا سيدات أخريات لم يرهن من قبل . وكانت احداهن عريقة في القدم حتى تبدو كل لحظة وكأنها توشك أن تنداعى . وكانت تهز كتفيها العاريتين السمراروين القاتمتين المخيفتين ، وتحجب فمها بمروحتها ، وترمق راتميروف بعينيها اللتين تماثلان عيون الموتى . وعنى بها راتميروف عناية كبيرة ، فقد كانت ذات مكانة عظيمة في المجتمع الراقى ، لأنها آخر من بقى من وصيفات الشرف للامبراطورة كاترين . وكانت الكونتس « س » ملكة الضباير تجلس عند النافذة متنكرة في زى راعية ، وقد احاط بها الشبان . وكان المليونير الشهير فينيكوف الجميل ظاهرا بينهم بمسلكه المترفع ، وجمجمته المسطحة ، وتعبير وجهه الوحشى الذى لا يرحم ، كأنه وجه خان من بخارى أو هليوجابال من روما (٢) . وكانت سيدة أخرى - هي أيضا كونته ، وتعرف تدليلا باسم « ايز » - تتحدث الى محضر أرواح شاحب اشقر الشعر مرسله ، وقد وقف بجانبها سيد شاحب مرسل الشعر أيضا ، لا يزال يضحك ضحك

(١) « هذا الشيطان معه الاسباتى ! »

(٢) امبراطور روماني ، حكم من ٢١٨ الى ٢٢٢ ، كان مشهورا بجماله وقسوته وعهره

من يعنى شيئاً ما . وكان هذا السيد أيضاً يؤمن بمخاطبة الارواح ، ولكنه جمع الى ذلك هواية التنبؤ ، فكان يستخرج من التلمود ورسائل القديس يوحنا نبوءات شتى عن أحداث عجيبة . ولم يتحقق حدث واحد من هذه الأحداث ، ولكن هذه الحقيقة ما كانت لتزعجه قط ، بل ظل مثابراً على تنبؤاته . وكان الموسيقى العبقري صاحب المواهب الفطرية ، الذى اثار فى بوتوجين ذلك الحنق الشديد ، جالسا الى البيان يضرب على أوتاره بغير اعتناء d'une main distraite (١) وهو يديم التحديق فيما حوله

تحديقاً زائفاً مبهماً .

وكانت إيرينا جالسة على أريكة بين الأمير كوكو ومدام س ، وهى سيدة اشتهرت قديماً بجمالها البارع وفكاقتها الحاضرة ، واستحالت منذ أزمان الى كماء ذابلة تفوح منها رائحة زيت الصيام وبخار السم . وحين وقع نظر إيرينا على لتفينوف احمر وجهها ونهضت من مقعدها ، واقبل عليها فصافحته بحرارة ، وكانت تلبس ثوباً من الحرير الرقيق الاسود يزينه وشى ذهبى لا يكاد يلحظ ، وكانت كتفها بيضاوين كاللؤلؤ ، أما وجهها الذى بدأ شاحباً تحت فيض حمرة الوقتية فكان يتألق بزهو الجمال ، بل بأكثر من الجمال . كان سرور خفى — يكاد يكون ساخراً — يلمع فى عينيها المسبلتين ، ويرتعش حول شفتيها ومارنها .

تقدم راتميروف من لتفينوف ، وبعد أن تبادل وإياه التحيات المألوفة ، دون أن يصحبها بتدله المألوف ، قدمه الى سيدتين أو ثلاث : الطلل البالى ، وملكة الضباير ، والكونتس ليز . وقد رحبن به ترحيباً جميلاً ، فقد كان لتفينوف — وان لم ينتم الى مجتمعهم — على حظ كبير من الوسامة ، واجتذبهن وجه الشاب المعبر ، الا انه لم يعرف كيف يستبقى هذا الاهتمام ، فقد كان قليل الخبرة بالمجتمعات ، وكان يشعر بشئ من الخجل ، وزاده اضطراباً أن الجنرال السمين ظل يحديق فيه تحديقاً ملحاً ، وكأنما كانت نظراته الثقيلة الثابتة تقول : « آها ! أهذا أنت ايها الثائر؟ ايها المفكر الحر ؟ اذن فقد جئت وقبعتك فى يدك لتقدم فروض الولاء ! » وانقذت إيرينا لتفينوف فسهلت له أن ينتقل الى ركن قرب الباب ، خلقها بقليل . فكانت تضطر كلما خاطبته أن تلتفت اليه ، فيبهره إنشاء جيدها الرائع ، ويعب من شذا شعرها

(١) « بيد ذاهلة » .

الخفى . ولم يفارق وجهها قط تعبير من الشكر رقيق عميق :
انه الشكر ولا شيء غيره ما كانت تنم به تلك البسمات والنظرات .
اضطر لتغينوف ان يعترف بذلك ، فتوهج فيه مثل هذا الشعور ،
وامتلا قلبه بالندم والسرور والخوف ...

وكانت تبدو في الوقت نفسه وكأنها تريد أن تسأله : « حسنا ،
ما رأيك فيهم ؟ » وكان هذا السؤال غير المنطوق يزداد وضوحا
في سمع لتغينوف كلما لفظ واحد من الاضياف كلمة سخيقة أو
أتى عملا مزريا . وقد حدث ذلك غير مرة في أثناء المساء . وذات
مرة لم تستطع ايرينا اخفاء شعورها ، فضحكت ضحكا عاليا .

وكانت الكونتس ليز تؤمن بالخرافات ، وتميل الى الفرائب .
فبعد أن شبت من الحديث مع محضر الأرواح عن هوم ، والموائد
التي تدور ، والاكورديون الذي يعزف بلا عازف ، وما الى ذلك ،
انتهت الى سؤاله : هل ثم حيوانات يؤثر فيها التنويم المغناطيسى ؟
فقال الأمير كوكو من بعد :

— هناك على كل حال حيوان واحد بهذا الوصف . أتعرفين
ملفانوفسكى ؟ لقد نوموه أمامى . وشد ما كان يشخر !

— أنت خبيث جدا يا أميرى . أتحدث عن الحيوانات
الحقيقية . je parle des bêtes (١) .

— Mais moi aussi, madame, je parle d'une bête ...

قال الروحاني :

— بعض الحيوانات الحقيقية يتفق له ذلك . جراد البحر مثلا .
فأعصابه شديدة الحساسية . ومن السهل جعله في حالة همود تام .
فدهشت الكونتس دهشة عظيمة :

— ماذا ! جراد البحر حقا ؟ أوه ! هذا ظريف جدا ! أود أن
أراه ! وأردفت تخاطب شابا ذا وجه حجرى كوجه دمية جديدة ،
وعليه ياقة حجرية أيضا (وكان يفخر بأنه قد ندى الوجه السالف
الذكر برشاش نياجرا والنيل النوبى ، وان كان لا يذكر شيئا من
أسفاره ، ولا يعنى بغير النكات الروسية ..)

قالت الكونتس تخاطب هذا الشاب :

— مسيو لوزهين . هل تسمح بأن تحضر جراد بحر سريعا ؟
فابتسم المسير لوزهين ابتسامة مصطنعة ، وسأل :

(١) « أتحدث عن الحيوانات » .

(٢) « وأنا أيضا يا سيدتى أتحدث عن حيوان » .

— أيجب أن يكون جراد البحر سريعا أم أحضره سريعا ؟

فلم تفهم الكونتة ما قاله . وكررت :

— Mais oui ، سريعا ، بحر ، une ceroville

فقاطعتهما الكونتس « س » بخشونة :

— آه ؟ ماذا ؟ جراد بحر ؟ جراد بحر ؟

وكانت ضجرة لغياب السيد فردييه ، وانكرت أن تغفل إيرينا دعوة هذا الفرنسي الذي لا نظير له في الظرف والخلابة . أما « الطلل البالي » فقد استبهم عليها كل شيء منذ زمن طويل ، ثم انها كانت صماء ، فاكثفت بهز رأسها .

— Oui, oui, vous allez voir. (١) أرجوك يا مسيولوزيهين ...

فانحنى الرحالة الشاب وذهب ثم عاد مسرعا . وكان يسير خلفه نادل يتسم ابتسامة عريضة ويحمل طبقا يرى عليه جراد بحر كبير أسود .
صاح لوزيهين :

— Voici madame (٢) الآن نستطيع أن نبدأ عملية جراد

البحر ! ها ها ها ! (الروس هم دائما أول من يضحك لنكاتهم) .
— هي هي هي !

بهذه الضحكة أدى الكونت كوكو واجبه متواضعا كوطنى مخلص يشجع كل المنتجات الوطنية (ونرجو القارئ ألا يدهش ويفضب . فمندا الذى يستطيع أن يزعم أنه لم يصفق لنكات أبرد من هذه ، وهو جالس على مقعد بمسرح الكسندر وقد أعداه الجو المحيط به ؟)
قالت الكونتس :

— Merci, merci. Allons, allons, monsieur Fox, montrez-nous ça (٣)

ووضع النادل الطبق على منضدة مستديرة . وجرت حركة خفيفة بين الضيوف ، وأشرأبت بعض الاعناق ، إلا أن الجنرالين الجالسين الى منضدة اللعب ظلوا محافظين على وقار جلستهم . ونفث الروحاني شعره ، وعبس ويسر ، ثم اقترب من المنضدة وأخذ يحرك يديه فى الهواء ، فتمطى جراد البحر ، ووقد على ظهره ، ورفع مخالفه . وكرر الروحاني حركاته وأسرع فيها ، وجراد البحر لا يزال يتمطن .

(١) « نعم - نعم ، سترون » .

(٢) « اليك يا سيدتى » .

(٣) « شكرا ، شكرا . هيا يا مسيو فوكس . أرونا » .

فسألت الكونتس :

— mais que doit-elle donc faire ? (١)

فأجابها المستر فوكس بفرنسية تغلب عليها نبرة أمريكية بينة :
— يجب أن يبقى ساكنا ويقف على ذيله .

وحرك أصابعه فوق الطبق بجهد تشنجي ، ولكن التنويم لم يفلح ، وظل جراد البحر يتحرك . وأعلن الروحاني أنه ليس في حال من التهيؤ النفسى تساعده على العمل . وابتعد عن المنضدة في سخط ظاهر . وأخذت الكونتة تعزیه مؤكدة أن مثل هذا الفشل يتفق أحيانا للمستر هوم نفسه ... وأمن الأمير كوكو على ماذكرته . وتسلسل أستاذ التلمود ورسائل القديس يوحنا الى المنضدة ، وأخذ يحرك أصابعه حركات سريعة عنيفة صوب جراد البحر ، مجربا حظه هو أيضا ، ولكن بدون فائدة ، إذ لم يظهر على جراد البحر أية علامة من علامات الهمود . عندئذ نودى النادل ، وأمر أن يأخذ جراد البحر ، ففعل ذلك وهو يتسم ابتسامته العريضة . وسمع ينفجر ضاحكا خارج الباب ... وتلا ذلك ضحك كثير في المطبخ *uber diese Russen* (٢) . وكان العبقري الذي علم نفسه قد

بدأ يعزف أثناء التجارب على جراد البحر ، ملتزما نغمات حزينة ، زعما بأن للموسيقى تأثيرا لا يمكن معرفته أو التكهّن به . فلما انتهت هذه التجارب عزف فالسه الذي لا يتغير ، وقوبل باستحسان عظيم طبعاً . ولذمت الفيرة الكونت هـ . الهاوى الذى لا يبارى (انظر الفصل الأول) ، فغنى أغنية صغيرة من تلحينه ، سرقها جملة من أوفنباخ . وكانت كل السيدات تقريبا يحركن رءوسهن يمينا ويسرة مع جوابها المرح *(quel oeuf, quel boeuf)* (٣) . وبلغ الطرب باحداهن أنها تنهدت برقة . وكانت الكلمة التى لا بد منها ! *charmant ! charman !* .. تتردد على كل شفة ، وتبادلت

ايرينا نظرة مع لتفينوف ، واختلج على شفيتها مرة أخرى ذلك المعنى الساخر المستتر ... ولكنه لم يلبث أن صرح بل مازجه شئ من التشفى عندما بدا للأمير كوكو ، ممثل مصالح النبلاء وراعيها ، أن يبسط آراءه لمحضر الأرواح ، فأعاد بالطبع عبارته المشهورة عن تززع ميداء الملكية ، وأردفها طعنا شديدا في

(١) « ولكن ماذا يجب أن يعمل ؟ » .

(٢) « من هؤلاء الروس » .

(٣) « أى بيضة ، أى بقرة » .

الديموقراطيين . وثار الدم الأمريكى فى عروق محضر الأرواح ،
وأخذ يجادل ، فجعل الأمير يصيح كعادته بأعلى صوته ، ويستعيض
عن كل نقاش بأن يكرر دون انقطاع Ces: absurde! Cela n'as pas
sens commun (١) وبدأ المليونير فينيكوف يقذف بألفاظ السباب ،
دون أن يبالي من نصيب ، وأصبح صوت التلمودى صفيرا ،
وصوت الكونتس « س » صريرا ... نعم ، لقد ثارت ضجة
متنافرة لا معنى لها كتلك التى ثارت عند جوباريوف ، ولم يكن ثمة
فارق الا انعدام البيرة ودخان التبغ ، وان الناس هنا أحسن ملبسا
ممن عند جوباريوف . وحاول راتميروف أن يعيد السلام (فقد أظهر
الجنرالات استياءهم ، وصاح بوريس : encore cette satané (٢)
politique ولكن جهوده لم تنجح . وضمن لها الفشل أن أحد
الحاضرين ، وكان موظفا كبيرا من ذلك الطراز المتسلل المتطفل ،
أخذ على نفسه أن يعرض le resumé en peu de mots (٣) -
فجعل يطن وينبح ، ويبدى ويعيد ، وكان عاجزا عاجزا بينا عن
سماع الاعتراضات الموجهة اليه أو فهمها ، قاصرا قصورا واضحا
عن ادراك لب « المسألة » la question ، فأنتهت وساطته
كما ينبغي أن تنتهى . وزاد الأمر سوءا ان إيرينا كانت تستثير
المتجادلين بخبث ، تفري بعضهم ببعض ، بينما هي تتبادل النظرات
والاشارات السريعة مع لتفينوف ... ولكنه كان جالسا كأنما
انقعد لسانه ، لا يسمع شيئا ، ولا ينتظر شيئا ، الا أن تلمع هاتان
العينان الرائعتان مرة أخرى، وأن يضىء عليه ذلك الوجه الشاحب
الرقيق العابت البديع مرة أخرى ... وانتهى الأمر بأن ضجرت
السيدات ورجون أن ينقطع الجدل ... وسأل راتميروف الهاوى
أن يعيد أغنيته ، وعزف العبقري العصامى قالسه مرة ثانية ...
بقى لتفينوف حتى جاوز الليل منتصفه ، وكان آخر من ودع
ودار الحديث فى أثناء الليل حول عدد من الموضوعات أخليت
بعناية من كل ما يثير الاهتمام . وبعد أن انتهى الجنرالات من
لعبتهم البهية ، اشتركوا فى الحديث بهاء . وسرعان ما ظهر نفوذ
هؤلاء الكبراء . فقد دار الحديث حول بنات الهوى الباريسييات
الشهيرات ، اللواتي بدا كل امرئ عليما بأسمائهن مواهبهن ،

(١) « هذا مضحك ! هذا غير معقول » .

(٢) « هذه السياسة اللعينة مرة أخرى ! » .

(٣) « الخلاصة فى قليل من الكلمات » .

وحول مسرحية ساردو الاخيرة ، وقصة لآبو، وباتى فى «الترافيانا»
واقترح أحد الحاضرين لعبة السكرتير au secretaire ، ولكن
اللعبة لم تنجح ، فقد كانت الاجابات فاترة ولم تخل احيانا من
غلطات نحوية ، وروى الجنرال السمين انه سئل مرة :
Qu'est-ce que l'amour ? (١) فأجاب :

Une colique remontée au coeur. (٢) . وانطلق يضحك
ضحكته الجافة ، فضربته الطلل البالى بمروحتها على يده ،
فسقطت قطعة من الجص عن جبينها لهذا الاندفاع . وبدأت
الحيزيون تذكر الامارات الصقلية ، وضرورة نشر الدعاية
الارثوذكسية فى وادى الدانوب ، ولكنها لم تلق جوابا فصبرت
وسكتت . وقد تحدثوا فى الحقيقة عن هوم أكثر مما تحدثوا عن
أى شىء سواء ، ووصفت ملكة الضباير كيف رأت هى نفسها
يدين تزحفان عليها ، وكيف وضعت خاتمها فى اصبع احدى اليدين .
لقد انتصرت ايرينا أى انتصار . وحتى لو أعار لتفينوف ما يقال
حوله اهتماما أكبر لما استطاع ان يلتقط من خلال ثرثرتهم المتقطعة
الخامدة جملة واحدة صادقة ، ولا فكرة واحدة ناصحة ، ولا حقيقة
واحدة طريفة . حتى صيحاتهم لم يكن فيها انفعال صادق ،
وهجومهم لم تكن فيه حدة صادقة . الا انك كنت تسمع بين الحين
والحين صرخة عداة تفلت من تحت قناع الحمية الوطنية ، أو
الكبرياء المتألهة ، معبرة عن خوفهم من الخسارة المالية ، وبضعة
أسماء لن تنساها الاجيال القادمة ينطقونها بين صرير الانياب...
ولا تجد تحت كل هذه الضوضاء وهذا الهراء قطرة واحدة من ماء
الحياة ! يا للعبث السخيف ، يا للتفاهات الممجوجة التى تمتص
كل تلك الرؤوس والقلوب ، لا فى ذلك المساء حده ، ولا حين
يجتمعون فقط ، بل فى نيتوتهم أيضا ، فى كل ساعة وفى كل يوم ،
فى طول وجودهم وعرضه ! ويا لجهلهم اذا قالوا كل ما لديهم !
ما أعجزهم عن فهم كل ما بنيت عليه الحياة الانسانية ، كل مابه
جمال الحياة !

وحين ودعت ايرينا لتفينوف شملت على يده مرة أخرى
وهمست معرضة :

— حسنا . أيكفيك ما رأيت ؟ انه بديع ، اليس كذلك ؟

(١) « ما الحب ؟ » .

(٢) « امسالك فى القلب » .

فلم يجبها ، ولم يزد على أن انحنى انحناء كبيرة صامتة .
وبقيت إيرينا وحيدة مع زوجها . وكانت تهم بالذهاب الى حجرة نومها حين استوقفها قائلاً وهو يستند على رف المدفأة ويدخن لفيفة :

— Je vous ai beaucoup admirée ce soir, madame, vous vous êtes parfaitement moquée de nous tous (١)

فأجابت دون مبالاة :

(٢) Pas plus cette fois que les autres.

فسألها راتميروف :

— ماذا أفهم مما تقولين ؟

— لك أن تفهم ما تريد .

— مم .. C'est clair (٣) .

ونفض راتميروف رماد الليفة بطرف ظفر خنصره الطويل ، في عناية أشبه بحركات القط . ومضى يقول :

— على فكرة ! صديقك الجديد هذا — ما اسمه ؟ — السيد لتفينوف ... لعله معروف بذكائه الشديد ؟

والتفت إيرينا مسرعة عندما سمعت اسم لتفينوف :

— ما الذى تعنيه ؟

فابتسم الجنرال :

— إنه يلتزم الصمت ... وواضح أنه يخشى أن يتورط اذا تكلم .

فابتسمت إيرينا أيضا . ولكن ابتسامتها لم تكن كابتسامة زوجها .

— الصمت خير من الكلام ... كما يتكلم بعض الناس .

فأجاب راتميروف وهو يتظاهر بالاستسلام :

— Attrapé ! ولكنه — دون مزاح — ذو وجه جذاب .

وجه يبدو عليه الجد ... وسلوكه عامة ... أجل — وأصاح

الجنرال رباط عنقه ، وألقى برأسه الى الخلف متأملاً شاربه —

اخاله جمهوريا كصديقك الآخر بوتوجين . وهذا أيضا أحد

أصدقائك اليكم الاذكياء .

(١) « لقد أعجبت بك الليلة كثيرا يا سيدتى — انك سخرت منا جميعا سخيرة

بارعة » .

(٢) « لم أكن أكثر سخيرة من المرات الأخر » .

(٣) « هذا جلى » .

(٤) « وقعت ! » .

وارتفع حاجبا ايرينا ببطء فوق عينيها الشاخصتين الصافيتين،
وزمت شفتيها زمة خفيفة ، وقالت فى عطف ساخر :
- ما غرضك من هذا القول يا فاليريان فلاديميروفتش ؟ انك
تطيش سهامك ... لسنا فى روسيا ، ولا أحد هنا يسمعك .
وكأنما لسع راتميروف . فبدأ يقول وقد انقلب صوته عاليا
خشنا :

- ليس هذا رأى فحسب يا ايرينا بافلوفنا . غيرى يلاحظون
أيضا ان لهذا السيد مظهر المتأمرين .
- حقا ؟ ومن هؤلاء ؟
- حسنا ... بوريس مثلا ...
- ماذا ؟ أهذا أيضا له رأى ؟
وهزت ايرينا كتفيها كأنما لدغتها نسمة باردة ، وأمرت أصابعها
فى ببطء عليهما .
- هذا أيضا ؟ نعم هذا أيضا . اسمح لى يا ايرينا بافلوفنا
أن لاحظ أنك غاضبة ، وتعلمين أن القضب ...
- أنا غاضبة ، أوه ، له ؟
- لا أدرى . لعلك استأثت مما قلته عن ...
فكرت ايرينا مستفهمة :
- عن ... دعك من السخرية ولا تطل ، فأنا متعبة ونعسانة .
وتناولت شمعة من فوق المائدة :
- عن ... ؟
- حسنا . عن هذا السيد لتفينوف ، فلا شك الآن أنك مهتمة
به اهتماما كبيرا .
فرفعت ايرينا اليد التى كانت تمسك بها حامل الشمعة حتى
وازى اللهب وجه زوجها ، ونظرت فى عينيه مليا وكأنها تتعجب ،
وفجأة انفجرت ضاحكة .
فسأل راتميروف متجهما :
- ماذا ؟

واستمرت ايرينا تضحك . فكرر : « حسنا ، ما الأمر؟ » ودق
الأرض بقدمه . كان يحس أنه طعن واهين ، وكان مع ذلك مأخوذا
بجمال هذه المرأة التى تواجهه فى هذه الخفة والجسارة ... لقد
كانت تعذبه . رآها كلها ، كل مفاتيها ، حتى ظل أطرافها الوردى
على أطراف أناملها المرفهة وهى قابضة على برنز الحامل القاتم .

أجل ، حتى هذا لم يفته ، بينما كانت الاهانة تنفذ في قلبه عميقة عميقة ، وايرينا لا تزال تضحك .
وأخيرا نطقت بهذه الكلمات :
- ماذا ؟ أنت ؟ أنت تفار ؟

وأولت الزوج ظهرها وخرجت من الحجرة ، وسمع صوتها من وراء الباب « أنه يفار ! » وأتاه مرة أخرى رنين ضحكتها .
لقد أتبعها راتميروف عينيه في شروء ، ومرة أخرى لم يستطع إلا أن يرى فتنة قوامها وحركاتها ، فحطم لفيفته على رخامة المدفأة بضربة عنيفة وألقاها بعيدا ، وشحب خداه فجأة ، ومرت على أسفل وجهه رعدة متشنجة ، وجالت عيناه حول أرض الحجرة تحمقان في غباء حيواني وكأنهما تبحثان عن شيء ... لقد اختفت من وجهه كل مظاهر الرقة ، ولابد أن هذا كان منظره حين جلد فلاحى روسيا البيضاء .

وكان لتفينوف قد عاد الى مسكنه وظل جالسا الى المنضدة بلا حراك ورأسه بين كفيه . وأخيرا نهض وفتح صندوقا وأخرج منه حافظة استل من أحد جيوبها الداخلية صورة شمسية لتاتيانا . وشخص اليه وجهها بحزن وقد بدا قبيحا هرما كما تبدو الصورة الشمسية عادة . كانت خطيبة لتفينوف فتاة روسية صميمة شقراء اقرب الى الامتلاء ، في ملامح وجهها بعض الغلظ ، ولكن لها عيني عسليتين صافيتين تفيضان طيبة وحنوا ، وجبينها أبيض نقيا كأنما استقر عليه شعاع من الشمس . ولبت لتفينوف برهة طويلة لا يحول نظره عن الصورة ، ثم أزاها برفق وأمسك رأسه بيديه مرة أخرى ، وأخيرا همس :

- كل شيء قد انتهى يا إيرينا ! إيرينا !
وفي هذه اللحظة وحدها أدرك أنه كان يحبها حبا لا يعرف معنى العقل ، وأنه أحبها منذ ذلك اليوم الذى لقيها فيه للمرة الاولى عند القلعة القديمة ، وأنه لم ينس حبها قط . ومع هذا فكأن كان يدهش ويستنكر لو قيل له ذلك قبل ساعات قليلة !
« ولكن تانيا ، تانيا ! رباه ! تانيا ، تانيا ! » هكذا راح يردد في ندم ، بينما تمثل له شبح إيرينا في ردائها الاسود الذى يشبه ثوب الحداد ، وقد تألق على وجهها المرمى هدوء النصر .

لم يتم لتفينوف ليلته ، ولم يخلع ثيابه ، وكان شديد الهم ،
فقد كان أمينا صريحا ، يعرف سلطان الفهود ، وقداسة الواجب ،
ويخجل أن يغالط نفسه فينكر ضعفه وسقوطه . واستحوذ عليه
أول الأمر نوع من البلادة ، فاستسلم لشعور مبهم لم يكده
يستوضحه . ثم تملكه الفزع حين فكر أن مستقبله الذي كان ينقاد
له قد عاد فانزلق الى الظلام ، وإن بيته الركين الذي لم يكده
يرفعه قد أخذ بتداعى من حوله ... وراح يلوم نفسه لوما عنيفا ،
ولكنه ما لبث أن تماسك ، وقال : « هذا ضعف منى . ليس
هذا وقت اللوم والندم بل وقت العمل . تانيا هي خطيبتى ، وهى
واثقة بحبى وشرفى ، وقد ارتبطنا مدى الحياة ، ولا يمكن أن
نفصل ، بل يجب ألا نفصل . » وتمثل كل فضائل تانيا ،
وأطنب فيها ، وأحصاها بعقله ، وهو يحاول أن يوقظ فى نفسه
الركة والحنان . وفكر مرة أخرى : « لم يبق لى ألا شىء واحد :
أن أرحل من فورى ولا انتظر عودتها ، أن أسرع الى لقائها .
وقد أتألم ، وقد أكون شقيا مع تانيا - وإن كنت استبعد هذا -
ولكننى على كل حال يجب ألا أفكر فيه . يجب أن أؤدى واجبى
ولو مت فى سبيله ! » فهمس صوت آخر فى أعماق نفسه :
« ولكن لا يجمل بك أن تخدعها ، ليس من حقك أن تخفى عنها
اختلاف مشاعرك . ألا يجوز أن تأبى الزواج منك حين تعلم أنك
تحب امرأة أخرى ؟ » فيجيب : « كلام فارغ ! كلام فارغ ! ما
هذه الا سفسطة ، مغالطة مخجلة ، فضيلة كاذبة . لا يحق لى أن
أحنت فى كلمتى ، هذا ما لاشك فيه . حسنا ، اذن فلأرحل من
هنا دون أن أرى الأخرى ... »

ولكن قلبه خفق خفقا ألما حين قال ذلك ، واعتراه برد ،
وأخذته رعدة ، واصطكت أسنانه بضعف . وتمدد وتشاءب كأنه
فى حمى . ولم يصر على فكرته الأخيرة بل كتبها وراغ منها . انما
راح يتعجب ويتساءل كيف استطاع مرة أخرى أن يحب تلك

المخلوقة الدنيوية المنحلة ، التي كان يجد كل ماحولها بغيضا منفرا . وحاول أن يواجه نفسه بهذا السؤال : « ولكن حدثني : أتحبها حقا ؟ » فما استطاع الا أن يطرد السؤال على الفور بإشارة من يده . وكان لا يزال يتعجب ويتساءل بينما تصعد أمامه من مثل الضباب الناعم العبق صورة ساحرة ، وترتفع أهداب طويلة حريرية ، فتضرب العينان الرائعتان في قلبه بنعومة نافذة ، ويرن الصوت رنينه الحلو ، وتموج الكفان المتألفتان ، ككتفى ملكة ، بأنفاس الفتوة والشهوة الناعسة .

حينما اقترب الصباح كان قد انعقد في عقل لتفينوف عزم . لقد قرر أن يرحل في ذلك اليوم ليقابل تاتيانا ، وأن يرى إيرينا للمرة الأخيرة ويخبرها بالحقيقة كلها ، اذا لم يكن من ذلك بد ، ثم يفارقها فراق الأبد .

فرتب أمتعته وحزم حقائبه ، وانتظر حتى الساعة الثانية عشرة ، ثم ذهب إليها . ولكنه حين رأى نوافذها يستأثرها المسبلة خانه قلبه . . . ولم يستطع أن يستجمع شجاعته ليدخل الفندق . فذرع شارع لختنتالر مرة أو مرتين ذهابا وجيئة ، وفجأة سمع صوتا ساخرا ينادى من فوق عربة خفيفة مسرعة : « أهلا وسهلا بالسيد لتفينوف ! » ورفع لتفينوف عينيه ورأى الجنرال راتميروف جالسا بجانب الأمير م . ، وهو رياضي شهير مشغوف بالعربات والجياد الإنجليزية . وكان الأمير يقود العربة ، والجنرال منحنيا الى الأمام وقد مال الى ناحية ، وهو يبدى نواجله مبتسما ، ويرفع قبعته عالية فوق رأسه . وانحنى له لتفينوف ، وهرع من فوره الى مسكن إيرينا وكأنه يطيع أمرا خفيا .

كانت هناك وبعث باسمه ، فأدخل على الفور . ووجدتها واقفة وسط الغرفة في رداء صباحي واسع الكمين ، ووجهها الشاحب كالبارحة ، في غير نضرة البارحة ، يبدو عليه التعب والإعياء . وأستقبلت إيرينا زائرها ببسمة واثية زادت ذلك التعبير وضوحا ، ومدت اليه يدها في ود مازجه شرود .

بدأت تقول بصوت شاك وهي تفوص في كرسي منخفض :
— أشكرك على مجيئك . لست بخير هذا الصباح ، فقد قضيت ليلة سيئة . حسنا ، ما قولك فيما رأيته البارحة ، ألم أكن على صواب ؟

فجلس لتفينوف وبدأ حديثه قائلا :
- لقد جئت اليك يا ايرينا بافلوفنا ...
فاعتدلت في جلستها فجأة ، والتفتت اليه ، وأثبتته عيناها ،
ثم قالت في دهشة :
- مابك ؟ انك شاحب كالاموات . انك مريض . ماذا بك ؟
فاضطرب لتفينوف :
- ماذا بى ؟
- هل لفلك خبر سيىء ؟ هل حدث مكروه ؟ أخبرنى . أخبرنى .
ونظر لتفينوف بدوره الى ايرينا . وأخيرا قال في جهد :
- لم تبلغنى أخبار سيئة . ولكن مكروها حدث . مكروه
فظيع .. وهو ما جاء بى اليك .
- مكروه ؟ ما هو ؟
- هو ... أن ...
وحاول لتفينوف أن يستمر في حديثه ... فلم يستطع . ولم
يزد على أن عقد يديه حتى طقطقت أصابعه . وكانت ايرينا منحنية
الى الامام وكأنها استحالت حجرا .
وأخيرا ندت من صدر لتفينوف أنة خافته :
- أوه ! انى أحبك !
والتفت كأنه يريد أن يخفى وجهه .
- ماذا ؟ أنت ياجريجورى ميهالتش ...
ولم تستطع ايرينا أن تتم جملتها أيضا ، ووضعت كلتا يديها
على عينيها .
- أنت ... تحبنى ؟
فردد في مرارة وهو يشيح بوجهه قليلا قليلا :
- أجل ... أجل ... أجل ..
كان كل شيء في الغرفة ساكنا ، وثمة فراشة شاردة ترفرف
بجناحيها ، وتجاهد بين الستارة والنافذة .
واستأنف لتفينوف الحديث قائلا :
- هذا يا ايرينا بافلوفنا ... هذا هو المكروه الذى ... حل
بى ، والذى كان يجب أن اتوقعه وأحاذره ، لولا أنه دهمنى فجأة
كما حدث في أيام موسكو . كأن القدر يحلو له أن يضطربنى مرة
أخرى الى مقاساة العذاب بسببك . عذاب ما كنت أظن أنه
يتكرر ... كان العقل يدعونى الى المقاومة ... وحاولت أن أقاوم .

ولكن لا مفر من القدر ، وأنا أخبرك بكل هذا لأقطع فوراً هذه ... وأضاف بمزيد من الفضب والخجل - هذه المهزلة الاليمة .
ثم عاد لتفينوف الى الصمت ، وكانت الفراشة لا تزال تجاهد وترقرف . ولم ترفع ايرينا يديها عن وجهها ، وجاء همسها من تحت هاتين اليدين البضاوين كأنما خلتا من الدم :
- أواثق أنت أنك لست مخطئاً ؟
فأجاب لتفينوف بصوت باهت :

- لست مخطئاً . أنا أحبك ، ومثل هذا الحب لم أحبيه غيرك قط . لا أريد أن ألومك ، هذه حماقة ، ولا أن أكرر لك أنك لو كنت عاملتني معاملة أخرى لما جرى من هذا شيء ... حقاً ، اننى أنا وحدى اللوم ، جئت على ثقتي بنفسى ، هذا هو الجزاء الذى استحقته . وما كان لك أن تقدرى ما سيكون ... لم يخطر ببالك طبعاً أنه كان أسلم لى لو لم تشعري أنك أسأت الى - كما تتخيلين - ، ولو لم تحاولى الإصلاح ... ولكن ما كان كان . اننى لم أرد الا أن أوضح لك موقفى ، ولا حاجة بنا أن نزيد الأمر قسوة . على أنه لن يكون بيننا شيء من سوء التفاهم كما تسمينه ، وسوف تخفف صراحة اعترافى مما لابد أن تحسبه من اذى .

وكان لتفينوف يتكلم دون أن يرفع عينيه . على أنه لو نظر الى ايرينا لما رأى شيئاً مما يمر على وجهها ، فقد أبقت يديها على عينيها كما كانتا . ولكن ما مر على وجهها ربما كان خليقاً أن يذهل لتفينوف ، لقد ارتسم عليه الخوف والسرور ونوع من البهر اللذيد ، ولعلت عيناها لمعاناً خفيفاً تحت أجفانها المسبلة ، وكانت أنفاسها البطيئة المضطربة برداً على شفثيها المنفرجتين الماسوعتين . صمت لتفينوف ينتظر جواباً أو نائمة ... ولا شيء . فبدأ يقول مرة أخرى :

- لم يبق الا حل واحد ، وهو أن أرحل . وقد جئت لأودعك . فألقت ايرينا يديها ببطء على ركبتيها ، وبدأت تقول :
- ولكنى أذكر يا جريجورى ميهالتش أن .. الشخص الذى حدثتنى عنه سيأتى الى هنا ؟ ألسنت تنتظرها ؟
- أجل . ولكنى ساكتب اليها ... لنتنظر فى بعض الطريق ... فى هيدلبرج مثلاً .

- آه ! هيدلبرج ... أجل ... بلدة جميلة . ولكن هذا كله

ينقض حططك بلا شك . أنت على ثقة من أنك لا تبالغ التقدير
يا جريجورى ميهالتش ، et que ce n'est pas une fausse alarme (١)
كانت ايرينا تتكلم بهدوء يوشك أن يكون برودا ، وهى تتوقف
وقفات قصيرة ، وتنظر نحو النافذة . ولم يجب لتفينوف على
سؤالها الاخير . فاستمرت تقول :
- ولكن لماذا تتحدث عن الاذى ؟ انى لست متأذية ... كلا!
واذا كان أحـدنا ملوما فلست أنت الملوم على كل حال ، لست
الملوم وحدك ... تذكر محاوراتنا الاخيرة ، وسوف نتأكد أنك
لست المـلوم .

وتمتم لتفينوف بين أسنانه :
- انى لم أشك قط فى كرمك ، ولكن أود أن أعلم هل
تقريننى على عزمى ؟
- على الرحيل ؟
- أجل .

واستمرت ايرينا تنظر بعيدا .
- لقد بدا لى أولا أن فى قرارك شيئا من العجلة ، ولكنى
فكرت الآن فيما قلته ... واذا لم تكن مخطئا فأظن أنه ينبغى أن
ترحل . هذا خير ... لكينا .
وكان صوت ايرينا قد أخذ ينخفض وينخفض ، وكلماتها تبطىء
وتبطىء . وبدأ لتفينوف يقول :

- حقا ... قد يلاحظ الجنرال راتميروف .
ونكست ايرينا بصرها مرة أخرى ، وأرتعش على شفيتها بريق
غريب ... لحظة واختفى . وقاطعته قائلة :
- لا . أنك لم تفهمنى . لم اكن أفكر فى زوجى . لم أفكر
فيه ؟ ليس هناك شيء يلاحظ . ولكن أفكر أن الفراق ضرورى
لكاينا .

والتقط لتفينوف قبعته التى سقطت على الارض وفكر : « لقد
انتهى كل شيء . يجب أن أذهب ... » ثم قال بصوت مرتفع :
- اذن لم يبق لى الا أن أقول لك وداعا يا ايرينا بافلوفنا -
وفجأة احس بوخزة وكأنه يتأهب لينطق بحكم الاعدام على نفسه -
لم يبق لى الا أن أمل الا تذكرينى بشر ، و ... واننا لو ...
فقاطعته ايرينا مرة أخرى :

(١) « وان هذه ليست صيحة كاذبة ؟ » .

- صبرا يا جريجورى ميهالتش . لا تودعنى الآن . هذه مفاجأة غير مستحبة .
 وبدا أن شيئاً فى لتفينوف يوشك أن يضعف ، ولكن الألم المحرق انفجر فى قلبه مرة أخرى بعنف مضاعف . صاح :
 - ولكنى لا أستطيع البقاء ! لم ابقى ؟ لم أطيل هذا العذاب ؟
 فرددت ايرينا :
 - لا تودعنى الآن . يجب أن أراك ثانية . فراق أخرس آخر كفراقنا فى موسكو ؟ كلا ، انى لا أريد ذلك . تستطيع أن تذهب الآن . ولكن يجب أن تعدنى - تعدنى بشرفك أنك لن تذهب إلا بعد أن تزورنى مرة أخرى .
 - أتريدى هذا ؟
 - انى مصرة عليه . اذا ذهبت دون أن تودعنى فلن أسامحك .
 - تسمع ! لن أسامحك أبدا !
 ثم أردفت وكأنها تخاطب نفسها :
 - غريب ! لا أستطيع أن أقنع نفسى انى فى بادن... لا أحس إلا أننى فى موسكو ... اذهب الآن !
 فتهض لتفينوف قائلاً :
 - ايرينا بافلوفنا ! هاتى يدك !
 فهزت ايرينا رأسها :
 - قلت لك لا أريد أن أودعك ...
 - لا أريدها لوداع ...
 وكادت ايرينا تمد يدها ، ولكنها نظرت الى لتفينوف للمرة الاولى منذ اعترافه ، فسحبته وهى تهمس :
 - لا لا . لن أعطيك يدى . لا ... لا . يجب أن تذهب .
 فانحنى لتفينوف وخرج . ولم يستطع أن يعرف لم ابت عليه ايرينا هذه المصافحة الاخيرة ... لم يستطع أن يعرف ماذا كانت تخاف .
 ذهب وغاصت ايرينا فى كرسيها ثانية ، وغطت وجهها ثانية .

لم يعد لتفينوف الى مسكنه ، بل ذهب الى الجبال ، وانشى الى خميلة ، فانبطح على الارض ، وبقي هناك ساعة . لم يكن يخاصم نفسه ، ولم يكن يبكي ، بل كان كمن يغيب عن وعيه في بطاء مؤلم . لم يعرف قط مثل هذا الشعور . لقد كان فراغا مرهقا يأكل نفسه أكلا : فراغ في نفسه وخارج نفسه ، في كل ما يحيط به . فلم يفكر في ايرينا ولا في تاتيانا ، انما أحس بشيء واحد : أحس أن الضربة وقعت فانقطعت الحياة كالجبل ، وحملته قوة باردة غريبة . كان يخيل اليه أحيانا أن اعصارا انقض عليه ، وكان يحس عصفه وخفق أجنحته السوداء . ولكن عزمه لم يتزعزع . البقاء في بادن ... هذا ما لا يمكن التفكير فيه . لقد رحل بالخاطر فعلا ، وأنه لجالس في عربة صاخبة دخنة ، يسرع ويسرع في البعد الاخرس الميت ونهض أخيرا ، واعتمد براسه على شجرة ، ولبث دون حراك ، الا أنه مد يده بلا وعى الى العقدة العليا من شجرة سرخس ، وراح يهزها هزات متناغمة .

ونبهه من همومه وقع أقدام مقتربة : كان خطابان ينحدران في شعب الجبل وعلى ظهريهما زكيتان كبيرتان . فهمس لتفينوف : « حان الوقت ! » وتبع الحطابين الى المدينة ، ومال الى المحطة ، فأرسل برقية الى كابيتولين ماركونا عممة تاتيانا . وفي هذه البرقية أخبرها أنه راحل من فوره ، وعين الملتقى في فندق شرادر بهيرلبرج .

كان يقول لنفسه : « أسرع . أسرع بانتهاء الأمر . لا فائدة من تأجيله الى القد . » ودخل بهو القطار ، وحدق بتطلع بليد في وجوه بعض المقارمين ، ورأى عن بعد منظرا خلفا لرأس بنداسوف الكريه ، ورأى وجه بشتشالكن الواضح وبعد أن انتظر قليلا في بهو الأعمدة ذهب الى ايرينا وقد استجمع عزمه . لم يدفعه اليها دافع فجائي قاهر ، ولكنه حين قرر أن يرحل قرر أيضا أن يبر بوعده ، وأن يذهب ليراها مرة أخرى . ولم يلحظه البواب حين

دخل ، ولم يصادفه أحد على السلم ، ولم يطرق الباب بل دفعه بحركه آليه ودخل .

كانت إيرينا جالسة على نفس الكرسي ، بنفس الثوب ، في نفس الوضع كما تركها منذ ثلاث ساعات ... وكان جليا أنها لم تغادر مكانها ، ولم تأت بحركة طوال ذلك الوقت . رفعت رأسها ببطء ، فلما رأت لتفينوف ارتعد جسمها كله ، وقبضت على ذراع الكرسي ، وهمست :

— أفزعتنى .

ونظر اليها لتفينوف بدهشة صامتة ، فقد راعه تعبير وجهها وانطفاء عينيها .

وابتسمت إيرينا ابتسامة مفتضبة ، وسوت شعرها المشعث :
— لا ترع ... أنا لا أدري في الحقيقة ... لابد أنني نمت هنا . فقال لتفينوف :

— عفوا يا إيرينا بافلوفنا . لقد دخلت دون استئذان ... أردت أن اعمل مابدا لك أن تطلبه مني . وبما أنني راحل اليوم ...
— اليوم ؟ ولكنني أظنك قلت أنك ستكتب خطابا ...
— لقد أرسلت برفية .

— آه ! رأيت أن تسرع . ومتى تذهب ؟ أعنى في أية ساعة ؟
— الساعة السابعة مساء .

— آه ! الساعة السابعة ! وقد جئت تودعني ؟

— نعم يا إيرينا بافلوفنا . جئت أودعك .

وصمتت إيرينا برهة .

— يجب على أن أشكرك يا جريجورى ميهالتش . لعل قدومك الى هنا لم يكن هينا عليك .

— نعم يا إيرينا بافلوفنا . انه لم يكن هينا .

— الحياة كلها غير هينة يا جريجورى ميهالتش . ألا ترى ذلك ؟

— هذا يتوقف على أمور كثيرة يا إيرينا بافلوفنا .

وصمتت إيرينا مرة أخرى ، وكأنها غرقت في التفكير ، وأخيرا قالت :

— أنت أثبت صدق عاطفتك نحوى بقدومك . شكرا لك .

أننى أوافقك تماما على قرارك بانهاء الأمر كله في أقرب وقت ... لأن كل تأجيل ... لأننى أنا ... حتى أنا التى انهمتنى بأنى ملاعبة ، وسميتنى ممثلة ... أظن هذه هى الكلمة التى قلتها ؟

ونفضت ايرينا مسرعة ، وجلست على كرسي آخر ، وانحنى الى الامام وضغطت وجهها وذراعيها على حافة المنضدة . وهبست بين اصابعها المطبقة :
- لاني احبك ...

وترنح لتفينوف كأن احدا صكه على صدره . وحولت ايرينا راسها عنه بحزن ، كأنها تريد بدورها أن تخفى وجهها عنه ، ووضعت على المنضدة .

- أجل . انى احبك ... انى احبك ... وانت تعلم ذلك .
قال لتفينوف أخيراً :
- أنا ؟ أنا أعلم ؟ أنا ؟
فمضت ايرينا تقول :-

- حسناً . الآن ترى انك يجب ان تذهب حقاً ، وأن التأجيل محال . لا أنا ولا أنت نستطيع ذلك . انه خطر ، انه مروع ... وداعاً ! - وأضافت باندفاع وهى تنهض عن كرسيها : وداعاً ! وسارت بضع خطوات نحو باب مخرجها ، ووضعت يدها وراء ظهرها ، وحركتها حركة سريعة فى الهواء وكأنها تريد أن تلاقى يد لتفينوف وتضغط عليها ، ولكنه وقف عن بعد كعمود من الحجر فقالت مرة أخرى :
- وداعاً . انسى .

وذهبت مسرعة دون أن تلتفت .
بقى لتفينوف وحيداً ، ولكنه لم يستطع أن يثوب الى نفسه . وأخيراً جمع حواسه وذهب الى باب المخرج ، ونطق باسم ايرينا مرة ومرة ومرة ... وكانت يده على القفل ... وارتفع من درج الفندق صوت راتميروف الاغن ... فجذب لتفينوف قبعته على عينيه . وخرج الى الدرج . كان الجنرال الانيق واقفاً أمام مدخل البواب السويسرى ، يبين له بالمائية ركيكة أنه يريد استئجار عربة طول اليوم . فلما وقع نظره على لتفينوف عاد فرفع قبعته عالية فوق رأسه ، و « رجب » به ترحيباً شديداً . وكان جلياً أنه يهزأ به ، ولكن لتفينوف كان فى شغل عنه ، فلم يكدر يرد تحيته ، ومضى الى مسكنه حيث وقف أمام حقيقته المعلقة ، ورأسه يدور ، وقلبه يتذبذب كوتر قيثارة . ماذا يعمل الآن؟ وهل كان يستطيع أن يتوقع ذلك ؟
أجل ، أنه كان يتوقع ذلك وان لم يستطع تصديقه . لقد

فاجأه كالصاعقة ، ولكنه كان يتوقعه ، ولم يجسر على الاعتراف به لنفسه . ومع ذلك فانه الآن غير واثق من شيء . كان كل شيء فيه يغلي ويضطرب . وانقطع حبل افكاره . وتذكر موسكو، وتذكر كيف فاجأه « ذلك » من قبل كما تفاجأ العاصفة السفين . وانبهرت أنفاسه ، وعربدت في قلبه نشوة يائسة مضنية كادت تخنقه . لا شيء في العالم كان يساوى عنده تلك الكلمات التي نطقت بها إيرينا ... ولكن ماذا بعدها؟ ان تلك الكلمات ماكانت برغم كل هذا لتغير عزمه ، بل ظل ثابتا كما كان راسخا كأنه المرساة . لقد انقطع خيط افكاره .. نعم ، ولكن بقيت له ارادته واقتاد نفسه كما لو كانت رجلا آخر يعتمد عليه . فطلب خادم الفندق ، وسأله عن حسابيه ، وحجز مكانا في سيارة المساء . لقد تعمد أن يقطع على نفسه كل طريق للهرب ، وصاح : « ولو مت في سبيله ! » كما صاح في الليلة السابقة المسهدة ، وكأنما أعجبت به تلك العبارة .. وراح يردد وهو يقبل ويدبر في غرفته : « ولو مت في سبيله ! » ولكن كلمات إيرينا كانت تعود مرة بعد مرة فتفزو قلبه وتحرقه بمثل النار ، فيغمض عينيه بلا ارادة ، ويحبس أنفاسه ، ويقول لنفسه : « لا احسبك تحب مرثين . حياة أخرى تأتي اليك ، وتدعها تمتزج بحياتك ، فلا تخلص ابدا من ذلك السم : ولا تحطم ابدا تلك القيود ! أجل ، ولكن ما معنى هذا ؟ السعادة ؟.. أهى ممكنة ؟ أنت تحبها ، فلنسلم بذلك ... وهى ... هى تحبك .. »

ولكنه هنا يعود فيستجمع قوته . وكما يرى المدليج في الليل البهيم ضوءا امامه فلا يحول عينيه عنه لحظة واحدة حتى لا يضل الطريق ، كذلك وجه لتفينوف قوة انتباهه كلها نحو نقطة واحدة ، نحو غرض واحد : ان يصل الى خطيبته ، وليس الى خطيبته بالدقة (فقد كان يحاول الا يفكر فيها) بل الى غرفة في فندق هيدلبرج . ذلك ما كان يلوح له كالنور الهادى . أما ما يكون من بعد فأم يكن يعلمه ، ولا يريد أن يعلمه ... كان هناك شيء واحد لا يرتقى اليه الشك : انه لن يعود . وردد للمرة العاشرة : « ولو مت ! » ونظر الى ساعته . السادسة والرابع ! ما اطول الانتظار! وذرع الغرفة مرة أخرى مقبلا ومدبرا . كانت الشمس على وشك الغيب ، والسماء حمراء قانية فوق الاشجار ، والشفق الوردى يسيل من النوافذ الضيقة الى حجرته المغطشة .

وفجأة خيل للتفينوف أن الباب قد فتح وراءه في هدوء وسرعة، وأغلق في هدوء وسرعة كذلك ... فالتفت ، وإذا بامرأة في شملة سوداء تقف عند الباب .. فصاح وهو يصفق بيديه في ذهول :
- إيرينا !

فرفعت رأسها ، وهوت على صدره .
وبعد ساعتين كان جالسا على أريكة في غرفته ، وقد انزوى صندوقه في ركن مفتوحا فارغا ، وعلى المائدة بين مائثر عليها من الاشياء رسالة من تاتيانا تلقاها منذ برهة ، تقول فيها انها عازمت على أن تعجل بالرحيل عن درسدن ، اذ أن عمته عوفيت تماما .
فان لم يعوقها شيء فسوف يكونان في بادن في الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي . ورجت أن يقيما بهما على المحطة . وكان لتفينوف قد استأجر لهما حجرة في فندقه .

وفي نفس المساء بعث بكلمة الى إيرينا ، فتلقى منها هذا الجواب في الصباح التالي :

« كان لابد أن يحدث ذلك ان قريبا وان بعيدا . أكرر لك ما قلته البارحة : ان حياتي بين يديك ، فافعل بي ما تشاء . أنا لا أريد أن أهدرك ، ولكني أقول لك اني سأرعى كل شيء وأتبعك الى آخر الدنيا اذا اقتضى الأمر . سنلتقى غدا بالطبع...
حببتك إيرينا . »

وكانت الكلمتان الاخيرتان مكتوبتين بخط كبير ثابت قوى .

كان لتفينوف بين المجتمعين على رصيف محطة السكة الحديدية في الثامن عشر من أغسطس عند الساعة الثانية عشرة . وكان قد رأى إيرينا منذ برهة .. رآها جالسة في عربة مكشوفة ومعها زوجها وسيد آخر متقدم في السن . ووقع نظرها على لتفينوف ، فلاحظ أن انفعالا غامضا لمع في عينيها ، ولكنها سرعان ما توارت منه خلف مظلتها .

كان قد حل به انقلاب غريب منذ اليوم السابق - انقلاب شامل في مظهره وتعبير وجهه ، وكان يحس حقيقة أنه رجل غير الذي كان . لقد تلاشت ثقته بنفسه ، كما تلاشى هدوء ذهنه ، واحترامه لذاته . لم يبق من حالته النفسية السابقة شيء ، اذ طفت تجارب حديثة لا تنسى على كل ماعداها ، واستولى عليه احساس قوى حلو خبيث لم يعهده قط من قبل ، ونفذ ضيف غامض الى محرابه الأقدس فاستحوذ عليه ، ورقد فيه صامتا الا أنه متبجح كالملك في بيت جديد . لم يعد لتفينوف يشعر بالخجل ، ولكنه كان خائفا ، وكانت تتملكه مع ذلك شجاعة يائسة . الأسرى والمهزومون يعرفون مثل هذا الخليط من احساسات متناقضة ، كما يعرفه اللص بعد سرقة الاولى . وقد هزم لتفينوف فجأة .. أين أمانته؟ تأخر القطار خمس دقائق فاستحال قلق لتفينوف الى عذاب اليم ، ولم يستطع أن يقر في مكان ، بل ظل يتحرك في الزحام حركة ثقيلة مدفعة وهو يحدث نفسه : « رباه ! لو كان أمامي أربع وعشرون ساعة أخرى ! » ... أول نظرة الى تانيا ، وأول نظرة من تانيا . هذا ما ملأه خوفا ... هذا ما أراد أن يخلص منه سريعا .. ثم ماذا ؟ ثم ... ليكن ما يكون ! .. لقد كف الآن عن التقرير والتدمير ، لأن نفسه لم تعد ملكا له . وومضت في ذهنه صيحة الامس وميضاً مؤلماً ... هكذا يلقي تانيا ! .. وأخيرا سمع صفير ممطوط ، وكركرة ثقيلة تشتد كل لحظة ، ولاح القطار ينشئ في ببطء عند منحنى من منحنيات الطريق . وأسرع

الجمهور لاستقباله ، وتبعهم لتفينوف يجر قدميه كرجل حكم عليه بالموت . وأخذت تظهر من العربات وجوه وقبعات سيدات ، ورفرف من إحدى النوافذ منديل أبيض ... كانت كاييتولينا ماركوفنا تلوح له ... انتهى الأمر . لقد بصرت به وعرفها . ووقف القطار ، وأسرع لتفينوف الى باب العربة وفتحه . كانت تاتيانا واقفة قرب عمتها ، تبسم بسمة مشرقة ، وتمد اليه يدها .

وأعانها كليهما على النزول ، ورحب بهما بكلمات تافهة مختلطة ثم جعل يضطرب هنا وهناك : يتناول تذكيريهما وحقائب سفرهما وملاحظتهما ، ينطلق لبحث عن جمال ، ينادى ليستأجر مركبة . وكان سائر الناس من حوله في هرج ، وكان مسرورا بوجودهم وضجيجهم وصياحهم . وابتعدت تاتيانا قليلا ، وانتظرت حتى يفرغ من تدابير السريعة وهي لا تزال تبسم . أما كاييتولينا ماركوفنا فكانت لا تستطيع قرارا وكأنها لا تصدق أنها أصبحت أخيرا في بادن .
صاحت فجأة :

– المظلتان ! تانيا ! أين المظلتان ؟ – ولم تلاحظ أنها كانت قابضة عليهما بشدة تحت ابطها . ثم أخذت تودع سيدة صادفتها في الطريق من هيدلبرج الى بادن وداعا صاخبا طويلا . ولم تكن هذه السيدة الا صاحبتنا مدام زوهانتشيكوف ، وقد ذهبت الى هيدلبرج لتقدم ولاءها الى جوباريوف وعادت تحمل « توجيهاته » . وكانت كاييتولينا ماركوفنا تلبس شملة مخططة غريبة الشكل ، وقبعة سفر يشبه شكلها شكل الكمأة ، وينفر من تحتها شعرها الأبيض الخفيف . وكانت قصيرة نحيلة ، يعلو وجهها احمرار السفر ، وتتكلم الروسية بصوت منغم يخرق الأذن ... فسرعان ما أخذ الناس ينظرون اليها .

وأخيرا أجلسها لتفينوف مع تاتيانا في عربة ، وأجلس نفسه ازاءهما . وانطلقت الجياد ، وأعقبها الاستفسار والمصافحة وتبادل البسمات والتحيات ... وتنفس لتفينوف الصعداء . لقد مرت اللحظة الاولى بسلام ، ولم يرع تاتيانا منه شيء ولا أرابها شيء ، فقد كانت تبسم بسمتها الوضيئة الواثقة ، وتحمر احمرارها الفاتن ، وتضحك ضحكها السمع . وأخيرا فرض على نفسه أن ينظر اليها نظرة صريحة مباشرة لا سارقة عابرة – وكانت عيناه لا تطاوعانه على النظر اليها – فخفق قلبه بانفعال لا ارادى : لقد

بعث فيه ذلك السلام الذى كان يلوح على وجهها الصريح الأمين
لدعة تائب مرير ، فقال فى نفسه : « اذن فقد جئت يا بنيتى
المسكينة ، يامن كنت استعجلها واتشوق اليها ، وأريد أن أقضى
معهما للعمر كله ! لقد جئت . لقد وثقت بى .. وانا .. وانا.. »
وأطرق لتفينوف ، ولكن كابيتولين ماركونا لم تمنحه وقتا
للتأمل ، بل أخذت تمطره بالأسئلة :

— ما هذا البناء ذو الأعمدة ؟ أين يلعبون القمار ؟ من هذه
المقابلة ؟ تانيا ! انظرى ياتانيا ! ما أعجب هذه الرافعات ! وهذه
من عساها تكون ؟ أظن أكثر هذه المخلوقات من باريس ؟ يا الله ! أى
قبة هذه ! أتجدون كل شيء فى الحوانيت هنا كما فى باريس ؟
ولكن لا بد أن الأشياء باهظة الثمن ! هه ؟ يالها من سيدة ذكية
نادرة هذه التى تعرفت بها فى القطار ! أنت تعرفها يا جريجورى
ميهالتش . وقد وعدت أن تزورنا . ما أروعها حين تنتقد هؤلاء
الارستقراطيين ! من هذا السيد ذو الشارب الاشيب ؟ ملك
بروسيا ؟ تانيا ، تانيا ، انظرى ! ملك بروسيا ! لا ؟ ليس ملك
بروسيا ! سفير هولندا ؟ أنا لا أسمع ! العجلات تكرر كركرة !
آه ! ما أجمل الأشجار !
فوافقتها تاتيانا قائلة :

— نعم جميلة يا عمتى ، وما أبهج كل شيء هنا وما أنضره !
أليس كذلك يا جريجورى ميهالتش ؟
فأجاب من بين أسنانه :

— نعم ، بهيجة جدا .
ووقفت العربية أخيرا أمام الفندق ، وقاد لتفينوف المسافرتين
الى الحجرة التى أعدت لهما . وواعد أن يعود قبل ساعة . وذهب
الى حجرته . وما كاد يدخلها حتى استولى عليه من جديد ذلك
السحر الذى نام لحظة . هنا فى هذه الحجرة كان عرش إيرينا
وتاجها منذ يوم ، كان كل شيء يحدث عنها بلسان فصيح ، والهواء
نفسه كأنما علق آثارا خفية منها ... وأحس لتفينوف مرة أخرى
أنه عبدها . أبرز مندليها الذى أخفاه فى صدره ، وضمه الى
شفتيه ففاضت فى عروقه الذكريات اللاهبة كالسم الوحى . وعرف
أن لا نكوص ولا خيرة الآن . لقد ذاب من نفسه العطف الحزين
الذى أثارته تاتيانا كما يذوب الثلج فى النار ، وخبا الندم .. خبا
حتى اطمأن قلقه ، ولم تعد فكرة الخديعة تثير اشمئزازه ...

الحب ، حب ايرينا .. ذلك هو حقيقته الآن ، هو قانونه ، هو ضميره .. ولم يتمهل لتفينوف العاقل الحريص ليفكر في النجاة من موقف كان شعوره بفضاعته وشناعته لايتجاوز الخطرة العابرة ، وكأنه أمر لايعنيه .

وما كادت الساعة تمر حتى جاءه خادم الفندق رسسولا من البنزيلتين الجديدتين . كانتا تسألان أن يلحق بهما في بهو الفندق . فتبع الرسول ووجدهما في ملابس الخروج وقبعاتهما على رأسيهما . وأبدت كلتاهما الرغبة في الخروج على الفور لتريا بادن ، لأن الطقس كان جميلا ، وكانت كاييتولينا ماركونا على الخصوص لا تطيق صبرا ، وحزنت حين علمت أن الساعة المختارة للنزهة أمام بهو السمر لم تحن بعد . وأعارها لتفينوف ذراعه ، وانطلقوا للفرجة . وكانت تاتيانا تسير بجانب عمتها وهي تنظر حوالها بتطلع هادئ ، وكاييتولينا ماركونا ماضية في أسئلتها . وكان مرأى الروليت ، والكروبييه ذوى المهابة الذين لو أبصرتهم في أى مكان آخر لحسبتهم وزراء ، والعصى السريعة الحركة ، وأكوام الذهب والقضبة على القماش الاخضر ، والعجائز القامرات ، والفوانى المتبرجات - كان مرأى ذلك كله باعشا لذهولها الابكم . فنسيت كل النسيان انها ينبغي أن تثور على ماتراه من فساد ، ولم تستطع الا أن تحديق وتحديق ، وهي تنتفض دهشة لكل منظر جديد .. وكان أزيز العجلة العاجية في قاع الروليت يبعث الرعدة في نخاع عظامها ، وانما استعادت قوتها حين خزجت الى الهواء الطلق ، وتنفست نفسا طويلا ، فوصفت القمار بأنه اختراع فاسد من مخترعات الارستقراطية . وارتسمت على شففى لتفينوف ابتسامة جامدة باردة . وكان يتكلم ببطء واختصار ، وكأنه ضجر أو مفيظ ... ولكن خجلا خفيا اعتراه حين التفت الى تاتيانا . كانت تنظر اليه مليا وكأنها تسأل نفسها ماذا ترى فيه بالتحديد . وأوما اليها مسرعا ، فأجابته بمثل ايماءته ، وعادت فنظرت اليه متسائلة ، في شيء من الجهد ، وكأنه واقف في مكان أبعد مما كان فيه في الواقع . وأنصرف لتفينوف برفقته من بهو السمر ، ومر «بالشجرة الروسية » وقد جلست تحتها سيدتان روسيتان ، واتجه الى شارع اختنتالر . فما كادوا يشرفون على الطريق حتى رأى ايرينا على بعد . كانت تسير نحوه مع زوجها وبوتوجين . فاستحال لتفينوف

أبيض كالقرطاس ، على أنه لم يبطيء في مشيئه ، وانحنى في صمت حين قابلها ، وانحنى له بدورها في أدب يمازجه البرود ، وانسابت عابرة وهى تشمل تاتيانا بنظرة سريعة ... ورفع راتميروف قبعته عالية ، وغمغم بوتوجين بشيء .
سألت تاتيانا فجأة ، ولعلها لم تكن قد فتحت شفيتها قبل تلك اللحظة :

- من هذه السيدة ؟
- فردد لتفينوف :
- هذه السيدة ؟ انها تدعى مدام راتميروف .
- أهى روسية ؟
- أجل .
- هل عرفتها هنا ؟
- لا . انى أعرفها من زمن طويل .
- ما أجملها !
- فقالت كاييتولينا ماركونا :
- هل لاحظت ثيابها ؟ ان ثمن الوشى وحده يكفى عشر أسر ستة كاملة .
- ثم سألت وهى تلتفت الى لتفينوف :
- أهذا الذى معها زوجها ؟
- نعم .
- أترأه فاحش الثراء ؟
- لا أدرى فى الحقيقة . لا أظن ذلك .
- مارتبته ؟
- انه جنرال .
- ولاحظت تاتيانا :
- ما أجمل عينيها ! وما أغرب تعبيرهما ! حالمتان نافذتان في وقت واحد ... لم أر قط مثل هاتين العينين .
- فلم يجب لتفينوف . وخيل اليه أنه أحس نظرة تاتيانا المتسائلة مصوبة الى وجهه ، ولكنه كان مخطئا ، فقد كانت تنظر الى رمل الممر تحت قدميها .
- وصاحت كاييتولينا ماركونا فجأة :
- يا الله ! من هذه الغول ؟
- وأشارت الى عربة خفيفة ، تتمرغ فيها امرأة حمراء الشعر ،

فطساء الانف ، نافجة المنخرين ، فى ملابس فاخرة ، وجوب
وردى اللون .

— هذه الفول ! ان هذه هى المدموازيل كورا الشهيرة .
— من ؟

— المدموازيل كورا ... باريسية ... مشهورة .

— ماذا ؟ هذا الكلب الصينى ؟ كيف ؟ انها فظيعة !

— يظهر ان هذا ليس بعائق .

فلم تستطع كابيتولينا ماركوفنا الا ان ترفع يديها فى دهشة..
وأخيرا قالت :

— حسنا . ان هذه البادن تستحق الفرجة ! هل يمكننا الجلوس
على هذا المقعد ؟ انى أحس بعض التعب .

— طبعا يمكنك يا كابيتولينا ماركوفنا . هذا ما وضعت المقاعد
من أجله .

— وكيف أعلم ؟ يقولون ان باريس فيها مقاعد على طول الطرق
أيضا ، ولكن لا يليق أن تجلس عليها .

فلم يجب لتفينوف . وفى هذه اللحظة أدرك أن المكان الذى
قابل فيه أيرينا مقابلتهما الحاسمة لا يبعد عنه الا خطوتين . ثم
تذكر أنه لاحظ منذ قليل بقعة وردية صغيرة على خدها ...

وتهاكت كابيتولينا ماركوفنا على المقعد ، وجلست تاتيانا بجانبها ،
وظلّ لتفينوف واقفا فى المر . وبدأ له — أو لعله توهم — أن
شيئا ما قد حدث بينه وبين تاتيانا ... حدث تدريجيا ودون أن
يحس .

صاحت كابيتولينا ماركوفنا وهى تهز رأسها بحسرة :

— يا اللقردة الحمقاء ! هذه ثمن ملابسها لا تكفى عشر أسر فقط ،
بل مائة . هل لاحظت الماسات فى شعرها الاحمر تحت قبعتها ؟

يا للعجب ! ماسات فى وضع النهار !

فعلق لتفينوف على ملاحظتها قائلا :

— ليس شعرها أحمر . انها تصبغه أحمر ، وهذا هو البدع

الآن ...

فلم يسع كابيتولينا ماركوفنا الا أن ترفع يديها مرة أخرى وقد
عقلت الدهشة لسانها . وأخيرا قالت :

— مثل هذه الفضائح لا توجد عندنا فى درسدن ، والسبب أنها
أبعد عن باريس قليلا . الا تظن ذلك يا جريجورى ميهالتش — هه ؟

فأجاب لتفينوف : « أنا ؟ مؤكد . طبعاً . » بينما كان يقول لنفسه : « ترى عن أى شيء تتكلم ؟ »
وفي تلك اللحظة جاء وقع أقدام بطيئة ، واقترب بوتوجين من المقعد ، وبدأ الكلام وهو يومئ مبتسماً :
- كيف أنت يا جريجورى ميهالتش ...
فأمسك لتفينوف بيده على الفور :
- كيف أنت ، كيف أنت ياسوزونت ايفانتش ؟ ألم أقابلك منذ برهة مع ... منذ برهة في الطريق ؟
- أجل هو أنا ..

وانحنى بوتوجين باحترام للسيدتين الجالستين على المقعد .
- اسمح لى أن أقدمك للسيدتين ياسوزونت ايفانتش .
صديقتان قديمتان وقريبتان لى ، وصلتا الى بادن منذ قليل .
سوزونت ايفانتش بوتوجين ، مواطن لنا يزور بادن أيضاً .
فنهضت السيدتان عن الكرسي قليلاً وانحنى بوتوجين ثانية .
ثم بدأت كابيتولينا ماركوفنا تقول بصوت رفيع ، وكانت السيدة العجوز الطيبة شديدة الخجل ، ولكنها حاولت أن تصطنع العظمة بأية وسيلة :

هذا المكان أشبه بـ réunion (١) . كل واحد يرى النزول فى بادن واجبا لذيذا . فأجاب بوتوجين وهو يلحظ تاتيانا عن عرض :
- ان بادن مكان طيب بلا ريب . بادن بلد طيب جدا .
- نعم . ولكنها فى الحقيقة شديدة الفخامة على قدر ما أستطيع أن أحكم . لقد عشنا فى درسدن مدة طويلة ، وهى بلدة لطيفة جدا . أما هنا فالمدينة فى الحقيقة أشبه بـ réunion
فقال بوتوجين فى نفسه : « انها معجبة بهذه الكلمة » ، ثم رفع صوته قائلاً :

- هذه ملاحظة صائبة . ولكن المناظر هنا بديعة ، والموقع قليل النظر . لاشك أن رفيقتك بخاصة سوف تعجب به .
وأردف موجهاً الحديث الى تاتيانا هذه المرة :
- اليس كذلك يا سيدتى ؟

فرفعت تاتيانا عينيها الكبيرتين الصافيتين الى بوتوجين ، وبدت كأنها تسأل نفسها ماذا يطلب منها ، ولماذا قدمها لتفينوف من أول وصولها الى ذلك الرجل الغريب ، وإن كان وجهه ينم بطيبة

وذكاء ، ونظراته تعبر عن ود وترحيب ، وأخيرا قالت :
- نعم . أن المكان جميل .
وتابع بوتوجين حديثه قائلا :
- يجب أن تزورى القلعة القديمة . وأوصيك برحلة السيارة
الى أيرج .

فبدأت كاييتولينا ماركونا تقول :

- سويسرا السكسونية ...
وحينئذ رنت في أرجاء الشارع أصوات آلات النفخ النحاسية ،
فقد كانت فرقة راشاتات الموسيقية العسكرية تبدأ حفلاتها الموسيقية
الاسبوعية في كشك المدينة (وفي سنة ١٨٦٢ كانت راشاتات لاتزال
قلعة للحلفاء) .

فنهضت كاييتولينا ماركونا قائلة :

- الموسيقى ! الموسيقى ! à la Conversation (١) . يجب أن
نذهب الى هناك . الساعة بعد الثالثة الآن ... اليس كذلك ؟ أهى
الساعة التى يلتقى فيها المجتمع ؟
فأجاب بوتوجين :

- نعم ، هذا هو الوقت المفضل عندهم ، والموسيقى هناك
ممتازة .

- حسنا . اذن فلا نضيع وقتا . تعالى ياتانيا !

فسأل بوتوجين :

- أسمحون لى بمرافقتكم ؟
فدهش لتفينوف جدا ، ولم يخطر بباله قط أن بوتوجين كان
مبعوثا من إيرنا .

وابتسمت كاييتولينا ماركونا بأدب .

- بكل سرور يامسيو ... مسيو ...

فأكمل : بوتوجين . وقدم لها ذراعه . وقد ملتفينوف ذراعه
لتاتيانا . وقصد الزوجان بهو السمر .

واسترسل بوتوجين فى حديثه مع كاييتولينا ماركونا . أما
لتفينوف فسار دون أن ينبس بكلمة ، إلا أنه ابتسم مرة أو مرتين
بلا داع ، وضغط على ذراع تاتيانا ضغطا خفيفا . ولم تجب تاتيانا
على هذه النبضات الكاذبة ، وشعر لتفينوف بكذبه ، فلم تكن
تلك النبضات - كما كانت فى الايام الخالية - تأكيدا للرباط الوثيق

بين قلبين متحابين ، بل بديلا وقتيا لكلمات لم يستطع أن يجدها .
إن هذا الشيء الصامت الذى حدث بينهما قد نما وازداد قوة .
وعادت تاتيانا تنتظر اليه مليا حتى كأنها تتفحصه .

واستمرت هذه الحال حتى جلس الاربعة حول مائدة صغيرة في
بهو السمر مع فارق واحد وهو أن صمت لتفينوف بدا شبه عادى
فى ضجة الزحام ورنين الموسيقى . وبلغ نشاط كاييتولينا ماركونا
قمة حدته بحيث لم يستطع بوتوجين أن يلاحق أسئلتها أو يرضى
تطلعها . تم أسعفه الحظ فجأة بأن ظهر بين الزحام شبح مدام
زوهانثنييسكوف النحيل بعينيه اللامعتين . الوثابتين ، فعرفتھا
كاييتولينا ماركونا على الفور ، ونادتها وأجلستها على مائدتهما ،
وقامت عاصفة من الكلام .

والتفت بوتوجين الى تاتيانا ، وبدأ يحادثها بصوت ناعم خفيض ،
وهو منحني نحوها قليلا ، وعلى وجهه تعبير لطيف ودود ، وكانت
هى تجيبه بسهولة وطلاقة دهشت لهما . . . كانت سعيدة بأن
تتحدث الى ذلك الاجنبى الذى لاتعرفه بينما جلس لتفينوف ساكنا
كما كان ، وعلى شفثيه تلك الابتسامة الجامدة الباردة !

وأخيرا حان وقت العشاء . وانقطعت الموسيقى ، وقل الزحام .
وودعت كاييتولينا ماركونا مدام زوهانثنييسكوف وداعا حارا ، فقد
شعرت نحوها باحترام عظيم ، وان قالت فيما بعد لابنة أخيها :
« أن هذه السيدة شديدة التعصب حقا ، ولكنها تعرف كل شيء
عن كل انسان . وصحيح أن النساء يجب أن يحصلن على مكنت
الخيطة على أثر الزفاف . »

وودعهم بوتوجين ، ورافق لتفينوف السيدتين فى عودتهما .
وبينما هم يدخلون الفندق سلمت اليه رقعة ، فانتحى ناحية وفض
الغلاف مسرعا ، فرأى على قصاصة صغيرة من الورق هذه
الكلمات بالقلم الرصاص : « تعال الى هذا المساء فى الساعة
السابعة . دقيقة واحدة - أرجوك . ايرينا . » فدس لتفينوف
الورقة فى جيبه ، والتفت وقد اصطنع مرة أخرى تلك الابتسامة
... لمن ؟ لماذا ؟ لقد كانت تاتيانا واقفة وظهرها اليه . وتعشوا
على مائدة الفندق العامة ، وكان لتفينوف جالسا بين كاييتولينا
ماركونا وتاتيانا ، وفجأة تملكه مرح غريب فانطلق يثرثر ويحكى
الحكايات ، ويصب النبذ لنفسه وللسيدتين . وأغرى مرحة ضابطا
فرنسيا كان يجلس أمامه ، له شارب ولحية على طريقة نابليون

الثالث ، وقد قدم من ستراسبورج ، فلم يتحرج من الاشتراك في الحديث ، بل وصل الى أن اقترح نجبا *à la santé des belles moscovites* ولما انتهى العشاء صحب لتفينوف السيدتين الى خجرتهما ووقف عند النافذة عابس الوجه يضع دقائق ، ثم أعلن فجأة انه مضطر الى الخروج فترة قصيرة لبعض الاعمال ، ولكنه لابد سيعود قبل المساء .

ولم تقل تاتيانا شيئا ، ولكنها شحيت ونكست بصرها . وكان من عادة كابيتولينا ماركونا أن تنام قليلا بعد العشاء ، وكانت تاتيانا تعلم حق العلم أن لتفينوف يعرف هذه العادة من عمتها ، وتتوقع أن ينتهز هذه الفرصة ليبقى معها ، فانه لم ينفرد بها ولا تطلق في الحديث معها منذ مجيئها . ولكنه ذاهب ! ما معنى هذا ؟ الحق أن سلوكه طول اليوم ...

وانصرف لتفينوف مسرعا قبل أن يسمع اعتراضا ، ورقدت كابيتولينا ماركونا على الاركة ، وبعد أن زفرت زفرتين ، وأنت أنتين ، سبحت في نوم هادىء مهيب . بينما انتحت تاتيانا ركنا ، وجلست على كرسى واطىء ، وقد شبكت ذراعيها على صدرها .

(١) « في صحة المسكوفيتين الحسنائين ! » .

صعد لتفينوف درج « فندق أوروبا » مسرعا ، فأوقفته بنت صغيرة في الثالثة عشرة ، ذات وجه صغير مكر وسحنة كلموكية ، وقالت له بالروسية : « تفضل من هذا الطريق . إيرينا بافلوفنا ستكون هنا حالا . » ونظر إليها في حيرة فابتسمت وكررت : « تفضل . تفضل . » وفادته الى حجرة صغيرة مواجهة لمخدع إيرينا ، غاصة بصناديق المتاع وحقائب السفر ، ثم اختفت لتوها وهي تغلق الباب بخفة . ولم يكد لتفينوف ينظر حوله حتى فتح الباب ووقفت إيرينا أمامه في ثوب سهرة وردي اللون ، وحول جيدها وفي شعرها لآلىء . اندفعت نحوه اندفاعا ، وقبضت عليه بكلتا اليدين ، وبقيت لحظات لا تستطيع كلاما ، وعيناها تلمعان ، وصدرها يعلو ويهبط كأنها صعدت جبلا وهي تجرى . بدأت تقول في همس معجل :

- لم أستطع أن أستقبلك ... هناك . نحن ذاهبان بعد قليل الى حفلة عشاء ولكنى أردت قبل كل شيء أن أراك ... أظن تلك التى قابلتها معك اليوم خطيبتك ؟

فأجاب لتفينوف :

- أجل ، انها كانت خطيبتى .

وضفط على كلمة « كانت » .

- لقد أردت أن أراك دقيقة واحدة لآخبرك أنك يجب أن تعد نفسك مطلق الحرية ، وأن ما حدث البارحة يجب ألا يؤثر في خططك - إيرينا ! لم تقولين هذا ؟

لفظ هذه الكلمات بصوت عال ، وكانت فيها رنة عاطفة غشوم . فأغمضت إيرينا عينيها دقيقة بحركة لا ارادية ، ومضت تقول وقد زاد همسها خفوتا ، كما زاد انفعالها جموحا :

- آه يا حبيبى ! أنك لا تدري كم أحبك ، ولكنى لم أزد أمس على أن أدبت دينى ، ومحوت أثم الماضى ... آه ! لم أستطع أن أمتحك شبابى كما كنت أتمنى ، ولكنى لم ألزمك بشيء ، ولم

اكلفك وعدا أيها الغالى ! افعل ما بدالك ، أنت طليق كالهواء ،
لا شيء يقيدك ، لا شيء مطلقا ، أريد أن تعلم ذلك !
فقاطعها لتفينوف هامسا هذه المرة :

— ولكنى لا أستطيع أن أحيا بدونك يا إيرينا ، أنا لك أبدا ،
منذ أمس ... لا أستطيع أن أتففس الا عند قدميك ...
وانحنى يقبل يديها وقد شملته رعدة . وحدقت إيرينا فى رأسه
المنحنى . قالت :

— أذن فاعلم . أننى أيضا على استعداد لكل شيء . اننى أيضا
لن أبالى بأحد ولا بشيء . كل ماتراه نافذ . أنا أيضا لك الى
الأبد ... لك .

ونقر على الباب نقرة حذرة . وانحنت إيرينا وهمست مرة
أخرى : « وداعا ! » .

وأحس لتفينوف مر أنفاسها ومس شفتيها على شعره . وحين
وقف كانت قد غادرت الحجرة ، الا أن ثوبها كان يحف فى الدهليز ،
وجاء صوت راتميروف من بعد : Eh bien, Vous ne venez pas (١)
جلس لتفينوف على صندوق مرتفع وغطى وجهه بيديه ،
واستنشق عطرا أثويا خفيا نديا ... لقد أمسكت إيرينا يده بين
يديها . وقال فى نفسه : « هذا كثير ، هذا كثير » ، ودخلت البنت
الصغيرة الحجرة ، وأبتسمت مرة أخرى جوابا على نظرته القلقة ،
وقالت :

— تفضل بالمجيء معى الآن ...

فنهض وأخرج من الفندق . وكان عبثا أن يفكر فى العودة الى
ممكنه وهو فى حاجة الى أن يتماسك أولا ، وكان قلبه يدق دقا
عتيفا مضطربا ، والأرض كأنها تميد تحت قدميه . وعاد لتفينوف
يمشى فى شارع لختنتالر ، وأدرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت ،
ولم يعد فى مقدوره أن يرجىء الأمور ، وأن يروغ من نفسه ويتعامى
عن الواقع . كان لابد من جلاء الأمر مع تاتيانا . وتخيلها جالسة
هناك لا تدبر منها نائمة ، وهى تنتظر عودته ... وتخيل ماسيقوله
لها ، ولكن كيف يقول ، وكيف يستطيع أن يبدأ ؟ لقد طرح
مستقبله الشريف الرزين المنظم وراء ظهره ، وكان يعلم أنه يلقي
بنفسه الى هاوية يجزع المرء من مجرد النظر اليها .. ولكنه لم
يكن يبالي بذلك ، فقد قرره وانتهى منه ، انما الباقي : كيف يواجه

(١) « حسنا ، ألا تاتين ؟ » .

قاضيه ؟ ويا ليتة كان قاضيا ! ليتة كان ملاكا بسيف من نار ،
فذلك أهون على القلب المذنب ... ولكن كان عليه هو أن يفهم
السكين في ... يا للشناعة ! هل يرجع ويتخلى عن الثانية ، هل
يستغل الحرية التي منحها إياه ، واعتبرتها حقه ؟ .. لا ! الموت
خير من ذلك ! لا ، انه لا يريد هذه الحرية البغيضة ... بل
يمرغ نفسه في التراب راضيا في سبيل نظرة حب من هاتين العينين
وقال صوت حزين :

— جريجورى ميهالتش !

وحطت يد ثقيلة على كتف لتفينوف . فالتفت وراءه بشيء من
الفرع ، وعرف بوتوجين .
وبدا هذا يقول بحيائه المألوف :

— معذرة يا جريجورى ميهالتش ، أخشى أن يضايقك ، ولكنى
رأيتك من بعد ، ففكرت ... أما أن كنت لا تريدنى ...

فتمتم لتفينوف من بين أسنانه :

— على العكس ، أنا سعيد برؤيتك ..

فسار بوتوجين بجانبه وبدأ يقول :

— مساء جميل . هذا الدفء ! هل سرت طويلا ؟

— لا ..

— ما كان أغنانى عن السؤال ! لقد رأيتك منذ قليل خارجا من
« فندق أوروبا » .

— اذن فقد كنت تتبعنى ؟

— أجل .

— ألدك ما تريد أن تقوله لى ؟

— فكرر بوتوجين بصوت لا يكاد يبين :

— نعم ..

ووقف لتفينوف . ونظر الى رفيقه الذى جاء بلا دعوة . كان
وجهه شاحبا ، وعيناه زائفتين ، وملامحه المتقلصة كأنما ران عليها
حزن مقيم .

قال لتفينوف ببطء وهو يتقدم :

— ما الذى تريد قوله بالضبط ؟

— أسمح لى .. سأخبرك بعد لحظة . لنجلس على هذا

الكرسى ، ان لم يكن عندك مانع . هذا أروح .

فقال لتفينوف وهو يجلس بجانبه :

— هل فى الأمر سر ؟ انك تبدو مضطربا ياسوزونت ايفانتش .
— لا ، انا بخير ، وليس فى الأمر سر ايضا . انما أردت أن
أخبرك ... برأى فى خطيبتك ... اظنها مخطوبة لك ؟ .. على كل
حال ، أنا أعنى الشابة التى قدمتنى اليها اليوم . الحق انى لم
ار فى حياتى انسانة أجدر منها بالحب . قلب من ذهب . ملاك كريم .
نطق بوتوجين بكل هذه الكلمات دون أن تفارقه مرارته وحزنه ،
حتى أن لتفينوف نفسه راعه التناقض الغريب بين سيماء وكلامه .
وبدا لتفينوف يقول :

— انك مصيب فيما قلته عن تاتيانا بتروفنا . ولكن يجب أن
اقول لك انى دهش لمعرفتك بالرابطة التى بينى وبينها ، ثم
لاستطاعتك أن تفهمها بهذه السرعة . حقا انها ملك كريم . ولكن
اسمع لى ان أسألك : اهذا ما أردت أن تبحثه معى ؟
فمضى بوتوجين يقول وكأنه يتجنب السؤال الآخر :
— كل من رآها لابد أن يفهمها . حسب المرء أن ينظر الى
عينها . انها جديرة بكل سعادة ، وسعيد ذلك الرجل الذى قسم
له أن يسعددها ! ليت ثبت انه جدير بمثل هذا الحظ العظيم .
فعبس لتفينوف قليلا وقال :

— معذرة ياسوزونت ايفانتش . ان محادثتنا تبدو لى غريبة ،
فريدة ... أود أن أعلم هل تعينى بما قلته الآن ؟
فلم يجب بوتوجين على الفور ، وكان جليا انه يجاهد نفسه .
وأخيرا بدأ يقول :

— جريجورى ميهالتش ! اما انى مخطيء كل الخطأ فى تقديرى ،
واما انك قادر على أن تسمع الحق من أى انسان جاء ، وفى أى
صورة كريهة ظهر . لقد أخبرتك الآن انى رأيت من أين قدمت .
— أجل . من فندق أوروبا . وأى بأس فى ذلك ؟

— انى ، أعلم من كنت تزور .
— ماذا ؟

— لقد كنت عند مدام راتميروف .
— حسنا ، لقد كنت عندها . ثم ماذا ؟

— ثم ماذا ؟ .. أنت خطيب تاتيانا بتروفنا . وقد كنت عند
مدام راتميروف ، التى تحبها ... وتحبك .

فانتفض لتفينوف واقفا ، واندفع الدم الى رأسه ، وأخيرا قال
بصوت كظيم :

— ما هذا ؟ مزاح سخيف ؟ تجسس ؟ أرجو أن توضح لى
أمرك !

فحول اليه بوتوجين نظرة ضعيفة :

— آه ! لا تغضب يا جريجورى ميهالتش . انا لن أغضب مهما
تقل . انى لم أبدأك بالحديث من أجل هذا ، وليست لى رغبة
فى المزاح .

— ربما ، ربما . انا مستعد أن أثق بحسن نيتك . ولكنى
أسألك : بأى حق تقحم نفسك فى دخائل رجل آخر ، وعلى أى
أساس تتقدم واثقا ... باختراعك على أنه حقيقة ؟
— اختراعى ! لو كنت اخترعته لما أثار حنقك . أما حقى فانى
لم أسمع من قبل أن الرجل ينبغى أن يسائل نفسه عن حقه فى أن
يمد يده الى غريب .

فصاح لتفينوف باندفاع :

— انا شاكر وممتن لعنايتك . ولكنى لست بحاجة اليها مطلقا .
وكل ما يقال عن الشيباك التى تنصبها نساء المجتمع للشبان
الاغرار ... ومن انحلال المجتمع الراقى . الخ — كل هذا أراه
مجرد كلام ، كلام تافه غث ، ولهذا اتوسل اليك أن تريح ذراعى
المتقدة ، وأن تدعنى أغرق فى سلام .

فرفع بوتوجين عينيه مرة أخرى الى لتفينوف ، وحشرجت
أنفاسه ، وارتعدت شفتاه ، وأخيرا انفجر صائحا وهو يصك
صدره :

— انظر الى أيها الشاب . هل ترانى أشبه أخلاقيا أو واعظا
عاديا راضيا عن نفسه ؟ الا تفهم أن اهتمامى بك ، مهما يكن
عظيما ، ما كان ليدفعنى الى أن أنطق بكلمة واحدة تجعل لك الحق
فى أن تتهمنى بشر ما أكره : بالتطفل والفضولية ؟ الا ترى أن الأمر
مختلف جدا ، وأن أمامك رجلا حطمته — بل محته محوا — تلك
العاطفة التى يريد أن ينقلك من عواقبها ... نحو المرأة نفسها ؟
فتراجع لتفينوف خطوة :

— أهذا ممكن ؟ ماذا قلت ؟ .. انت ... انت ... ياسوزونت
ايفانتشي ؟ ولكن مدام بيلسكى .. ذلك الطفل ؟

— آه . لا استجوبنى ! .. بل صدقنى ! انها قصة سوداء
مروعة ، ولن أخبرك بها . انى لم أكد أعرف مدام بيلسكى ،
وهذه الطفلة ليست بنتى ، ولكنى حملت المسئولية كلها ...

لأن ... لأنها هي أرادت ذلك ، لأنه كان ضروريا لها هي . لماذا أنا هنا في هذه البلدة الكريهة ؟ هل تظن - هل تستطيع أن تتخيل لحظة أنى كنت أجزؤ على أنذارك لمجرد العطف عليك ؟ أنى آسف لتلك الفتاة الطيبة الحلوة ، خطيبتك ، ولكن ما شأنى بمستقبلكما ، ما شأنى بكما معا ؟ .. انما أخاف عليها ... عليها هي .

- أنت تسدى الى شرفا عظيما ياسيد بوتوجين . ولكن مادامت حالك من حالى ، كما تقول ، فلماذا لا توجه- مثل هذا النصيح الى نفسك ؟ الا أنسب مخاوفك الى شعور آخر ؟

- اتعنى الفيرة ؟ آه أيها الشاب ، أيها الشاب ، الا تخجل أن تراوغ وتغالط ، الا تخجل اذ تجهل أى حزن مرير يكلمك الآن من شفتى ! لا ، ليست حالى من حالك ! أنا - أنا رجل هرم مضحك ، شيخ أبله لا يؤبه له - أما أنت ! ولكن ما حاجتنا الى الحديث عن ذلك ؟ انك لا تقبل لحظة واحدة أن تشغل المكان الذى أشغله شاكرا ! الفيرة ! لايفار من لم يحظ قط بقطرة من أمل . ولو كنت أغار لما كانت هذه أول أسباب الفيرة . لست خائفا الا ... الا عليها . اعلم ذلك . وهل كان بوسعى أن اتوقع - حين أرسلتنى اليك - أن شعورها بالذنب نحوك - وقد اعترفت لى به - سوف يذهب بها الى هذا المدى ؟

- ولكن معذرة ياسوزونت ايفانتش ، يبدو أنك تعلم ...
- أنا لا أعلم شيئا ، وأعلم كل شيء ! - وزاد وهو يلتفت :
أنا أعلم أين كانت ليلة أمس . انها لن يكبح لها جماح منذ اليوم . انها كحجر تدحرج ، فلا بد أن يتدحرج حتى القرار . وانى لأحمق ان تخيلت أن كلماتى سوف تردك على الفور ... أنت ، حين تكون امرأة كهذه ... لكن دعنا من هذا . انى لم أملك نفسى ، وهذا كل عذرى . ولكن من يدري ؟ وماذا تضر المحاولة ؟ لعلك تفكر فى الأمر مرة أخرى . لعل كلمة من كلماتى تنفذ الى قلبك ، فتنتشى عن تحطيمها ، وتحطيم نفسك ، وتحطيم هذه المخلوقة البريئة الحلوة ... آه ! لا تفضب ، ولا تدق الارض بقدمك ! ماذا أخاف ؟ ولماذا أحتشم ؟ ليست الفيرة هي التى تتكلم فى ، لا ، ولا الفضب ... انى على استعداد لأن أركع عند قدميك ، لأن أتضرع اليك . لكن وداعا . لاحاجة بك الى القلق ، فسيبقى هذا كله سرا . ما أردت لك الا الخير .

وخطا بوتوجين خطوات واسعة على الطريق اللاحبة ، واختفى فى

الظلام المغطش ، ولم يستبقه لتفينوف .
« قصة سوداء مروعة ، هكذا قال بوتوجين للتفينوف ، ولكنه
أبى أن يخبره بالقصة .. فلنخرج عليها ببضع كلمات فحسب :
حدث منذ ثماني سنوات أن ندبته مصلحته للعمل مع الكونت
ريزنباخ . وكان ذلك في الصيف ، واعتاد بوتوجين أن يركب
عربة الى الكرمة الريفية ومعه الاوراق ، ويمكث هناك اياما كاملة
متعاقبة ، وكانت ايرينا تعيش اذ ذاك بمنزل الكونت ، ولم تكن
تترفع عن دونها ، أو على الاقل لم تكن تزدرهم ، وقد أخذتها
الكونتة غير مرة على تسطها المسكوفي المفرط . فسرعان ما
استكشفت ايرينا في الكاتب المتواضع رجلا ذكيا مخبأ في السترة
الحكمة التي كانت بزته الرسمية . واعتادت أن تجاذبه الحديث
في حماسة وانطلاق ، أما هو .. فقد أحبها .. أحبها حبا قويا
عميقا مكتوما ... مكتوما ! هذا ما كان يظنه هو . ومضى الصيف ،
واستغنى الكونت عن معونته ، وغابت ايرينا عن عيني بوتوجين ،
ولكنه لم يستطع أن ينساها . وبعد ثلاث سنوات تلقى على غير
انتظار دعوة من سيدة من الطبقة الوسطى لم تكن له بها الا معرفة
يسيرة ، واضطربت السيدة أول الأمر وهي تشرح له الغرض من
دعوتها ، ولكنها بعد أن استحلقتة الا يبوح بشيء مما سيسمعه ،
عرضت عليه ... أن يتزوج فتاة ، كانت لها في المجتمع مكانة
مرموقة ، ولم يكن لها بد من الزواج . ولم تكذ السيدة تجرؤ
على الإشارة الى الرجل الذي كان محور القصة . ثم وعدت
بوتوجين بمال ... بمقدار جسيم من المال . ولم يثر بوتوجين ،
فقد خنقت الدهشة في نفسه كل شعور ، ولكنه رفض رفضا باتا .
وعندئذ ناولته السيدة كلمة مكتوبة - من ايرينا . واذا فيها :
« أنت رجل نبيل كريم ، وأنا أعلم أنك ترضى بأن تفعل أى شيء
من أجلى . انى أسألك هذه التضحية . ستنقذ شخصا عزيزا على
جدا . وبانقاذك اياها ستنقذنى أيضا ... لاتسلنى كيف . لم أكن
لأتوجه بهذا الى أحد غيرك ، ولكنى أمد يدي اليك وأقول .
افعل هذا من أجلى » . وفكر بوتوجين ثم قال انه حقا على
استعداد لأن يفعل أشياء كثيرة من أجل ايرينا بافلوفنا ، ولكنه
يود أن يسمع رغبتها من بين شفثيها . وكان اللقاء في المساء
نفسه ، ولم يدم طويلا ، ولم يعرف به أحد الا تلك السيدة
نفسها ، ولم تكن ايرينا تقيم اذ ذاك في منزل الكونت ريزنباخ .

سألها بوتوجين :
- ما الذى حداك الى التفكير فى أنا ، دون الناس جميعا ؟
فبدات تفيض فى الثناء على صفاته النبيلة ، ولكنها توقفت
فجأة ... وقالت :
- كلا . يجب أن تعلم الحقيقة . أنا أعرف انك تحبنى ، وهذا
ماجعلنى أفرر
ثم أخبرته بكل شيء .

لقد كانت اليزا بيلسكى يتيمة ، وكان أقاربها يكرهونها ،
ويطمعون فى ميراثها ... وكانت فى محنة ، وبانقاذاها أرادت إيرينا
أن تخدم الرجل الذى كان سببا فى محنتها والذى أصبحت له الآن
علاقة وثيقة بإيرينا نفسها ... ونظر بوتوجين الى إيرينا نظرة
طويلة ، ولم يتكلم ، ووافق ، فبكت ، وانطرحت على عنقه ودموعها
تنهمر . وبكى هو ايضا ... ولكن دموعهما كانت جد مختلفة .
وكان كل شيء قد أعد للزواج المسكتم . كانت يد قوية تزيج كل
العقبات ... ولكن جاء المرض ... ثم ولدت طفلة ، وإذا بالأم
بعد ذلك ... تشرب السم . فماذا يكون من أمر الطفلة ؟ لقد
كفلها بوتوجين ، بعد أن تلقاها من اليمين نفسيهما ، يدى إيرينا .

قصة مروعة سوداء ... فلنعد عنها أبها القراء ، فلنعد عنها !
مضى أكثر من ساعة قبل أن يحمل لتفينوف نفسه على العودة
الى فندقه . ولما قاربه سمع من خلفه وقع خطأ ، وخيل اليه أنها
تتبعه بالحاح ، وتسرع كلما أسرع ، فلما مر لتفينوف تحت عمود
مصباح التفت وراءه وعرف الجنرال راتميروف .

وكان راتميروف عائدا وحده من الحفلة ، ومعطفه مفتوح ، وعلى
صدره رباط عنق ابيض وعدد من النجوم والصلبان فى سلسلة
ذهبية معلقة بعروة سترته . وثبت عينييه على لتفينوف ببفض
واحتقار ، وبدأ فى مظهره كله تحد واستفزاز حتى اضطر لتفينوف
أن يتقدم ليلقاه ويواجه « الفضيحة » وان كره . لكن وجه
الجنرال تغير فجأة حين حاذاه لتفينوف ، وعادوته رفته الالعبة
المألوفة ، ولوحت يده فى قفاها ذى اللون الاصفر الخزامى ، رافعة
قبعته الصغيرة فى الهواء . فرفع لتفينوف قبعته صامتا ، ومضى
كل فى طريقه .

وفكر لتفينوف : « لاشك انه لاحظ شيئا ! »
وفكر الجنرال : « ليته على الاقل كان ... شخصا آخر ! »

وكانت تاتيانا تلعب الورق مع عمتها حين دخل لتفينوف حجرتها،
فصاحت كابيتولينا ماركونا وهى تلقى بأوراقها :
- والله انك شاب ظريف ! أول يوم ، وتغيب طول المساء ! لقد
انتظرنا وانتظرنا ! وقلنا فيك وأعدنا ..

فعقبت تاتيانا :

- أنا لم أقل شيئا ياعمتى .
- أوه ، انك الطيبة نفسها ، كلنا نعلم ذلك ! يجب أن نخجل
ياسيدى ! هل نسيت انك خطيب ؟

وانتحل لتفينوف ما استطاع من اعدار ، وجلس الى المنضدة .
قال بعد صمت قصير :

- لماذا قطعتما اللعب ؟

- سؤال ظريف ! اننا كنا نلعب من السأم ، ولم يكن لدينا ما
نعمله ... أما الآن فانت هنا .

فقال لتفينوف :

- اذا كنتما تحبان الاستماع الى موسيقى المساء فانه يسعدنى
أن اذهب معكما .

فنظرت كابيتولينا ماركونا الى ابنة أخيها . قالت تاتيانا :

- نذهب ياعمتى . أنا مستعدة . لكن ... أليس الأفضل أن
نبقى هنا ؟

- من غير شك ! نشرب شاينا المسكوفى ، شاي السماور ،
ونتكلم حتى نشبع ، فاننا لم نكد نتحدث .

وطلب لتفينوف شايا . الا أن الحديث المشبع لم يتيسر ، لقد
كان لتفينوف معذب الضمير ، كلما تكلم خيل اليه أنه يكذب ، وإن
تاتيانا تفضح كذبه . ولكنها لم يبد عليها تغير ما ، بل كان سلوكها
عاديا لا تكلف فيه ولا تحفظ ... ولو أن عينيها لم تثبتا على
لتفينوف قط ، بل كانتا تنزلقان عنه فى تسامح خائف ، ووجهها
كان يعلوه شحوب غير عادى . فسألتها كابيتولينا ماركونا هل
تشعر بصداق ؟

وهمت تاتيانا بأن تقول لا ، ولكنها قالت بعد تفكير قصير :

- نعم ، قليلا .

فقال لتفينوف .

- انها الرحلة .

- واحمر وجهه خجلا .
ورددت تاتيانا :
- نعم ، الرحلة .. وانزلت عيناها عنه مرة أخرى .
- يجدر بك أن تستريحى يا حبيبتي تانيا .
- نعم . سأنام بعد قليل يا عمتي .
وكان على المنضدة نسخة من Guide des Voyageurs (١) .
فأخذ لتفينوف يقرأ فيه بصوت مرتفع وصف ضواحي بادن .
وقاطعته كاييتولينا ماركونا قائلة :
- تياما . ولكن يجب ألا ننسى شيئا : لقد سمعت أن نسيج
الكتان هنا رخيص جدا ، فيجب أن نشترى شيئا منه للجهاز .
وغضت تاتيانا بصرها .
- الوقت واسع يا عمتي . انك لا تفكرين في نفسك أبدا .
يجب أن تشتري لك بعض الملابس . أنت ترين أناقة الناس هنا .
- يا حبيبتي ! ما فائدة ذلك ؟ الأناقة ليست مطلبي . قد يختلف
الحال لو كنت حسناء كصديقتك يا جريجورى ميهالنش . ما أسمها ؟
- أبة صديقة ؟
- التى قابلناها اليوم .
فقال لتفينوف وهو يتصنع عدم الاكتراث :
- أوه ، هذه !
وشعر بالتقزز والخجل مرة أخرى ، وقال لنفسه : « لا ، لا
يمكن أن تستمر هذه الحال . لقد كان جالسا بجانب خطيبته ،
وفى جيبه - على قيد بوصات منها منديل أيرينا . وغابت كاييتولينا
ماركونا لحظة فى الحجرة الأخرى ، فقال لتفينوف بجهد :
- تانيا ...
وكانت أول مرة يناديها باسمها فى ذلك اليوم ، فالتفت إليه :
- أنا ... لدى شيء هام أريد أن أقوله لك .
- أوه ! حقا ؟ متى ؟ الآن ؟
- لا . غدا .
- غدا . حسن جدا .
وفاض قلب لتفينوف بحنو لا حد له . وتناول يد تانيا وقبلها
بخشوع كأنه آثم . فانقبض قلبها ولم تفرح بقبلته .

ورفعت كاييتولينا ماركوفنا رأسها فجأة في الساعة الثانية ليلا،
«وانصتت ، وكانت تنام مع ابنة أخيها في حجرة واحدة . قالت :
- تانيا ! اتبكين ؟
فلم تجب تانيا على الفور . ثم ارتفع صوتها اللطيف :
- لا ياعمتى . لقد أصابنى برد .

سأل لتفينوف نفسه صباح اليوم التالى ، وهو جالس امام نافذة حجرته : « لماذا قلت لها ذلك ؟ » وهز كتفيه بحقق . انه قال ذلك لتاتيانا ليقطع على نفسه كل سبيل للتراجع . وكانت على النافذة ورقة من ابرينا تسأله فيها أن يزورها فى الساعة الثانية عشرة ، وكانت كلمات بوتوجين لا تزال تساوره ، وكأنها تصل اليه بصوت خافت منحوس ، كصوت قرقرة تحت الارض . وكان ساخطا على نفسه ، ولم يستطع أن يتخلص من هذه الكلمات . وطرق الباب . فسأل لتفينوف :

- wer da ? (١) .

فسمع صوت بنداسوف الأجش :

- آه ! انت هنا ! افتح !

وصرت اكرة الباب . وابيض لون لتفينوف من الغضب . صاح بحدة :

- لست هنا .

- لست هنا ! يالها من دعابة ظريفة !

- أقول لك انى لست هنا ، انصرف !

فزمجر بنداسوف :

- ما أكرمك ! لقد جئت أسألك قرضا صغيرا .

على أنه مشى يدق الأرض بكعبه كعادته .

وكاد لتفينوف يعدو خلفه ، فقد تاق توقا الى أن يخنق ذلك الصعلوك البغيض . كانت حوادث الايام القليلة الماضية قد اوهنت أعصابه ، ولم يكن بينه وبين البكاء الا القليل . وشرب كوب ماء بارد ، وأغلق كل درج فى الغرفة دون أن يعلم لم يفعل ذلك ، ثم ذهب الى تاتيانا .

وجدها وحيدة ، فقد ذهبت كايبتولينا ماركونا الى السوق . وكانت تاتيانا جالسة على الارىكة ، ممسكة بكلتا يديها كتابا ، ولم

(١) « من هناك ؟ » .

تكن تقرأ فيه ، ولا تعرف أى كتاب هو . لم تتحرك ، ولكن قلبها دق فى صدرها دقا سريعا ، وارتعشت الياقة البيضاء حول عنقها ارتعاشا ظاهرا منتظما .

واضطرب لتفينوف ... ولكنه جلس بجانبها وقال : « صباح الخير » ، وابتسم ، وابتسمت له أيضا بلا كلام . وكانت قد انحنت له حين دخل ، انحنت له فى أدب وكأنه غريب ، ولم تنظر إليه ، ومد إليها يده فأسلمته أصابعها الباردة ، ولكنها سحبتها بسرعة ، وأمسكت الكتاب ثانية . وشعر لتفينوف أنه ان بدأ الحديث فى موضوعات تافهة كان ذلك اهانة لتاتيانا . أما هى فلم تطالبه بشيء كماداتها ، ولكن كل ما فيها كان يقول بجلاء : « انى منتظرة ، انى منتظرة » ... عليه أن ينجز وعده ، إلا أنه - وان قضى أكثر الليل يفكر فى هذا الأمر دون غيره - لم يكن قد أعد ما يقول ، حتى ولا الكلمات الممهدة الاولى ، فلم يدر كيف يقطع ذلك الصمت القاسى .

وأخيرا بدأ يقول :

- تانيا . لقد أخبرتك أمس بأن لدى شيئا هاما أريد أن أقوله لك ، وانى على استعداد لذلك ، لكنى أسألك أولا ألا تغضبى على ، وأن تؤمنى بأن مشاعرى نحوك ... وتوقف ليلتقط أنفاسه ، وظلت تاتيانا ساكنة لا تنظر إليه ، ولم تزد على أن شددت قبضتها على الكتاب .

ومضى لتفينوف يقول دون أن يتم الجملة التى بدأها :
- لقد كانت بيننا دائما صراحة تامة . ان اجلالى لك أعظم من أن أستطيع خداعك . أريد أن أبرهن لك على تقديرى لنبلك وشجاعتك ومع اننى ... مع اننى طبعاً ...
فبدأت تاتيانا تتكلم بصوت متزن ، بينما غشى وجهها كله شحوب كشحوب الموت :

- هأنذى أساعدك يا جريجورى ميهالتش : انك لم تعد تحبى ، ولا تدري كيف تخبرنى بذلك .

فانتفض لتفينوف . قال وهو لا يكاد يبين :

- لماذا ؟ .. لماذا تظنين ؟ .. أنا فى الحقيقة لا أفهم ...

- ماذا ، اليس هذا حقا ؟ - أخبرنى ، أخبرنى .

ودارت تاتيانا الى لتفينوف حتى واجهته ، وكان شعرها مرسلا الى الخلف ، فكاد وجهها يلامس وجهه ، وبدت عيناها - اللتان لم

تنظرا اليه منذ امد - وكأنهما تتسبران عينيه . وأعادت :
- اليس هذا حقا ؟

فلم يقل شيئا ، ولم ينبس بصوت . ولو علم انها ستصدقها وان كذبه سينقذها لما استطاع أن يكذب في هذه اللحظة . بل انه لم يستطع أن يواجه عينيهما المثبتتين عليه . لم يقل لتفينوف شيئا ، ولكنها لم تحتج الى جواب ، لقد قرأت الجواب في صمته ، في تلك العينين المذنبتين الدليلتين . وارتدت في كرسيها ، وتركت الكتاب يسقط من يدها ... لقد كانت تشك الى هذه اللحظة ، وكان لتفينوف يفهم ذلك ، كان يفهم انها غير موقنة - ويا لبشاعة ما عمل ، يا لبشاعة ما عمل !
انطرح على ركبتيه امامها مناديا :

- تانيا ! ليتك تعلمين مقدار تعاستى وأنا اراك هكذا ...
مقدار فزعى حين افكر أننى أنا ... الذى فعلت هذا ! ان قلبى يتمزق . أنا لا أعرف نفسى . لقد فقدت نفسى ، وفقدتك ، وفقدت كل شيء ... لقد ضاع كل شيء يا تانيا ، كل شيء ! هل كنت اظن أنى أنا ... أنى أنا سأسئء اليك هذه الأساءة ، يا أعز صديق ، ياملاكى الحارس ..؟ هل كنت أظن أننا سنلتقى مثل هذا اللقاء ، وسنقضى يوما مثل أمس ! ..

وهمت تانيا بأن تنهض وتذهب ، فأمسك بحاشية ثوبها .
- لا . اصفى الى دقيقة أخرى . هأنذا راكع على ركبتي امامك ، ولكنى لم آت لأسألك المغفرة ، فانك لا تستطيعين أن تغفري لى ، ولا ينبغي أن تغفري لى . لقد جيئت أخبرك أن صديقك ضاع ، انه يسقط فى الهاوية ولا يريد أن يجرك معه ... ولا أمل فى انقاذى ! حتى أنت لا تستطيعين انقاذى ، ولو حاولت لدفعت بك بعيدا . لقد ضعت ياتانيا ! لقد ضعت وانتهيت !

نظرت تانيا الى لتفينوف ورددت وكأنها لم تحسن الفهم :
- ضعت ؟ ضعت ؟

- أجل - ضعت ياتانيا . كل ماضى ، كل ما أحببته ، كل ماعشت من اجله حتى الآن - كل ذلك ضاع . كل شيء تحطم وخرب ، ولا أدري ماذا ينتظرنى . لقد قلت الآن انى لم أعد أحبك ... لا ياتانيا ، أنا مازلت أحبك ، ولكن عاطفة غير هذه ، عاطفة قاهرة مخيفة - جرفتنى كالشلال ... لقد حاربتها جهدا استطاعتى ...

فنهضت تاتيانا وقد انعقد حاجباها واربد وجهها الشاحب .
ووقف لتفينوف أيضا .
بدات تقول :

— أنت تحب امرأة أخرى ، وأنا أحس من هي ... لقد
قابلناها أمس . اليس كذلك ! حسنا ، انى أعلم الآن ماذا يمكننى
عمله . مادمت انت نفسك تقول ان هذه العاطفة لايمكن ان تتغير
(وتوقفت تاتيانا لحظة ، ولعلها كانت لا تزال تأمل الا يدع لتفينوف
هذه الكلمة الاخيرة تمر دون اعتراض ، ولكنه لم يقل شيئا)
اذن فليس لى الا ان ارد اليك ... كلمتك .
فحنى لتفينوف راسه ، وكأنه يتلقى فى خضوع ضربة يستحقها
كل الاستحقاق .
قال :

— لك كل الحق ان تفضبى على . لك كل الحق ان تؤنبينى
على ضعفى ... وخداعى ...
فنظرت اليه تاتيانا مرة أخرى .
— انا لم أؤنبك يا لتفينوف ، ولست اتهمك . انى أوافقك ،
فالحقيقة ، مهما تكن مرة ، اهون مما كان بالأمس . اية حياة
كانت تصير حياتنا الآن ؟
فارتد الصدى حزينا فى نفس لتفينوف :
— اية حياة تصير حياتى الآن !
وذهبت تاتيانا نحو باب المخدع :

— أسألك أن تتركنى وحدى قليلا يا جريجورى ميهاليتش .
سوف نتقابل مرة أخرى . سوف نتحدث مرة أخرى . لقد كان
هذا كله غير متوقع . يجب أن أتمالك ... اتركنى ... أبق على
كبريائى ... سوف نتقابل مرة أخرى .
وتراجعت تاتيانا مسرعة وهى تنطق بهذه الكلمات ، وأغلقت
الباب خلفها . وخرج لتفينوف الى الشارع ذاهلا مشدوها . كان
شئ أسود مر يكمن فى أعماق أعماق فؤاده — ولا بد ان هذا هو
ما يحسه الانسان الذى ذبح انسانا — وكان يشعر فى الوقت نفسه
براحة ، وكأنه ألقى عن عاتقه عبئا فظيلا . لقد سحقه نبل تاتيانا ،
وشعر فى جلاء بكل ما فقدته ... ولكن ندمه كان يمازجه سنخط .
وكان يتوق الى رؤية ايرينا التى أصبحت ملجأ الوحيد ، ولكنه
كان فى الوقت نفسه غاضبا عليها . لقد ظلت مشاعر لتفينوف

تعنف وتتعقد في هذه الايام القليلة الاخيرة حتى عذبه هذا التعقد وأخنقه . وشعر انه ضائع فيه . كان ظامئا الى شيء واحد ، ان يخرج أخيرا الى طريق ، أى طريق ، حتى لا يدور ويدور في هذه العتمة المستغلقة - ومن كان عمليا مثل لتفينوف فلا ينبغي أن تستحوذ عليه العاطفة ، لأنها تحطم فيه معنى الحياة نفسه . ولكن الطبيعة لا تبالي بالمنطق - منطقنا الانساني - لأن لها منطقها الذي لا نفهمه ولا نعترف به حتى نسحق تحت عجلته .

حين فارق لتفينوف ثانيانا لم تكن في رأسه الا فكرة واحدة : ان يرى ايرينا . فانطلق ليراها . ولكن الجنرال كان في البيت ، أو على الأقل هذا ما أخبره به البواب - فلم ينشط لتفينوف للدخول ، اذ لم يجد في نفسه القدرة على النفاق ، واتجه في ببطء نحو بهو السمر ، فقابل فوروشيلوف وبشتشالكين ، وعرف كلاهما كم كان لتفينوف عاجزا عن النفاق في ذلك اليوم ، فقد صرح الاول بأنه فارغ كالطبل ، والثاني بأنه ثقيل يزهق الروح . وكان من حسن الحظ أن بنداسوف لم يظهر فتحدث grosser scandal (١) . وارتاع كلا الشابين ، بل ان فوروشيلوف سأل نفسه أليس من الواجب أن يدعو لتفينوف الى المباراة حرصا على شرفه العسكري ؟ ولكنه كان كالضابط بتروجوف في احدى روايات جوجول ، فهذا أعصابه ببضع سندوتشات في قهوة . وأبصر لتفينوف كايبتوليننا ماركوفنا على بعد وهي تجرى في نشاط من دكان الى دكان ، وعليها شملتها المخططة ... فلذعه ضميره لمراى السيدة العجوز الطيبة المضحكة الكريمة . ثم تذكر بوتوجين وحديثهما بالإمس ... وفجأة نبهته نفحة عجيبة : شيء لا يلمس ولكن لا يخطئه الحس ، فلو أن ظلا كان شذى لما كان أرق ولا أخفى منه . وشعر لتوه أن ايرينا تقترب . وظهرت حقا على قيد خطوات منه ، وذراعها في ذراع سيدة أخرى . وسرعان ما التقت عيناهما . ولعل ايرينا لاحظت أمرا شاذا على سيمااء لتفينوف ، فوقفت أمام دكان عرضت فيه ساعات حائط خشبية صغيرة مما يصنع في الغابة السوداء ، وأومات اليه تستدنيه ، فأشارت الى احدى هذه الساعات البديعة التي يعلوها ديك ملون ، وبينما كانت تدعوه الى تأمل جمالها قالت في غير همس بل في صوتها الطبيعي ،

(١) « فضيحة كبيرة » .

وكانها تتم عبارة بداتها - فذلك أجدر ألا يلفت انتباه الغرباء :

- تعال بعد ساعة ، سأكون وحدي .

ولكن زير النساء الشهير المسيو فردييه هجم عليها في تلك اللحظة ، وراح يثنى على لون ثوبها الاصفر *feuille-morte* ، وعلى قبعتها الاسبانية القصيرة التي تكاد تسمى حاجبيها .. واختفى لتفينوف في الزحام .

كانت ايرينا تقول له بعد ساعتين ، وهى تجلس على الاريكة ، وتضع كلتا يديها على كتفيه :

- جريجورى! ما يشغلك؟ اخبرنى الآن سريعا ، ونحن وحيدان . قال لتفينوف :

- ما يشغلنى ؟ انا سعيد سعيد . هذا ما يشغلنى .

ففضت ايرينا بصرها ، وابتسمت ، وتنهدت .

- ليس هذا جوابا على سؤالى ايها الحبيب .

ففكر لتفينوف مليا :

- حسنا ، فلاخبرك اذن ... ما دمت تصرين على ذلك (فتحت

ايرينا عينيها وارتعشت رعشة خفيفة) لقد اخبرت خطيبتى امس بكل شيء .

- ماذا - كل شيء ؟ اخبرتها باسمى ؟

فرفع لتفينوف يديه مستنكرا :

- ياالله ! كيف يمكن أن تخطر لك هذه الفكرة يا ايرينا ؟ انا ..

- معذرة ... معذرة . ماذا قلت ؟

- قلت لها انى لم أعد احبها .

- وهل سألتك عن السبب ؟

- لم اخف عنها انى احب امرأة اخرى . واننا يجب أن نفرق .

- آه ! وماذا فعلت ؟ هل وافقت ؟

- اوه يا ايرينا ! يالها من فتاة ! انها عين التضحية والنبل !

- لا اشك فى ذلك ، لا اشك فى ذلك ... وان كانت لا تملك

غير هذا .

- ولا كلمة تائب ، ولا كلمة واحدة مرة ، مع انى افسدت

حياتها كلها ، وخذعتها ، ونبذتها بلا رحمة ...

وكانت ايرينا تتأمل اظافرها .

- خبرنى يا جريجورى ... اكانت تحبك ؟

- اجل يا ايرينا ، انها كانت تحبنى .

وصمتت ايرينا دقيقة ، وشدت ثوبها . ثم قالت :
 - انى لا أفهم لماذا قررت فجأة أن تصارحها بالأمر ؟
 - لماذا ؟ لا أظنك كنت تفضلين أن اكذب عايتها وأخدعها ، وهى
 الطيبة البريئة . أم كنت تظنين ...
 فقاطعت ايرينا :
 - لم أكن أظن شيئاً . يجب أن أعترف لك بأننى لم أفكر فيها
 الا قليلاً . أنا لا أحسن التفكير فى شخصين معا .
 - تعنين أن ...
 فقاطعت ايرينا مرة أخرى :
 - حسناً . ثم ماذا ؟ هل ترحل هذه الطيبة البريئة ؟
 فأجاب لتفينوف :
 - لا أعلم . يجب أن اراها ثانية . ولكنها لن تقيم .
 - آه ! مع السلامة !
 - انها لن تقيم . ولكنى لا أفكر فيها الآن ، بل أفكر فيما
 قلته لى ، فيما وعدتني به .
 فرمقته ايرينا من بين أجفانها :
 - ايها الرجل الجاحد ! ألم تقنع بعد ؟
 - لا يا ايرينا أنا غير قانع . لقد أذقتنى طعم الهناء ، ولكنى
 غير قانع . وأنت تعرفين ما أعنيه .
 - هذا ، اننى ...
 - نعم ، أنت تعرفين ما أعنيه . تذكرى كلماتك ، تذكرى ما
 كتبتة الى أنا لا أستطيع أن أقسمك مع غيرى . لا ، لا ، لن
 لعب هذا الدور الوضيع ، دور العشيق المتلصص . أنا لم ألق
 عند قدميك بحياتى وحدها ، بل بحياة أخرى معها ، لقد تخيلت
 عن كل شيء ، ولكنى واثق - مؤمن كل الايمان بأنك ازاء هذا
 ستبرين بوعدك ، وتوحدين بين حظى وحظك الى الابد .
 - أتريد أن افر معك ؟ اننى على استعداد ... (وراح لتفينوف
 يقبل يديها فى نشوة الفرح) اننى على استعداد . لن أرجع فى كلمتى .
 ولكن هل فكرت انت فى كل الصعوبات ، هل أعددت كل الوسائل ؟
 - أنا ؟ اننى لم أجد وقتاً بعد للتفكير فى شيء ، أو اعداد شيء .
 لكن قولى نعم ، دعينى أعمل ، فلا يمر شهر ...
 - شهر ! سنرحل الى ايطاليا بعد أسبوعين .

— اذن يكفينى اسبوعان . اوه يا ايرينا ! انك تقابلين اقتراحى ببرود ، ولعلك تظنينه خياليا ، ولكنى لست صيبا ، ولم اتعود ان اتلهى بالاحلام . انا اعلم انها خطوة خطيرة ، انا اعلم اى مسئولية سأتحملها ، ولكنى لا ارى طريقا آخر . فكرى فى الامر . يجب ان أقطع كل صلة بالماضى ، ولو لم يكن لهذا من سبب الا كراهة ان ابدو كذابا حقيرا فى عيني الفتاة التى ضحيتها من اجلك !

فانتفضت ايرينا فجأة وقد ومضت عيناها :

— اوه ، اما هذا فلا يا جريجورى ميهالتش ! اذا قررت هذا — اذا قررت حقا فسأفر مع رجل يفعل ذلك من اجلى ، من اجلى انا وحدى ، لا كراهة ان يسقط من عيني فتاة راكدة الطبع ، يجرى فى عروقها اللبن والماء بدل الدم ! وسأخبرك بشئ آخر : اعترف ان هذه هى اول مرة اسمع فيها ان الرجل الذى شرفته بنظراتى جدير بالاشفاق ، وانه يلعب دورا وضيعا ! انا اعرف دورا اوضع منه . دور الرجل الذى لا يدرى بما يدور فى قلبه ! فانتفض لتفينوف بدوره ، وبدأ يقول :

— ايرينا ...

ولكنها دقت جبينها فجأة بكتا يديهسا ، والقت بنفسها على صدره فى حركة تشنجية ، وراحت تعانقه بأشد من قوة الانثى ، وتقول بصوت مرتعش :

— سامحنى ، سامحنى ، سامحنى يا جريجورى ! ارأيت كم انا فاسدة ، غيور ، حاقدة ، شرسة ! ارأيت كم أحتاج الى عونك وتسامحك ! نعم ، أنقذنى ، أخرجنى من هذا المستنقع قبل ان أضيع فيه ! نعم ، تعال نفر ، نفر من هؤلاء الناس ، من هذا المجتمع ، الى بلاد بعيدة جميلة حرة ! لعل حبيبك ايرينا تكون جديرة آخر الامر بما تضحى من أجلها ! لا تقضب على ، اعف عني ايها الحبيب ، اعلم انى سأفعل كل ما تأمرنى به ، سأذهب حيث تريد !

واصطخب قلب لتفينوف ، وازدادت ايرينا التصاقا به ، بجسمها الفتى اللدن ، فانحنى على شعرها العبق الذى انسدل ، ولم يكد يجرؤ وهو فى نشوة السعادة والشكر ان يداعبه بيده ، أو يمسه بشفتيه .

ردد :

— ايرينا ، ايرينا . ياملاكى ...

فرفعت رأسها فجأة ، وانصتت ... ثم همست :
- انها خطأ زوجى ... لقد دخل حجرته . ثم عبرت الغرفة
الى كرسى آخر . وهم لتفينوف ان يقوم لينصرف ، فاستمرت
تقول هامسة :

- أين تذهب ؟ ابق . انه يرتاب فيك من الآن . أم أنت
تخافه ؟ - ولم ترفع عينيها عن الباب - نعم ، انه هو . سيدخل
بعد قليل . قل لى شيئاً ، تحدث الى - ولم يستطع لتفينوف
ان يفكر فى شيء ، فبقى صامتا . قالت بصوت عال : « ألسنت
ذاهبا الى المسرح غدا ؟ انهم يمثلون La verre d'eau ، رواية
قديمة ، وبليسى متكلفة الى درجة فظيعة . » وأضافت وهى تخفض
صوتها : « نحن أشبه بمحمومين . لا فائدة . يجب ان نفكر
جيذا . كان يجب ان أنذرك بأن تقودى كلها بين يديه » mais j'ai
mes bijoux (١) . لنذهب الى أسبانيا ، ما رأيك ؟ » وعادت
فرفعت صوتها : « لماذا تصبح كل الممثلات بدينات ؟ مادلين بروهان
مثلا ... تكلم ، لا تجلس هكذا صامتا . ان رأسى يدور . ولكن ،
ولكن يجب ألا تشك فى ... سأخبرك أين تأتى غدا . الا أنك
أخطأت بأخبار تلك الفتاة ... وصاحت فجأة : Ah, mais
c'est charmant (٢) » - ومزقت حاشية مندليها وهى تضحك ضحكة
عصبية .

سأل راتميروف من الحجرة الاخرى :

- ادخل ؟

- نعم ... نعم .

فتح الباب . وظهر الجنرال على عتبته . وحين رأى لتفينوف
عبس قليلا ، ولكنه انحنى له ، أى ثنى القسم الأعلى من شخصه
الكريم .
قال :

- لم أكن أعلم أن معك ضيفا : je vous demande pardon de mon
indiscretion (٣) اذن فما زلت تستطيب الإقامة فى بادن يا مسيو

- لتفينوف ؟

(١) « ولكن عندى الحلى »

(٢) « آه ، بديع ! »

(٣) « معذرة على تسرعى »

كان راتميروف ينطق بلقب لتفينوف في شيء من التردد دائما ، وكأنه ينسأه كل مرة ، ولا يستطيع أن يتذكره على الفور ... وبهذه الطريقة ، وكذلك برفع قبعته حين يحييه ، كان يحاول أن يجرح كبرياءه .

— انى لا أشعر بالملل هنا : M sieu de général (١)
— حقا ؟ أما أنا فأجد بادن مملة الى حد الفظاعة . اننا
سنرحل قريبا ، أليس كذلك يا ايرينا بافلوفنا ؟ assez de Bade
non (٢) مع انى ربحت لك اليوم خمسمائة فرنك .
فمدت ايرينا يدها بدلال :
— أين هي ؟ هاتها من فضلك .. لمصروفى ..
— سأعطيك اياها ، سأعطيك اياها ... أخرج هكذا سريعا
يامسيو — لتفينوف ؟

— نعم ، كما ترى .
وثنى راتميروف جسمه مرة أخرى .
— يسرنى أن أراك ثانيا !
قالت ايرينا :
— وداعا يا جريجورى ميهالتش . سأبر بوعدى .
فسأل زوجها :
— أى وعد ؟ هل لى أن أتطفل ؟
فابتسمت ايرينا :
— لا ، انه شيء كنا نتحدث عنه : c'est a' propos du voyage
où il vous plaira (٣) أتعرف كتاب ستايل ؟
— آه ! آه ! بلا شك . صور رائعة .
وبدا راتميروف على اتم وفاق مع زوجته .

(١) « يا سيدى الجنرال » .

(٢) « شعبنا من بادن » .

(٣) « موضوع السفر .. الاماكن المحبة » .

ردد لتفينوف وهو ينحدر في الشارع بخطا واسعة ، وقد احس ان الضجة الباطنة تثور فيه من جديد : « الافضل الا افكر الآن : لقد تقرر الأمر ، ستفى بوعدھا ، وما على الا أن ارتب الخطوات اللازمة .. ولكنها تبدو مترددة .. » وهز رأسه ، ولاحظ له مشروعاته ، هو نفسه ، في ضوء غريب : لقد كان فيها شيء مصطنع غير حقيقى .

ان المرء لا يستطيع أن يطيل التأمل في افكار بعينها الا الى حد محدود . فهي تتحرك تدريجيا كقطع الزجاج في كاليديوسكوب... وبينما ينظر المرء يجد الافكار التى أمام عينيه قد تغيرت تغيرا تاما . وهكذا هبط على لتفينوف احساس بالكلال .. لو استطاع أن يستريح ساعة واحدة قصيرة ! ولكن تانيا ! وايقت نفسه ، وبغير مزيد من التفكير انقلب الى مسكنه خاضعا. كان كل ماخطر فى ذهنه أنه ظل طوال اليوم يتقاذف كالكرة بين الواحدة والاخرى ... لا بأس ، فليضع للأمر حدا . وعاد الى فندقه وذهب ليرى تانيا ، لم يتردد ولم يسوف ، وهو على حاله تلك من الخضوع والخدر .

وقابلته كاييتولينا ماركوفنا . فعرف من أول نظرة أنها علمت بكل شيء . كانت عينا العانس المسكينة ورميتين من البكاء ، ووجهها المحمر الذى احاطت به خصلها البيض المشعث يعبر عن جزع وغضب وحزن وذهول . اندفعت الى لتفينوف ، ولكنها تماسكت على الفور ، ونظرت اليه وهى تعض على شفتيها المرتعدتين ، وكأنها تريد أن تضرع اليه ، وتريد مع ذلك أن تقتله ، ثم تكّد لنفسها أن الأمر كله كان جنونا ، حلما ، محالا ... أليس كذلك ؟

بدأت تقول :

— اذن فقد جئت ، جئت ...

وسرعان ما فتح باب الغرفة المجاورة ودخلت تانيا بخطا

خفيفة ، شاحبة يكاد جلدها يشف ، ولكنها على اتم الهدوء .
فأحاطت عمتها بذراعها في رقة وأجلستها بجانبها ، وقالت لتفينوف
الذى كان واقفا عند الباب كمن لا يجد نفسه :

— أجلس أنت يا جريجورى ميهاليتش . يسرنى أن أراك مرة
أخرى . لقد أخبرت عمتى بعزمك ، بل بعزمنا المشترك . وهى
تشاطرنا آياه وتقرنا عليه كل الاقرار ... لا سعادة بغير الحب
المتبادل ، أما الاحترام المتبادل فلا يكفى وحده (وغض لتفينوف
بصره بلا ارادة حين سمع كلمة الاحترام) . وخير أن نفترق الآن
من أن نندم غدا . اليس كذلك يا عمتى ؟

فبدأت كاييتولينا ماركونا تقول :

— نعم ، طبعاً يا حبيبتى تانيا . الرجل الذى لا يستطيع أن يقدرك
... الذى يبلغ به الأمر ...

فقاطعتها تاتيانا :

— عمتى ! عمتى ! تذكرى وعدك لى . لقد كنت تقولين لى
دائماً : الحقيقة ياتانيا ، الحقيقة والحرية . حسناً ، ان الحقيقة
ليست حلوة دائماً ، وكذلك الحرية ، والا ففيم فضيلتهما ؟

وقبلت كاييتولينا ماركونا على شعرها الابيض ، والتفتت الى
لتفينوف ومضت تقول :

— انى افكر انا وعتى فى الرحيل عن بادن ... ولعل هذا
أوفق لنا جميعاً .

فقال لتفينوف بصوت باهت :

— ومتى تفكران فى الرحيل ؟

وتذكر أن ايرينا سألته هذا السؤال نفسه منذ قليل .

وتحركت كاييتولينا ماركونا نحوه ، ولكن تاتيانا ردتها بلمسة
عطوف على كتفها :

— قريباً ، قريباً جداً .

وسأل لتفينوف بنفس الصوت :

— وهل تسمحين لى أن أسأل أين تنويان الذهاب ؟

— الى درسدن أولاً ، ثم لعلنا نذهب بعد ذلك الى روسيا .

فصاحت كاييتولينا ماركونا :

— ولكن ما حاجتك الآن الى معرفة ذلك يا جريجورى ميهاليتش ؟

فقاطعتها تاتيانا مرة أخرى :

- عمتى ! عمتى !
وساد صمت قصير ، ثم بدأ لتفينوف يقول :
- تاتيانا بتروفنا ، أنت تعلمين ما عسى أن تكون مشاعري
اللحظة أيلاما ومرارة ...
فنهضت تاتيانا قائلة :

- جريجورى ميهاليتش ، لن نتحدث عن ذلك ... أرجوك ،
أرجوك من أجلي ، ان لم يكن من أجلك أنت . لقد عرفتك منذ
زمن طويل ، واني لقادرة على تصور ما تشعر به الآن . ولكن
ماجدوى الكلام ؟ ماجدوى مس جرح (وأمسكت ، وكان جليبا
أنها تريد أن تكبح انفعالا مهاجما ، وأن تزدرد دموعا ثائرة . وقد
أفلحت) لماذا ننكا جرحا لا نملك دواءه ؟ دع ذلك للزمن . والآن
أريد منك شيئا يا جريجورى ميهاليتش : سأعطيك خطابا ، فليعلمك
تكرم بوضعه في البريد بنفسك ، لأنه هام ، وأنا مشغولة الآن
مع عمتى ... أكون شاكرة ... انتظر دقيقة .. سأخضره حالا .
وعند عتبة الباب التفتت تاتيانا في قلق الى كاييتولينا ماركوفنا ،
ولكنها كانت جالسة في وقار وكبرياء ، وكان على حاجبيها
المعقودين وشفتيها المزمومتين تعبير صارم ، فالتفت تاتيانا بأن
أومات اليها ايماءة ذات معنى ، وذهبت .
غير أن الباب ما كاد يفلق خلفها حتى تلاشت من وجه كاييتولينا
ماركوفنا كل آثار الوقار والصرامة . فنهضت وأسرعت على أطراف
أصابعها الى لتفينوف ، وبدأت تقول في همس مرتعش باك ، وقد
تحدثت وحاولت أن تنظر الى وجهه :

- بالله يا جريجورى ميهاليتش ، ما معنى هذا ؟ أهو حلم أم ماذا ؟
انت تهجر تانيا ، انت تملها ، انت ترجع في كلمتك ! أنت تفعل
هذا يا جريجورى ميهاليتش ، يا من كنا كلنا نثق فيه ثقة عمياء !
انت ؟ أنت ؟ أنت يا جريشا ؟ - وتوقفت كاييتولينا ماركوفنا ،
ثم مضت تقول دون أن تنتظر جوابا ، ودموعها تجرى قطرات رقيقة
على خديها : كيف ! انك تقتلها يا جريجورى ميهاليتش . لا تحكم
عليها بمسلكها الآن ، فانت تعلم أخلاقها ! انها لا تشكو أبدا ، انها
لا تشفق على نفسها . فيجب أن يشفق عليها الآخرون ! انها لا تزال
تقول لى : « يجب أن نحفظ بكبريائنا يا عمتى ! » ولكن ماذا تكون
الكبرياء حين أرى أماننا الموت ... نعم ، الموت ... (وقرقع كرسي

تاتيانا فى الغرفة المجاورة ، ومضت السيدة العجوز تقول بصوت
اشد انخفاضا) : نعم ، انى ارى الموت . كيف امكن ان يحدث
شئ كهذا ؟ اهو سحر ام ماذا ؟ لم يمض زمن طويل منذ كنت
تكتب اليها ارق الرسائل . الحق ، هل يستطيع رجل شريف ان
يسلك هذا المسلك ؟ اننى كما تعرفنى امرأة متحررة غير جامدة ،
esprit fort ، وقد ربيت تانيا هذه التربية نفسها ، فهى ايضا
حرة الفكر ...

وجاء صوت تاتيانا من الغرفة المجاورة :
- عمتى !

- ... ولكن كلمة الشرف واجب يا جريجورى ميهاليتش ،
وخصوصا عند من يؤمنون بمبادئك - بمبادئنا ! ان لم نعرف
بالواجب فماذا يبقى لنا ؟ لا يمكنك ان تخنث فى وعدك هكذا -
لمجرد نزوة - دون ان تنظر الى ما يصيب غيرك ! ان هذا مخالف
لكل مبدأ ... نعم ، انها جريمة ... نوع غريب من الحرية !
وسمع مرة اخرى :

- عمتى ، اسمحين بالمجيء هنا ؟
- انا آتية يا حبيبتى ، انا آتية ... وامسكت كاييتولينا ماركوفنا
بيد لتفينوف - ارى أنك غاضب يا جريجورى ميهاليتش ...
(واراد ان يقول : انا ! انا غاضب ؟ ولكن لسانه خرس) انا
لا اريد اغضابك - بل على العكس ! اريد ان اتوسل اليك ..
فكر قبل ان يفوت الاوان ، لا تحطمها ، ولا تحطم سعادتك أنت ،
انهما ما زالت تريد ان تثق فيك . جريشا ! انها ستصدقك ، لم
يضع شئ بعد . كيف ! انها تحبك حبا لن يمتحك احد مثله !
ارحل عن بادن - بادن الكريهة هذه ، لنرحل جميعا ، ماعليك
الا ان تنفض عن نفسك هذا السحر ، والمهم . أشفق ، أشفق ...
ونادت تاتيانا بشئ من الضجر :
- عمتى !

ولكن كاييتولينا ماركوفنا لم تسمعها .
- ما عليك الا ان تقول نعم ، وانا ارتب كل شئ ... ما عليك
الا ان تومئ لى ايماءة كهذه ايها العزيز ... ايماءة واحدة !
وشعر لتفينوف ان الموت حبيب اليه فى تلك اللحظة ، ولكنه
لم ينطق كلمة « نعم » ، ولم يومئ .

وعادت تاتيانا بخطاب في يدها . فأسرعت كاييتولينا ماركوفنا
مبتعدة عن لتفينوف ، وحولت وجهها منحنية على المنضدة ، وكأنها
تنظر فيما عليها من كشوف وأوراق .

وتقدمت تاتيانا الى لتفينوف . قالت :

— هاك الخطاب الذى تكلمت عنه ... هل تذهب به الى البريد
على الفور ؟

فرفع لتفينوف عينيه .. حقا لقد كان قاضيه ماثلا امامه .
وبدت له تاتيانا أطول مما هى وأشد نحولا ، وكان وجهها ، الذى
أشرق بجمال غير مألوف ، عظيما عظمة تماشيا من الحجر . ظل
صدرها ساكنا ، وكان رداؤها ذو اللون الواحد ، المعتدل كشملة
اغريقية قديمة ، يسقط ثنيات طويلة مستوية كثنيات الرخام على
قدميها المختلفتين تحته . وكانت تاتيانا تنظر امامها نظرة مستقيمة ،
كانت تنظر الى لتفينوف وحده ، وفى نظرتها برود وهدوء . كأنها
أيضا نظرة تماشيا . وقرأ لتفينوف فيها الحكم عليه ، فانحنى ،
وتناول الخطاب من اليد التى امتدت اليه بثبات ، وانصرف
صامتا .

وأسرعت كاييتولينا ماركوفنا الى تاتيانا . ولكن هذه صدت
عناقها وغضت بصرها ، وغشى وجهها احمرار ، ومضت الى مخدعها
وهى تقول : « يجب أن نسرع الآن » وتبعتها كاييتولينا ماركوفنا
مطرقة الرأس .

كانت الرسالة التى عهدت بها تاتيانا الى لتفينوف موجهة الى
احدى صديقاتها فى درسدن ، وهى سيدة المانية تؤجر مساكن
مفروشة . وألقى لتفينوف الرسالة فى صندوق البريد ، وخيل
اليه انه يلقي مع هذه القصاصة الصغيرة ماضيه كله ، بل حياته
كلها — الى المقبرة . فخرج الى ظاهر المدينة ، وظل يتجول فى
ممرات ضيقة بين بساتين الكروم ، ولم يستطع أن يتخلص من
شعور باحتقار النفس كان يلح عليه كطنين ذبابة صيف . لقد كان
الدور الذى مثله فى هذا اللقاء الاخير دورا لا يحسد عليه ...
ولما عاد الى فندقه ، وسأل بعد قليل عن السيدتين ، قيل له انهما
امرتا ساعة خروجه بمركة تقلهما الى محطة السكة الحديدية ،
ورحلتا فى قطار البريد الى وجهة غير معلومة . وكانت أمتعتهم
معدة منذ الصباح ، وتذكراتهما مدفوعة ، وكان جليا أن تاتيانا
سألت لتفينوف أن يحمل خطابهما الى البريد لئلا تبعده عن

سبيلهما . وتجاسر على سؤال البواب : هل تركت له السيدتان
أى خطاب ؟ فأجابه بالنفى ، وأظهر الدهشة ، فقد بدا له هذا
الرحيل المفاجيء ، بعد استئجار المسكن أسبوعا ، أمرا غريبا .
يدعو الى الريبة . فأولاه لتفينوف ظهره ، واعتكف فى حجرته .
ولم يفادرها حتى اليوم التالى ، وقضى معظم الليل جالسا الى
المنضدة يكتب ، ويمزق ماكتب ... وكان الفجر قد بدا يلوح حين
فرغ من عمله - كان خطابا الى ايرينا .

وهذا ما كان فى خطابه الى ايرينا :

« لقد رحلت خطيبتى امس ، ولن نلتقى بعد الآن ... بل انى لا أعلم علم اليقين اين تعيش بعد اليوم . لقد اخذت معها كل ما كان عزيزا لى حتى الآن . لقد ذهبت معها كل افكارى وخططى وحياتى السابقة ، لقد ضاعت جهودى ، وانتهى عمل السنين الى لا شىء ، ولم يعد لكل ماسعيت اليه معنى ولا فائدة . مات كل ذلك . نفسى ، ذاتى القديمة دفنت منذ الامس . انى اشعر بذلك واره واحسه فى وضوح ... ولست آسفا عليه ، ولست أقول لك هذا شاكيا . وكيف اشكو وانت تحبيننى يا ايرينا ! انما اردت ان اخبرك بانه لم يبق من كل هذا الماضى الميت ، من كل هذه الآمال والجهود التى اصبحت دخانا ورمادا - لم يبق حيا قاهرا الا حبى لك . لم يبق لى شىء سوى ذلك الحب : وقليل ان اقول انه كنزى الوحيد . فان كيانى كله فى ذلك الحب . ان ذلك الحب هو كل وجودى . ان فيه مستقبلى . وعملى . وبلادى . وكل مقدس عندى ! انت تعرفيننى يا ايرينا . انت تعرفين انى لا احسن الكلام المنمق ، بل اكرهه . فمهما تكن قوية تلك الكلمات التى احاول التعبير بها عن شعورى فلا ترتابى فى صدقها ، ولا تحسبى ان فيها شيئا من المبالغة . لست صبيبا يتمم امامك فى فورة النشوة الطارئة بعهود لايعى معناها ، ولكنى رجل ناضج السن يخبرك فى بساطة ووضوح - بل فى ذعر - بما عرف انه الحقيقة التى لا مناص منها . اجل ، ان حبك قد حل عندى محل كل شىء - كل شىء ، كل شىء ! فاحكمى انت : الاستطيع ان ادع كلى هذا بين يدى رجل آخر؟ انت - ستكونين ملكه . كل وجودى ودم قلبى سيكون ملكه - وانا ... اين انا ؟ ما انا ؟ غريب - متفرج ... اتفرج على حياتى نفسها ! كلا ان هذا محال . محال ! اقتسم فى الخفاء ذلك الذى تغدو الحياة بدونه عبثا ومحالا ... هذا هو الفش والموت . انا اعلم عظم التضحية التى اسالك اياها

بغير حق ، وما الذى يمنح المرء حقا فى التضحية ؟ ولكنى لست
أنانيا حين أفعّل ذلك . فالأنانى يرى الأسهل والأسلم ألا يثير هذه
المسألة على الإطلاق . أجل . ان مطالبى باهظة ، ولن أدهش اذا
أخافتك . فانت تكرهين الناس الذين تعاشرينهم مضطرة ، وانت
قد سئمت المجتمع ، ولكن هل لديك من القوة ما يمكنك ان تطرحى
هذا المجتمع ، ان تدوسى تحت قدميك الفوز الذى توجك به ،
ان تثيرى عليك الراى العام - رآى هؤلاء القوم الذين تكرهينهم ؟
سلى نفسك يا ايرينا . لا تحملى نفسك عبئا أعظم مما تطيقين .
أنا لا أريد أن أبكتك . ولكن تذكرى انك عجزت مرة عن الصمود
للاغراء . انا لا أستطيع أن أقدم اليك أزاء كل ما تفقدينه سوى
القليل . اسمعى كلمتى الاخيرة : ان كنت لا تجددين من نفسك
القدرة غدا - بل اليوم - على أن تتركى كل شىء وتتبعينى - انت
ترين جسارتى فى التعبير ، واصرارى فى الطلب - ان كنت تخشين
المستقبل المزعزع ، ان كنت تخشين ألفربة ، والوحشة ، واحتقار
الناس ، ان لم تكونى واثقة من نفسك - فصارحينى بذلك ولا
تمهلئ . صارحينى فأرحل عنك . سأرحل بقلب كسير ولكنى
سأباركك لصدقك . أما ان كنت يامليكتى الجميلة الباهرة تحبين
حقا هذا الرجل الخامل المتواضع ، وترغبين حقا أن تشاركيه فى
حظه ، فهاتى يدك اذن ، وهيا ننطلق سويا فى رحلتنا الشاقة !
ولكن اعلمى أن عزمى لن يتغير . فاما كل شىء واما لا شىء .
انه جنون .. ولكنى لا أستطيع غيره - لا أستطيع يا ايرينا !
حبى لك فوق ذاك .

حبيبك « ج . ل »

لم يرض لتفينوف كثيرا عن هذه الرسالة . فانها لم تصور ما
أراد أن يقوله تصويرا صادقا كل الصدق ، ولا دقيقا كل الدقة .
وكانت فيها عبارات قلقة ، أشبه بما فى الكتب ، أو أقرب الى
المبالغة . وكانت - بلا شك - لا تفضل كثيرا من الرسائل التى
مزقتها ، ولكنها كانت آخر هذه الرسائل ، وكانت النقطة
الاساسية مقررة فيها تقريريا واضحا على كل حال ، ولم يشعر
لتفينوف وهو فى ألمه واعياؤه بمقدرة على اقتلاع شىء آخر من
رأسه ، ثم انه لم يكن يملك القدرة على وضع أفكاره فى صورة
أدبية ، وكان - ككل من لا يمارسون الكتابة - يحتفل كثيرا
للأسلوب . ولعل رسالته الاولى كانت أحسن رسائله ، اذ كانت

صادرة من قلبه ، وعلى كل حال فقد بعث لتفينوف برسالته الى ايرينا .

وأجابت بكلمة قصيرة :

« تعال الى اليوم . انه سيفيب طول النهار . لقد أزعجنى خطابك جدا . انى أفكر وأفكر ... ورأسى يدور من التفكير . انى فى هم شديد . ولكنك تحبى . وأنا سعيدة ... تعال . »
حبيبته « ا »

كانت جالسة فى مخدعها حين دخل لتفينوف . قادته اليه البنت الصغيرة ذات الثلاثة عشر عاما ، تلك التى ترقبته فى اليوم السابق على الدرج . وكان على المنضدة المواجهة لايرينا صندوق من الورق المقوى شبه دائرى فيه وشى . وكانت تلف الوشى باحدى يديها فى غير عناية ، وتمسك بالآخرى خطاب لتفينوف . وكانت قد كفت عن البكاء ولما تكد ، فأهدابها مخضلة ، وأجفانها ورمة ، وعلى خديها آثار الدموع لم تكفكف . ووقف لتفينوف ساكنا بالباب فلم تلحظ دخوله .

قال متعجبا :

— أتبكين ؟

فريعت . وأمرت يدها على شعرها . وابتسمت .
وأعاد لتفينوف :

— لماذا تبكين ؟

فأشارت الى الرسالة فى صمت . فنطق متلعثما :

— اذن فقد كنت ... لتلك ..

قالت :

— تعال . اجلس . هات يدك . اجل . لقد كنت أبكى . مم

تعجب ؟ أهذا قليل ؟

وأشارت الى الرسالة ثانية .

وجلس لتفينوف :

— أعلم أن الأمر غير يسير يا ايرينا . وأنا أقول هذا فى رسالتى انى أفهم موقفك . ولكن ان كنت تعرفين ما يعنيه حبك لى ، ان كانت كلماتى قد أقنعتك ، فلا بد أنك تفهمين أيضا ما أشعر به الآن لمرأى دموعك . لقد جئت الى هنا كرجل يساق الى المحكمة ، وانى لانتظر قضائى : الموت أم الحياة ؟ ان جوابك يقرر كل شىء . لكن لا تنظرى الى بهاتين العينين ... أنهما

تذكرانى بالعينين التين رايتهما قديما فى موسكو .
فاحمر وجه ايرينا فجأة ، والتفتت ، وكأنها شعرت هى نفسها
بنذير شؤم فى نظرتها .

- لماذا تقول ذلك يا جريجورى ؟ واخجلتاه ! تريد ان تعلم
جوابى ... أتعنى انك تستطيع ان ترتاب فيه ؟ تزعجك دموعى ...
ولكنك لا تفهمها . ان رسالتك - يا أعز عزيز - جعلتنى أفكر .
هأنت تقول ان حبي شغل كل مكان عندك ، حتى دراساتك السابقة
ان تكون لها فائدة بعد الآن ، ولكنى اسائل نفسى : اىستطيع
الرجل ان يعيش للحب وحده ؟ الا يمل الحب آخر الأمر ، الا
يتوق الى العمل ، ويلوم ذلك الذى انتزعه منه ؟ هذه هى الفكرة
التي تفرغنى ، هذا هو ما أخافه ، لا ذلك الذى كنت تتخيله .
وأطال لتفينوف النظر الى ايرينا ، وأطالت النظر اليه ، كأن كلا
منهما يريد أن ينفذ الى أغوار نفس صاحبه ، الى أغوار لاتصل
اليها الكلم ، ولا تنم بها الكلم .
ثم بدأ لتفينوف يقول :

- أنت مخطئة اذ تخافين ذلك . لابد انى أسأت التعبير . الملال؟
الخمول ؟ مع القوة الجديدة التى يبعثها فى حبك ؟ أوه يا ايرينا ،
انى أجد حبك عالما بأسره ، ولا أستطيع انا نفسى ان أنتبأ بما
يكمن فيه .

وفكرت ايرينا ، ثم همست :

- أين تذهب ؟

- أين ؟ سنتحدث عن ذلك فيما بعد . ولكنك اذن ... اذن
توافقين ؟ أتوافقين يا ايرينا ؟
فنظرت اليه :

- وتكون سعيدا ؟

- أوه يا ايرينا !

- ولا تأسف على شيء ؟ أبدا ؟

وانحنت على صندوق الورق ، وبدأت تنظر مرة أخرى الى ما
فيه من وشى . قالت :

- لا تفضب يا حبيبى لأنى أشغل نفسى بهذه التوافه فى مثل
هذه اللحظة ... انى مضطرة لان اذهب الليلة الى حفلة رقص فى
منزل سيدة من السيدات ، وقد جاءتنى هذه الزبوق ، وعلى أن
أختار شيئا منها اليوم .

وصاحت فجأة :

- آه ، ما أتعسنى !

ووضعت رأسها على حافة الصندوق . وجعلت الدموع تنحدر
من عينيها ثانية ... فالتفتت ، قد تفسد الوشى الدموع .

وبدا لتفينوف يقول فى قلق :

- ايرينا ! اتيكين ثانية ؟

- فقاطعت ايرينا مسرعة :

- اجل ثانية . اوه يا جريجورى ! لا تعذبني . لا تعذب نفسك !
فلنكن احرارا ! لم لا ابكى ؟ وهل اعلم انا فى الحقيقة لماذا تسيل
دموعى ؟ انت تعرف قرارى . لقد سمعته . وانت تعلم انه لن
يتغير . انى اوافق على ... كيف قلت ؟ اما كل شىء او لاشىء ...
ماذا تريد اكثر من هذا ؟ فلنكن احرارا ! لماذا تضع القيود حولنا ؟
نحن وحيدان الآن . وانت تحبني . وانا احبك . فهلا نجد لنا
شغلا خيرا من التفتيش فى ضمائرنا ؟ انظر الى . انا لا اريد ان
أتحدث عن نفسى . انا ما اشرت بكلمة واحدة الى انه ربما لم
يكن سهلا على ان ادوس على واجبي كزوجة ... ولا اخدع نفسى .
فانا اعلم انى مجرمة . وانه يحق له ان يقتلنى . ولكنى لا ابالى .
فلنكن احرارا . العمر يوم ...

ونفضت عن كرسيها . ونظرت الى لتفينوف من عل ، وهى
تبتسم ابتسامة خفيفة ، وتضيق عينيها ، بينما كانت تزيح عن
وجهها ، بذراع عارية حتى الكوع ، خصلة طويلة لمعت عليها
عبرات قليلة . وانزلت عن المنضدة وشاح ثمين . وسقط على
الارض عند قدمي ايرينا . فداسته باحتقار .

- ام انت لا تحبني اليوم ؟ هل اصبحت قبيحة منذ امس ؟
خبرنى : ارايت اجمل من هذا الذراع ؟ وهذا الشعر ؟ خبرنى :
أتحبني ؟

وضمته بكلتا ذراعيها . وضفطت رأسه على صدرها . وسقط
عشطا يرن . وغطاء شعرها المتهدل كموجة ناعمة فواحة .

كان لتفينوف يقبل ويدبر في غرفته بالفندق وهو مطرق يفكر . أصبح الواجب أن ينتقل من النظرية الى التطبيق ، وأن يدبر الطرق والوسائل للهرب والرحيل الى بلاد مجهولة . ولكن العجيب أنه لم يكن يفكر في الطرق والوسائل بقدر ما كان يفكر هل وصل حقا وبلا أدنى ريب الى القرار الذي أصر عليه ذلك الاصرار؟ هل قيلت الكلمة الأخيرة التي لا يمكن أن تسترد ؟ لاشك أن ايرينا قالت له حين فارقه : « رتب كل شيء . ومتى أصبحت مستعدا فما عليك الا أن تخبرنى . » إذن فالأمر مقرر . ولا محل للشك ! إذن فعليه أن يبدأ في مهمته . وقد بدأ لتفينوف مهمته بالتفكير المنظم . أولا النقود . وقد وجد لتفينوف أن بيده من النقود ١٣٢٨ جلد ، أى ٢٨٥٥ فرنك بالعملة الفرنسية . وهو مبلغ صغير ، ولكنه يكفى حاجتهما الاولى . ثم عليه أن يكتب الى أبيه ليرسل اليه كل ما يستطيع . فليبع الغابة وجزءا من الأرض . ماعسى أن تكون حجته ؟ حسنا . سيجد حجة مناسبة . لقد اشارت ايرينا الى حلها . هذا صحيح ولكن هذه الحل لا ينبغي أن تدخل في حسابه مهما تكن الاسباب . فمن يدري ؟ قد تنفع في أزمة . وكانت له غير ذلك ساعة سويسرية جيدة ، يمكنه أن يأخذ فيها ... لنقل ... فرنك .

وذهب لتفينوف الى مصرفي وسأله - بعد لف ودوران - هل يمكنه أن يقرض نقودا ؟ ولكن الصيارفة في بادن تعالب مسنة حذرة . فهم يجيبون على هذه المداورات بأن يتظاهروا على الفور بالذبول والأسى كزهرة برية حزها المنجل . وبعضهم يضحك في وجهك دون مداورة ، وكأنما أعجبتهم هذه الدعاية البريئة منك . وبا لخزى لتفينوف اذ جرب حفظه على الروليت . حتى الروليت . يا للعار ! فوضع تالرا على رقم ثلاثين ، وهو الرقم الذى يوافق عمره . وكان يريد أن يزيد رأس ماله و « يقفله » . ومع أنه لم يزد رأس ماله فقد « أقفله » حقا اذ فقد الثمانية والعشرين جلدا الزائدة .

وكانت المسألة الثانية الهامة هي مسألة جواز السفر . ولكن جواز السفر للمرأة لم يكن ضرورة لا يمكن التجاوز عنها . وكانت هناك بلاد لا تحتاج اليه مطلقا مثل بلجيكا وانجلترا . ثم ان من المستطاع الحصول على جواز غير روسي . فكر لتفينوف في ذلك كله تفكيرا عميقا ، وكان عزمه ثابتا لا يتزعزع ، على ان شيئا اقرب الى الهزل منه الى الجد كان لا ينفك يتسلل الى افكاره ، وكان الامر كله مهزلة ، وكان احدا لم يفر مع احد قط في الواقع ، بل في التمثيليات والقصص ، او ربما في أعماق الريف ، في مجاهل روسيا ، حيث يمرض الناس من السأم وحده كما روى بعض المسافرين . وتذكر لتفينوف كيف هرب احد أصدقائه - باتسوف - وكان ضابطا متقاعدا من سلاح الفرسان - مع ابنة أحد التجار في عربة بريد بأجراس وترويك (١) ، بعد ان مهد لذلك باسكار أبويها ، واتبع الخطة نفسها مع العروس ، ركيف ظهر فيما بعد انه هو الذي خدع ، وكاد يضرب فوق ذلك . وضاق لتفينوف بنفسه ضيقا شديدا لهذه الخواطر النائية ، وتذكر تاتيانا ، ورحيلها المفاجيء ، وكل ذلك الحزن والبلاء والخزي ، فشعر شعورا اليما بأن الامر الذي يستعد له أمر جدى فظيع ، وبأنه كان محقا حين أخبر ايرينا بأن الشرف نفسه لا يدع له سبيلا آخر... واذا به مرة أخرى يلتف على قلبه شيء كالنار لمجرد ذكر اسمها ، ثم يسكن تاركا فيه ألما حلوا .

وسمع وقع حوافر جياد من ورائه... فانتحى ناحية . وأدركته ايرينا على ظهر جواد ، وقد ركب بجانبها الجنرال السمين . فعرفت لتفينوف ، وأومات اليه ، والهبث حصانها بضربة من سوطها على جنبه ، فعدا قليلا ثم مرق فجأة في سرعة خاطفة ، وهفهم نقابها الأسود مع الريح .

وصاح الجنرال :

— Pas si vite, nom de Dieu ! Pas si vite ! (٢) .

وركض خلفها .

(١) ثلاثة من الخيل في صف .

(٢) « لا تسرعى هكذا ! لا تسرعى هكذا بحق الله ! » .

في الصباح التالي كان لتفينوف عائدا من عند المصرفي ، بعد أن تحدث معه مرة أخرى عن تقلقل شعر عملتنا في السوق الدولية ، وخير الوسائل لارسال النقود الى الخارج ، فسلمه بواب الفندق خطابا . وعرف لتفينوف خط إيرينا ، فذهب الى حجرته دون أن يفرض الخاتم . وقد وقع في نفسه - لسبب لا يعلمه الا الله - أن ليس وراء هذا الخطاب خير . وكان هذا ما قرأه (كان الخطاب بالفرنسية) :

«يا أعز حبيب ، لقد أمضيت الليل كله أفكر في خطتك ... اني لا أريد أن أخدعك . لقد كنت صريحا معي ، فلأكن صريحا معك . اني لا أستطيع الفرار معك . ليست لدى القوة لأفعل ذلك . اني أشعر بعمق أساءتي اليك - ان ائمتي في الثانية الأكبر من ائمتي في الاولى - اني أحتقر نفسي ، وجبنى ، وأؤنب نفسي بمرارة ، ولكني لا أستطيع أن أغير طبيعتي . عيشا أقول لنفسي اني حطمت سعادتك ، وانك محق الآن في أن تعيدني لعوبا ذات نزوات ، وانى انا التى منيتك ووعدتك أوثق الوعود .. انى مليئة رعبا وكراهية لنفسي ، ولكنى لا أستطيع أن أفعل غير ما افعله ، لا أستطيع ، لا أستطيع . أن أبرئ نفسي ، لن أقول لك انى انا ايضا كنت مدفوعة بعاطفتى ... فهذا كله لا قيمة له ، ولكنى اريد أن أقول لك ، وأكرر مرة بعد مرة ، انى لك ، لك الى الأبد ، فافعل بى ماشئت ، متى شئت ، بلا شروط ، ولا قيود ! انى لك ... أما أن أفر ، وأرمى كل شئ ... فلا ! لا ! لا ! لقد توسلت اليك أن تنقذنى . لقد رجوت أن امحو كل شئ ، أن ألقى الماضى في النار . ولكنى لا أرى لى خلاصا . انى أرى السم قد بلغ أعماقى ، انى أرى الانسان لا يستطيع أن يتنفس في هذا الجو سنوات دون أن يتلوث به . لقد ترددت طويلا قبل أن أكتب اليك هذه الرسالة ، فأنا أخاف قرارك ، ولا أعتمد الا على حيك لى . ولكنى رايت من الخيانة أن أخفى عنك الحقيقة - وبخاصة أن لعلك بدأت تعمل

لننفذ خطتك . آه ! لقد كانت حلوة ، ولكنها مستحيلة ! أود
ياحبيبي ! اعتبرني امرأة ضعيفة نزقة ، احتقرني ، ولكن لا تهجرني ،
لا تهجر حبيبك ايرينا ! .. ليست لي القوة على أن أفارق هذه
الحياة ، ولا القدرة على أن أعيشها بدونك ! سنعود بعد قليل الى
بطرسبرج ، فتعال هناك ، عش هناك ، سنجد لك عملا ، ولن
تضيع جهودك الماضية ، ستجد لها مجالا مفيدا .. ولكن عش
بقربي ، أحبنى كما أنا ، بكل ضعفى ورذائلى . وثق انك لن تجد
قلبا يخلص لك أو يحنو عليك حنو حبيبك ايرينا ! تعال الى
بأسرع ما تستطيع ! لن أجد لحظة راحة حتى أراك - حبيبك ،
حبيبك ، حبيبك :

« أ »

اندفع الدم الى رأس لتفينوف بضربات مطرقة ، ثم غاص الى
قلبه بطيئا ثقيلًا ، وبقي هناك كصخرة لا تتقلقل . قرأ رسالة
ايرينا ثانية ، وكما حدث تلك المرة في موسكو ، انطرح على الاركة
ذاهب القوة . وظل راقدا بدون حراك ، وكأنما انفجرت حوله فجأة
هوة مظلمة ، فراح يحدق في ذلك الظلام بذهول وقنوط . هكذا
مرة أخرى .: الخديعة مرة أخرى ، بل شر من الخديعة : الخيانة
والضعة .. حياته تحطمت ، وكل شيء اجث من جذوره ، والشيء
الوحيد الذى استطاع أن يتعلق به ، ذلك السند الاخير قد تفتت
أيضا ! جعل يردد بضحكة مرة : « تعال وراءنا الى بطرسبرج .
سنجد لك عملا ... يعينونى رئيس كتبة مثلا ؟ ومن (هم) الذين
سيجدون لى عملا ؟ هاهنا ماضيها طافيا الى السطح ، ذلك الماضى
الخفى المروع الذى لا أعلمه ، والذى كانت تحاول أن تمحوه .
وأن تلقى به فى النار . هاهنا عالم المؤامرات ، والعلاقات السرية .
والقصص السوداء عن بيلسكى ودولسكى .. وأى مستقبل ! أى
دور رائع ينتظرني ! أن أعيش بقربها ، وأزورها ، وأشاطرها كآبة
الانحلال ، كآبة سيدة المجتمع التى تضجر بالمجتمع وتسأمه ،
ولكنها لا تستطيع أن تعيش خارج دائرته . وأصبح صديق الأسرة .
وطبعا صديق سعادته ... الى ... الى أن تتغير النزوة ، ويفقد
العشيق الشعبى طعمه الحريف ، فيحل محله الجنرال السمين أو
السيد فيكوف - هذا ممكن ، وممتع ، ولعله مفيد أيضا ...
انها تتحدث عن « المجال المفيد » لكفاءتى ! أما الخطأ الاخرى
فهى مستحيلة ! مستحيلة ! . »
وهبت فى نفس لتفينوف لفحات دفيئة من الفضب ، كأنها

الانواء قبل العاصفة .. احنقته كل عبارة في رسالة ايرينا ، حتى
تأكيدا لعواطفها الدائمة غاضبه واضجره . واخيرا صاح :

- لن يمر الأمر هكذا ! لن تلعب بحياتي هكذا دون رحمة !
ووثب لتفينوف وأختطف قبعته . ولكن ماذا يجب عليه ان
يفعل ؟ يهرع اليها ؟ يجيب على خطابها ؟ توقف ، واسترخت يدها :
اجل ، ماذا يجب عليه ان يعمل ؟

الم يعرض عليها ، هو نفسه ، ذلك الاختيار الفاصل ؟ ان الأمر
لم ينته كما أحب ، وهذا خطر كل اختيار . لقد غيرت رأيها ،
هذا حق . لقد أعلنت هي نفسها أول الأمر أنها تود أن تترك كل
شيء وتتبعه ، هذا حق أيضا ، ولكنها لم تنكر خطأها ، بل زعمت
أنها امرأة ضعيفة ، لم ترد أن تخدعه ، ولكنها خدعت في
نفسها .. فأى جواب يقال لمثل هذا الكلام ؟ انها لم تنافقه على
كل حال ، لم تخدعه .. بل كانت صريحة ، صريحة بلا حرج . لم
تكن مضطرة الى مكاشفته على الفور ، ولم يكن ثمة ما يمنعه من
تعليله بالوعود ، وارجاء الأمور ، وتركه في الظلام الى يوم رحيلها .
رحيلها هي وزوجها الى ايطاليا . ولكنها حطمت حياته ، حطمت
حياتين .. حسنا ، ليس هذا بالأمر الغريب .

وليست هي التي ظلمت تاتيانا . لقد كان هو الظالم ، هو
لتفينوف وحده ، ولا يحق له أن يتخلص من المسؤولية التي ألغها
اثنه على كاهله نيرا من حديد ... هذا كله حق ، ولكن ماذا بقي
له أن يفعل الآن ؟

وارتمى على الاركة ثانية ، وعادت اللحظات تتراكم في سرعة
نهمة ، مظلمة لا معنى لها ، غير تاركة وراءها اثرا .

وومض في ذهنه : « لم أفعل ما تقول ؟ انها تحبني ، انها لي .
أليس ثمة شيء محتوم لا يقاوم ، كأنه القانون الطبيعي ، في اندفاع
كل منا الى الآخر ، في هذه العاطفة الشديدة التي اشتعلت بعد
سنين كثيرة ، وفرضت سلطانها بقوة القاهرة ؟ اعيش في بطرسبرج ..
لن أكون الأول في هذا الوضع ، ثم أين كان يمكننا أن نجد وطننا ،
انا وهي ؟ .. »

وسبح في الاحلام ، وتمثلت له صورة ايرينا كما انطبعت في ذاكرته
الى الأبد خلال هذه الايام القليلة ... ولكن ذلك لم يدم طويلا ،
فسرعان ما أفاق لنفسه ، وبفورة جديدة من الغضب طرد الذكرى
من مخيلته ، ومع الذكرى صورتها الساحرة .

صاح : أنت تقدمين الى تلك الكأس الذهبية لأشرب منها ،
ولكن فى هذه الجرعة سما ، وجناحك الابيضان ملطخان بالوجل .
اغربى عنى ! ابقى معك هنا بعد أن .. بعد أن طردت خطيبتى ..
يا للعار ! يا للعار ! وعصر فى سورة الألم يديه ، وانبعث من
الاعماق وجه آخر قد انطبعت على ملامحه الهادئة سيماء الآله .
وبدا فى عينيه المودعتين تائب إياكم .

وتحمل لتفينوف هذا البلاء طويلا . ظل فكره المعبذب يتقلب من
جنب لجنب كالمحموم .. حتى هذا ، واستقر على عزم . لقد
كان يشعر منذ اللحظة الاولى ماذا سيكون قراره ... لقد بدا له
أول الأمر نقطة نائية لا تكاد تبين وسط دوامة مظلمة من صراعه
الباطنى ، ثم لم تزل النقطة تقترب وتقترب حتى شقت قلبه
بنصل بارد كالثلج .

جر لتفينوف صندوقه من الركن مرة أخرى ، وجمع متاعه فى
غير عجلة - بل فى نوع من العناية البليدة - ثم طلب خادم
الفندق ودفع حسابه ، وأرسل الى إيرينا ورقة بالروسية هذا
مضمونها :

« لست أدري أتسيئين الى اليوم إساءة أعظم من إساءاتك
الأولى ، ولكنى أدري أن هذه الضربة لا تقاس شدتها بتلك ...
انها النهاية . تقولين لى : « أنا لا أستطيع ... » وأكرر لك :
أنا لا أستطيع .. فافعل ما تشائين . أنا لا أستطيع ولا أريد .
لا تجيئينى . انك عاجزة عن أن تقدمى الى الجواب الوحيد الذى
أرضاه . سأرحل صباح الغد بأول قطار . وداعا ، وسعدت ! لا
أظن أننا سنلتقى مرة أخرى . »

ولم يفادر لتفينوف حجرته حتى هبط الليل ، ولعله كان ينتظر
شيئا . الله وحده يعلم . وحول الساعة السابعة مساء اقتربت
من درج فندقه سيدة فى شملة سوداء وعلى وجهها نقاب . اقتربت
من الدرج مرتين . ثم ابتعدت بضع خطوات وبعد أن حددت برهة
فى الفضاء لوحت بيدها فى عزم ، واتجهت للمرة الثالثة الى الدرج .
وإذا بصوت مشدود ينطق خلفها :

- أين تذهبين يا إيرينا بافلوفنا ؟
فالتفت بسرعة عصبية ... كان بوتوجين مسرعا اليها .
فوقفت وفكرت لحظة . ثم اندفعت اليه ممسكة بذراعه ، وشده
وهى تردد مبهورة الانفاس :

- خذنى بعيدا . خذنى بعيدا !
 فتمتم فى دهشة :
 - ماذا أصابك يا إيرينا بافلوفنا ؟
 فكررت بقوة مضاعفة :
 - خذنى بعيدا ، ان كنت لا تريد ان أبقي الى الأبد ... هناك !
 فحنى بوتوجين رأسه طائعا . وأسرها مبتعدين معا .
 وفى بكرة اليوم التالى كان لتفينوف على اهبة الرحيل حين دخل
 الى حجرته ... بوتوجين .
 اقترب منه فى صمت . وفى صمت صافحه . ولم يتكلم لتفينوف
 أيضا : كان كلاهما يحاول عبثا أن يبتسم .
 . وأخيرا أخرج بوتوجين من فمه :
 - انى جئت أتمنى لك رحلة طيبة .
 فسأل لتفينوف :
 - وكيف علمت انى راحل اليوم ؟
 ونظر بوتوجين الى أرض الحجرة حوله ...
 - عندى علم بذلك ... كما ترى . ان محادثتنا الاخيرة قد
 اتجهت وجهة غريبة عند النهاية .. فلم أرد أن أفارقك دون ان
 أهب عن شعورى الطيب الصادق نحوك .
 - اهذا شعورك الآن ... وأنا راحل ؟
 فنظر بوتوجين الى لتفينوف بحزن وبدأ يقول بزرقة قصيرة :
 - آه يا جريجورى ميهالتش ! لم يبق وقت للمداورة والمحاورة .
 انى لم أرك تعنى كثيرا بأدبنا القومى ، ولعلك لم تسمع عن
 فاسكابوسلايف ؟ ..
 - عمن ؟
 - عن فاسكابوسلايف بطل نوفجورود - فى مجموعة كرشا
 دانييلوف .
 فقال لتفينوف وقد شعر ببعض الحيرة لذلك الاتجاه المفاجئ فى
 الحديث :
 - من بوسلايف ؟ انا لا أعرف عنه شيئا .
 - لا بأس . هذا ما أردت أن أنبهك اليه : بعد ان رحل
 فاسكابوسلايف بأتباعه من اهل نوفجورود حاجين الى بيت المقدس ،
 وروونهم بأنه لا يؤمن بالقأل ولا الرؤيا ولا الزجر - تسلق هذا
 المنطقى فاسكابوسلايف جبل طابور . وكان على قمة ذلك الجبل

صخرة عظيمة ، حاول الناس من كل جنس أن يثبوا فوقها... وأراد فاسكا أن يجرب حظه أيضا . فصادف في طريقه رأس ميت - جمجمة آدمية - فرفسها بقدمه . فقالت له الجمجمة : « لم ترفسنى ؟ لقد عرفت كيف أعيش . واني لأعرف كيف أتدحرج في التراب - وسوف يصيبك ما أصابني . » ثم وثب فاسكا فوق الصخرة . ولما كاد يعبرها . عثرت قدمه ، وتهشمت جمجمته... بهذه المناسبة يجب أن أشير الى أن أصدقاءنا السلافيون ، المفرمين برفس الرؤوس الميتة والقوميات التي دب فيها الفناء ، يجدر بهم أن يفكروا في تلك الاسطورة .

فقاطعه لتفينوف بصبر نافذ :
- ولكن ما الذي ترمى اليه ؟ معذرة . لقد حان الوقت ...
فاجاب بوتوجين وقد التمتعت عيناه بمعطف شديد لم يكن لتفينوف ينوقه منه :

- كيف ؟ الذي أرمى اليه هو الا ترفس رأس انسان ميت ، لعل طيبة قلبك تيسرك للوثوب فوق الصخرة القاتلة . لن استبقيك أكثر من هذا . ولكن دعني أعانقك قبل رحيلك .
فقال لتفينوف وهو يقبل بوتوجين القبلات الثلاث التقليدية :
- بل لن أحاول الوثوب !
وذابت لحظة تلك الاحساسات المرة التي كانت تغمر قلبه في شفقة على الرجل الشقي الوحيد .

- ولكن يجب أن اذهب الآن . يجب أن اذهب ...

وأخذ يدور في الحجرة . فتطوع بوتوجين قائلا :
- هل أحمل عنك شيئا ؟

- لا . شكرا لك . لا تتعب نفسك . يمكنني ...

ولبس قبعته ، وحمل حقيبته . وسأل وهو يقف بالباب :
- أتقول أنك رأيتها ؟

- نعم رأيتها .

- حسنا ... كيف هي ؟

فصمت بوتوجين لحظة .

- لقد كانت تنتظرك أمس ، وسوف تنتظرك اليوم .

- آه ! قل لها ... لا ، لا ضرورة ... لا ضرورة لأن تقول

شيئا ...

وداعا ... وداعا !

- وداعا يا جريجورى ميهالتش .. دعنى أقول لك كلمة واحدة
أخيرة . مازال لديك بعض الوقت لتسمعنى ، فقطارك لن يتحرك
قبل نصف ساعة . أنك عائد الى روسيا .. وستعمل هناك ..
عندما يتون الاوان . فاسمح لثراثر عجوز - فلست مع الاسف
الا ثراثرا - كى يقدم اليك نصيحة قبل ذهابك . كلما شرعت فى
عمل جديد فاسأل نفسك : هل تخدم بهذا العمل قضية المدنية
بالمعنى الدقيق الصحيح لهذه الكلمة ؟ هل تسعى لتحقيق مبدأ
من مبادئ المدنية ؟ وهل لنشاطك تلك الصبغة الاوربية المتنورة
التي لا ينفعنا غيرها الآن ؟ فان كان كذلك فسر على بركة الله ! ثم
احمد الله لأنك لست وحدك الآن . لن تكون « باذرا فى الصحراء » ،
فبيننا الآن كثير من العاملين ... من الرواد ... ولكنك يجب
أن تسرع الآن . وداعا ، لا تنسنى !

هبط لتفينوف الدرج مسرعا ، وارتدى فى عربة ، وقصد الى
المحطة دون أن يلتفت مرة واحدة الى المدينة التي ترك فيها شطرا
كبيرا من حياته ومن نفسه . كان كرجل أسلم نفسه الى موجة
عالية فاخترقته وحملته وهو عازم كل العزم ألا يقاومها ، مضرب
عن كل محاولة أخرى لاثبات ارادته .
وبينما كان بهم بدخول عربة القطار سمع من خلفه همسة
ضارعة :

- جريجورى ميهالتش ... جريجورى ...
وانتفض .. ايمكن أن تكون ايرينا ؟ .. أجل ، انها هى . كانت
واقفة على الرصيف تنظر اليه بعينين خائيتين ، وقد تلفعت بشال
خادمتها ، ووضعت على شعرها المشعث قبعة سفر .
كانت العينان تقولان : عد ، عد ، لقد جئت من أجلك . وأى
وعود كانتا تعدان ! لم تتحرك ، ولم تقو على أن تزيد كلمة
واحدة ، ولكن كل ما فيها ، حتى ثيابها المهوشة ، بدا وكأنه
يدعو مسترحما ...

وكاد لتفينوف ينهزم ، وبلاى ما استطاع أن يمنع نفسه من
الاندفاع اليها ... ولكن الموجة التي أسلم نفسه اليها استعادت
سلطانها . فقفز الى داخل العربة ، والتفت مشيرا لايرينا الى
الكرسى بجانبه . وفهمت . لم يفت الوقت . خطوة واحدة ،
حركة واحدة ، واذا بحياتين ، وحدتا الى الابد ، تفيبان فى البعد
المجهول ...

وبينما هي في تردددها ارتفع صغير عال ، وتحرك القطار . وتداعى لتفينوف على مقعده ، بينما سارت إيرينا مترنحة الى كرسي ، فتهاكت عليه . ورآها موظف دبلوماسي صغير كان يتسكع في المحطة ، فذهل . . كان يعرف إيرينا معرفة جد عابرة ، ولكنه كان شديد الإعجاب بها ، ولما رآها مستلقية كالمفشى عليها ظنّها أصيبت *une attaque de nerfs* - (١) ، ومن ثم رأى واجبا عليه باعتباره *un galant chevalier* (٢) أن يخف لنجدتها . لكن دهشته تضاعفت حين هبت لأول كلمة وجهها اليها ، ودفعت ذراعه التي قدمها لها ، وخرجت الى الشارع لا تلوى على شيء . ولم تلبث أن اختفت في ضبابية بيضاء كثيفة من ذلك الضباب الذي يميز جو الغابة السوداء في مطلع الخريف .

١١ « نوبة عصبية » .
٢ « فارنسا شهما » .

اتفق لنا مرة أن دخلنا كوخ امرأة فلاحه فقدت منذ قليل
وحيدها الحبيب ، وشد ما دهشنا حين رأيناها هادئة كل الهدوء ،
تكاد تكون فرحة . فقال لنا زوجها حين لاحظ دهشتنا :
« دعوها ، فهي الآن لا تحس » . وهكذا فقد لتفينوف احساسه ،
فهبط عليه ذلك الهدوء الميت أثناء الساعات الاولى من رحلته .
لقد كان محطم النفس ، شديد البؤس ، ولكنه كان يستريح .
كان يستريح بعد عذابات الاسبوع الماضى ووساوسه ، والضربات
التي توالى على رأسه ، وضاعف من شدتها عليه انه لم يكن
مستعدا بطبعه لمثل هذه العواصف . انه الآن لا يرجو شيئا فى الواقع ،
ولكنه يحاول أن ينسى الماضى . أن ينسى الماضى ، هذا هو المهم .
انه ذاهب الى روسيا . فلا بد أن يذهب الى مكان ما ، ولكنه لم
يعد يرسم لنفسه خطة ، فهو لا يعرف نفسه ، ولا يفهم أفعاله ،
وكانما فقد نفسه الحقيقية ، والحق انه أصبح قليل الاهتمام بهذه
النفس . وكان يخيل اليه أحيانا أنه من المحال أن يسمح رجل
(رجل !) لنفسه بأن يخضع هذا الخضوع للمرأة ، الحب ...
يتمتم : « يا للضعف المزرى ! » وينفض معطفه ، ويعتدل فى
جلسته ، وكأنه يقول : ان الماضى قد انتهى ، فلنبدا من جديد ..
وما هى الا لحظة واحدة حتى يتسهم ابتسامة مرة ، ويتعجب من
حالته .

وجعل ينظر من نافذة القطار .. كان الجو أغبر رطبا ، لامطر
فيه ، ولكن الضباب لا ينكشف ، والسحب الدانية تحجب السماء .
وهبت الريح فى مواجهة القطار ، فاندفع أمام النافذة التى جلس
اليها لتفينوف موكب متلاحق من أمواج البخار البيضاء ، بعضها
خالص وبعضها ممزوج بسحب الدخان القائمة . وأخذ لتفينوف
يرقب هذا البخار والدخان . كانت السحب تمر بعد السحب ،
ولا تزال تصعد ، وتعلو وتهبط ، وتتلوى وتتعلق بالأعشاب
والشجيرات ، وكأنها تلعب فى إحدى المساحر . ثم تتعدد وتذوب فى

الفضاء ... كانت تتبدل دائما وهي لا تزال كما هي .. لعبة سريعة
سخيفة مكررة ! وكانت الريح تتغير حين ينحرف الخط يمنة أو
يسرة ، فيتلاشى الرعيل كله فجأة ، وسرعان ما يبدو مرة أخرى من
النافذة المقابلة . ثم ينتشر الذيل الضخم مرة أخرى فيحجب عن
بصر لتفينوف سهل ألرين الفسيح . حدق وحدق ، واستولى عليه
شروود غريب... كان وحيدا في المقصورة ، لم يكن هناك من يزججه،
فردد مرات عديدة : دخان ، دخان . وفجأة بدا له كل شيء دخانا
- كل شيء : حياته هو ، والحياة الروسية ، وكل ما هو بشري،
وعلى الخصوص كل ما هو روسي . الكل دخان وبخار - هكذا
قال لنفسه - كل شيء يبدو دائم التغير في كل مكان أشكال
جديدة ، أحداث بعد أحداث ، وكل شيء كما هو في الصميم . كل
شيء يسرع طائرا الى وجهة ما ، وكل شيء يتلاشى دون أن يترك
أثرا أو يبلغ أمرا . وتتغير الريح ، فيسرع كل شيء في الاتجاه
المضاد ، وهناك تبدأ نفس اللعبة المستمرة القلقة العقيمة . وتذكر
كثيرا مما شاهده بنفسه في السنوات الأخيرة من أحداث أحيطت
بلاضحيج والتهريج ، فهمس : دخان . دخان . وتذكر الجدول
العنيف والصياح والنقاش عند جوباريوف ، وعند أناس آخرين
منهم الشبان والشيوخ ، والبسطاء والعظماء ، والتقدميون
والرجعيون . فردد : دخان ، بخار ودخان . وتذكر أخيرا تلك
النزهة الأنيقة ، وتذكر خطبا وتصريحات لأشخاص آخرين يعدون
أنفسهم اكبرى المناصب - حتى كل مواعظ بوتوجين ... دخان،
دخان ، لا شيء أكثر من دخان . وجهوده وعواطفه وآلامه
وأحلامه ؟ لم يستطع لتفينوف الا أن يلوح بيده في قنوط .

هذا والقطار ينساب وينساب . وقد خلف راشتات وكارلسروهة
وبروكسال منذ زمن طويل ، وانفرجت الجبال عن يمين
الخط ، وتراجعت الى الفضاء البعيد ، ثم اقتربت ثانية ، ولكنها
كانت أقل ارتفاعا ، والقباب التي تكسوها أقل كثافة .. وانثنى
القطار في المحطة المسقوفة واذا بأصوات باعة الجرائد يحملون كل
أنواع الصحف حتى الروسية . وأخذ المسافرون يتحركون في
مقاعدهم ويهبطون الى الرصيف ، ولكن لتفينوف لم يغادر ركنه ،
بل ظل جالسا فيه مطرق الرأس . وفجأة ناداه شخص باسمه ،
مرفع بصره . كان بنداسوف يطل بمحياء الكريه من النافذة ،
وكانت وراءه - أم كان يحلم ؟ كلا ، بل كان كل من وراءه وجوها

مأذوبة من بادن : مدام زوها نتشيكوف ، وفوروشيلوف ،
وبمبايف . وكانوا كلهم يتحركون نحوه ، بينما زعق بنداسوف :
- أين بشتشالكن ؟ لقد كنا ننتظره . سيان على كل حال .
نظ يا زواغ نحن ذاهبون جميعا الى جوباريوف .

وقال بمبايف مؤكدا وهو يشق طريقه اليه :
- نعم يابني ، نعم . ان جوباريوف ينتظرنا . نظ !
ولولا حمل ثقيل على قلب لتفينوف لاستشاط غضبا . ولكنه
نظر الى بنداسوف واشاح بوجهه دون ان يتكلم .
فصرخت مدام زوها نتشيكوف وعيناها تقفزان من رأسها قفزا :
- ألا تسمع ؟ ان جوباريوف هنا !
فلم يحرك لتفينوف ساكنا .

وبدا بمبايف يقول أخيرا :
- استمع - بالله - يا لتفينوف ! ليس جوباريوف وحده هنا .
ان هنا فرقة كاملة من ألمع الشسبان الروس وأذكاهم - وكلهم
يدرسون العلوم الطبيعية ، وكلهم شرفاء مخلصون ! حقا يجب أن
تخرج على هذا المكان ، ولو من أجل هؤلاء . هنا مثلاً شخص
يدعى .. ياسلام ! نسيت اسمه . ولكنه عبقري ، عبقري !
فقاطعته مدام زوها نتشيكوف :

- أوه ، دعه دعه ياروستيسلاف أرداليونوفتش . دعه ! انت
ترى أى مخلوق هو ، وأسرته كلها مثله . له عمة كنت اظنها اول
الأمر سيدة عاقلة ، ولكنى سافرت معها اول أمس - كانت حضرت
الى بادن منذ قليل ، وفي غمضة عين رجعت - المهم ، كنا فى القطار
معا وبدأت أسألها ... فهل تصدقون انى لم أستطع الفوز بكلمة
من ذلك الجماد ؟ ارستقراطية فظعة !

كابيتولين ماركونا المسكينة ارستقراطية ! اكان يمكنها ان تتوقع
مثل هذه الإهانة ؟

ولكن لتفينوف ظل صامتا ، واشاح بوجهه عن الجماعة ،
وجذب قبعته على عينيه . وأخيرا تحرك القطار . فصاح بمبايف :
- طيب ، قل شيئا على سبيل الوداع ، يا حجر ، الناس
لا يتصرفون هكذا !

وصرخ بنداسوف :
- طفل ! ابله !

وازدادت سرعة القطار ، فأطلق بنداسوف شتائه آمنا من العقاب :

— بخيل ! عفن ! مدود !

وسواء اخترع بنداسوف هذا اللقب الاخير عفوا أم كان قد تعلمه من أحد ، فقد أعجب اثنين من الشبان الشرفاء الذين يدرسون العلوم الطبيعية ، وكانا واقفين على قرب ، فظهر بعد أيام في الوريقة الدورية التي كانت تنشر آنذاك في هيدلبرج ، بعنوان :
A tout venant je crache ! أو « لايهمنى » . (١)

وأخذ لتفينوف يردد مرة أخرى : « دخان ، دخان ، دخان ! » وقال في نفسه : في هيدلبرج الآن أكثر من مائة طالب روسي ، كلهم يدرسون الكيمياء والطبيعة ووظائف الاعضاء — ولا يكادون يطيقون أن يذكر أمامهم شيء آخر ... وبعد خمس سنوات أو ست لن يوجد خمسة عشر طالبا يستمعون الى محاضرات الاساتذة المشهورين أنفسهم . ستتغير الريح .. ويهب الدخان .. في اتجاه آخر ... دخان . دخان ... !

ومر قرب المساء بكاسل . وانقض عليه الألم مع الظلام كما ينقض العقاب ، وبكى وهو يدفن نفسه في ركن العربة ، فاضت دموعه طويلا ، لم تفسل قلبه ، بل زادت على عذابه لما مرا حارقا . وفي الوقت نفسه كانت تاتيانا راقدة في أحد فنادق كاسل ، وقد وقذتها الحمى ، وكابيتولين ماركوفنا جالسة بجانبها تقول :

— تانيا ! بالله دعيني أبرق الى جريجورى ميهالتش ! دعيني أفعل يا تانيا !

فتجيب :

— لا ياعمتى ، يجب الا تفعل . لا تخافى ، أعطيني قليلا من الماء ، سأشفى بعد قليل .

وكان بعد أسبوع أنها تماثلت للشفاء ، فواصلت الصديقتان رحلتهما .

عاد لتفينوف الى ضيعته دون ان يعرج على بطرسبرج او موسكو . وفزع حين رأى اياه ، فقد كان ضعيفا متداعيا . أما الشيخ ففرح بعودة فتاه ، كما يفرح رجل في أخريات أيامه ، وأسلم اليه من فوره ادارة الضيعة . وكانت في حال سيئة ، وامتدت حياته بضعة أسابيع أخرى . ثم فارق هذا الكوكب الارضى . وبقي لتفينوف وحيدا في داره الصغيرة القديمة ، وبدأ زراعته بقلب مثقل ، وبلا رجاء ولا حماس ولا مال . والزراعة - كما يعلم الكثيرون - عمل لابهجة فيه ، فلن نطيل القول عما لقيه لتفينوف فيها من عناء . أما الاصلاحات والابتكارات فلم يكن ثمة مجال للتفكير فيها ، ولم يكن بد من ارجاء التطبيق العملى لما حصله فى الخارج الى أجل غير محدود ، واضطره الفقر الى ان يتحامل على الايام ، ويتسامح في كثير من الامور المادية والمعنوية . كانت المبادئ الجديدة لم ترسخ أصولها بعد ، والمبادئ القديمة قد فقدت كل قوة . كان الجهل يرتطم بالخيانة ، ونظام الحياة الذى اهتز من اساسه يضطرب كوحل زلق ، ولم تكن هناك الا كلمة واحدة عظيمة ترف كروح الله على الماء : كلمة الحرية . لم يكن بد من الصبر أولا ، الصبر فى غير سلبية بل ايجابية مثابرة ، لا تخلو من مكر وحيلة . وضاعفت حالة لتفينوف النفسية صعوبة الأمور . لم يبق فيه الا قليل من ارادة الحياة .. فأين له بارادة العمل والجهد ؟ لكن مضى عام بعده عام ، وبدأ عام ثالث . وكانت الفكرة العظيمة (١) تتحقق رويدا رويدا ، وتكتسب لحما ودما ، كان الشطء قد نبت من الحب المبدور ، ولم يعد أعداؤه الظاهرون او المستترون بقادرين على أن يطئوه بالاقدام . ومع ان لتفينوف انتهى بتأجير القسم الاكبر من الارض للفلاحين على نظام المزارعة - اى عاد الى الطرق البدائية الفقيرة - فقد نجح فى بعض مشروعاته : فتح المصنع من جديد ، وبدأ مزرعة صغيرة بخمسة عمال - وقد

(١) فكرة تحرير الفلاحين .

جرب أربعين حتى اختار هؤلاء الخمسة - وسدد ديونه الخاصة الكبرى ... وتماسكت نفسه حتى استعاد مثابه من لتفينوف القديم . صحيح ان كآبة دفينه لم تفارقه قط ، وانه كان أهداً من سنه . وانه حبس نفسه في دائرة ضيقة ، وقطع كل علاقاته العديمة ... ولكن تلك الاستهانة الميتة ذهبت . وعاد يتحرك ويعمل كرجل حي بين الأحياء ، وذهبت آخر آثار ذلك السحر الذي أحاط به : وبدأ له كل ما حدث في بادن غائماً كالعلم ... وإيرينا ؟ حتى هي شحبت واختفت ، الا احساساً غامضاً بالخطر كان يشعر به لتفينوف تحت الضباب التي أخذت تكتنف صورتها . وكانت تصل اليه في الحين بعد الحين أخبار عن تاتيانا . فعلم أنها تعيش مع عمتها في ضيعتها التي تبعد عنه بمائة وستين ميلاً ، وأنها تحيا حياة جد هادئة ، ولا تخرج الا قليلاً ، ولا تكاد تستقبل ضيوفاً . ولكنها بخير وعافية .

وفي يوم جميل من أيام مايو كان جالساً في مكتبه ينظر بغير اهتمام في صفحات العدد الأخير من مجلة بطرجية ، حين دخل خادمه علياً قدوم عم عجوز . كان هذا العم قريباً لكابيتولين ماركوفنا ، وقد زارها حديثاً ، وكان قد اشترى ضيعة قريبة من ضيعة لتفينوف . فمر عليه في طريقه . ولبث مع ابن أخيه يوماً كاملاً ، وحدثه طويلاً عن معيشة تاتيانا . فلما رحل في اليوم التالي أرسل إليها لتفينوف رسالة كانت الاولى منذ فراقهما . سألها أن تأذن له في تجديد تعارفهما ولو بالمراسلة ، كما رغب أن تخبره ان كانت يجب عليه ألا يفكر في رؤيتها ثانية . ولم يكن انتظاره للجواب خالياً من قلق واضطراب ... وأخيراً جاء الجواب . لقد رحبت تاتيانا بطلبه ، وختمت رسالتها بقولها : اذا كنت ترغب في زيارتنا فمرحبا بك ، أنت تعلم المثل : « الشركة خير حتى في البلوى » . كما كتبت اليه كابيتولين ماركوفنا تحية . وأصبح لتفينوف سعيداً كالطفل ، فما خفق قلبه منذ زمن طويل فرحاً بشيء كما فرح الآن . أحس فجأة بالبهجة والمرح ... كذا الشمس لا تكاد تشرق وتجلي ظلمة الليل حتى يرف على وجه الأرض المنتعشة نسيم لطيف . وظل لتفينوف يتسم طول النهار حتى وهو في مزرعته يلقي أوامره . وأخذ يستعد من فوره للرحلة . وبعد أسبوعين كان في طريقه الى تاتيانا .

سار بعربته مبطنًا . في طرق جانبية ، دون مغامرات . وحدث مرة أن انكسر اطار احدى العجلتين الخلفيتين . فأخذ الحداد يطرقة ويلحمه وقتًا طويلا . وهو يلعن الاطار ويلعن نفسه معا ، ثم انتهى بأن يؤس منه . ولحسن الحظ ظهر أن المرء في بلادنا يستطيع أن يسافر دون عناء باطار مكسور ، وخصوصا اذا كان مسافرا « على لين » ، أى على الطين . على ان لتفينوف التقى في رحلته هذه بأناس ما كان يتوقع لقاءهم . فشهد بعد مرحلة من الطريق جلسة « لقضاة التحكيم » وكان يرأسهم بشتشالكن الذى بدا له أشبه بصولون أو سليمان الحكيم ، اذ كانت عباراته موسومة بطابع الحكم الفوالى ، وكان ملاك الأرض والفلاحون على السواء يظهرون له غاية التبجيل... وحتى منظره بدا أشبه بحكامه الاقدمين ، فقد انجرد شعره عن يافوخه ، وانتفش وجهه حتى بدا كخميرة من الفضائل الراقية... وقد رحب بمقدم لتفينوف « الى اقليمى ، ان جاز لى أن أستعمل مثل هذا التعبير الجرىء . » ثم غرق في الصمت ، كأنما أخذته نوبة من المشاعر الطيبة . على انه نجح في أن ينهى اليه خبرا . وكان هذا الخبر عن فوروشيلوف ، فقد عاد بطل اللوحة الذهبية للخدمة العسكرية ، وتمكن فعلا من القاء محاضرة بين ضباط كتبته في موضوع « البودزم » - أو « الدينامزم » - لم يستطع بشتشالكن أن يجزم بأيهما . وانتظر لتفينوف في المحطة الثانية طويلا حتى تسرج الخيل . وكان الوقت سحرا ، والنعاس يخامره وهو جالس في عربته ، حين أيقظه صوت بدا له مألوف ، وفتح عينيه... يا للسماء ! اليس هذا هو جوباريوف في سترة شهباء كالتي يلبسها البحارة ، وسراويل نوم فضفاض ، واقفا على درج المحطة ، يسب ويلعن ؟.. لا ، انه لم يكن جوباريوف... ولكن ما أتم الشبه بينهما !.. لولا أن هذا السمين كان أضخم فكا ، وأبرز نواجد ، وكانت نظرات عينيه الكابتين أشد توحشا ، كما كان أنفه اكبر ، ولحيته أكث ، ووجهه كله أغاظ وأشد تنفيرا .

جار ببطء وحنق ، فاعرا فاه الذى يشبه فم الذئب :
- حيوانات ! حيوانات ! فلاحون بهائم !.. هذه هى الحرية
التي تتباهون بها ... الخيل لا نستطيع أن نجدها ...
- حيوانات ، حيوانات !

انبعث هذا الصوت الآخر من وراء الباب ، وفي الوقت نفسه
ظهر على الدرج فى سترة شهباء كالتي يلبسها البحارة وسراويل
فضفاض أيضا - جوباريوف الحقيقى هذه المرة ، جوباريوف نفسه ،
ستيبيان نيكولايفتش جوباريوف ، لاشك فى ذلك . استمر يقول
مقلدا أخاه (وقد ظهر أن السيد الاول كان أخاه الاكبر ، رجل
المدرسة القديمة المشهورة بعنف قبضتيه ، والذي كان يدير ضيعة) :
- بهائم ! دواؤهم الجلد ، اسمع كلامى . لكمة أو لكتان فى
الانف ، هذه هى الحرية التى تلائمهم ... قال « رئيس الفولوست »
قال (١) ... والله عال . سأعرفكم من رئيس الفولوست .

ولكن أين هذا المسيو روستون ؟.. ماذا دهاه ؟.. هذا عمله ..
الصلوك الكسلان ... كيف لا يجنبنا هذه المضايقات ؟
فبدأ جوباريوف الاكبر يقول :

- يا أخى ألم اقل لك دائما انه لاينفع ؟ صلوك كسلان ، هكذا
هو ! ولكن من أجل افكارك القديمة ... موسيو روستون !
موسيو روستون ! أين ذهبت - عليك اللعنة !
وجار الأصفر ، جوباريوف العظيم :

- روستون ! روستون ! ازعق عليه زعقة طيبة يا أخى
دوريميدونت نيكولايتش !
- حسنا ، انى أصبح به ياستيبيان نيكولايتش ! مسيو
روستون !

فسمع صوت معجل :

- هانذا ! هانذا !

ومن خلف ركن المحطة وثب ... بمبايف .
فكتم لتفينوف شهقة . كان المتحمس المسكين يضطرب اضطرابا
محزنا فى سترة مطرزة بالية ممزقة الكمين ، أما ملامحه فلم تتغير
على التحقيق ولكنها امتطت والتوت ، وكانت عيناه الصغيرتان
اللتان استوليا عليهما القلق تعبران عن وجل ذليل وخضوع جائع ،

(١) « الفولوست » فى روسيا قبل الثورة ، صورة من صور الحكومة اللامركزية
تشبه المجلس المحلى فى مصر .

ولم يزل شاربه المصبوغ يبرز كسابق عهده فوق شفثيه المتفتحين .
ما كاد يظهر حتى أخذ الشقيقان يعنفانه معا من أعلى الدرج .
فتوقف دونهما في الطين وقد حنى ظهره في ضراعة ، وحاول أن
يتملقهما بابتسامة صغيرة عصبية ، وهو يعجن قبعته بين أصابعه
الحمراء ، ويداول بين قدميه ، ويتمتم أن الخيل ستحضر بعد
قليل ... ولكن الاخوين لم يسكنا حتى وقع بصر اصفرهما على
لتفينوف ، وسواء أعرف لتفينوف أم أحس بالخجل أمام أجنبي ،
فقد دار على عقيقه مسرعا كالدب ، ودخل المحطة وهو يقرض على
لحيته ، وأمسك أخوه عن الكلام من فوره ، وتبعه وهو يدور
كالدب أيضا . انجوباريوف العظيم لم يفقد سلطانه حتى في وطنه .
وهم بمبايف أن يتبع الاخوين ... فناده لتفينوف باسمه .
فالتفت ، ورفع رأسه ، وعرف لتفينوف ، فطار اليه طرانا وقد
بسط ذراعيه . ولكنه حين وصل الى العربة أمسك بيابها وسند
صدره عليه وانفجر باكيا بدموع غزيرة .

فقال لتفينوف وهو ينحنى عليه ويربت على كتفه :

— هون عليك يا بمبايف !

لكنه استمر في الكآء ، وتمتم بين شهقاته :

— أنت ترى ... أنت ترى ... الى اى ...

وزار الاخوان في السقيفة :

— بمبايف !

فرفع بمبايف رأسه ، ومسح دموعه عجلا وهمس :

— مرحبا ، مرحبا أيها الحبيب ، ووداعا ! .. أنت سامع ، انهما

ينادياني .

فسال لتفينوف :

— ولكن اى مصادفة جاءت بك الى هنا ؟ وما معنى هذا كله ؟

لقد ظننتهما يناديان رجلا فرنسيا .

فأجاب بمبايف وهو يشير الى السقيفة :

— اننى ... مدير منزلهما ... رئيس الخدم . وقد أصبحت

فرنسيا على سبيل المزاح . ماذا كنت أستطيع عمله يا اخى ؟ لم

أجد ما آكله . أضعت آخر فلس . هكذا يضطر المرء أن يضع

رأسه في النير . نزلت عن كبريائى لأعيش .

— وهو ... اهو في روسيا منذ وقت طويل ؟ وكيف ترك رفاقه ؟

— آه يابنى ! هذا كله راح وانتهى ... الريح تغيرت — كما

ترى . مدام زوهانتشيكوف ... ماترونا سميونوفنا طردها
شر طردة . فسافرت حزينه الى البرتغال .

— البرتغال ؟ غريبة !

— نعم يا اخى : الى البرتغال ، مع اثنين من الماتروفيين .

— مع من ؟

— الماتروفيين . هذا اسم أعضاء حزبها .

— هل لماترونا سميونوفنا حزب ؟ حزب كبير ؟

— حسنا . انه مؤلف من هذين العضوين بالتحديد . اما هو
فله هنا ما يقرب من ستة اشهر . غيره اعتقلوا ، ولكنه لم يصب
بسوء . انه يعيش فى الريف مع أخيه ، ويا ليتك سمعته الآن ..
— بمبايف !

— حاضر يا ستيبان نيكولايتش ، حاضر . وانت ايها العجوز !
مستريح ؟ مبسوط ؟ الحمد لله على ذلك ! أين تذهب الآن ؟ ..
ياسلام ! .. ولا كان على البال ... أتذكر بادن ؟ آه ! كانت
أيام ! وبالمناسبة : تذكر بنداسوف أيضا ؟ مات .. تصدق ؟ ..
وجد وظيفة فى مصلحة الدمغة ، وكان فى احدى الحانات فدخل فى
عركة ، وشجوا رأسه بعضا بليارد . نعم ، نعم ، كذا حال الدنيا !
ولكنى سأقول دائما : روسيا ! يالها من بلد ! انظر الى هاتين
الأوزتين ! ليس فى أوربا كلها ما يشبههما ! أوزتان ماسيستان
أصيلتان !

وبعد أن أدى بمبايف ما يجب عليه لتحمسه الذى لا يفتر ،
أسرع الى المحطة حيث كان اسمه ينادى مرة أخرى بنعوت بذئنة .
وعند الأصيل شارف لتفينوف ضيعة تاتيانا . وكان المنزل
الصغير الذى تقيم به خطيبته السابقة رابضا على سفح جبل يجرى
من تحته جدول صغير ، وتحيط به حديقة حديثة الفرس . وكان
المنزل حديث البناء أيضا ، يرى من مسافة بعيدة عبر النهر والخلاء .
وقع نظر لتفينوف عليه من بعد يزيد عن ميل ونصف ، بزواياه
المستقيمة ، ونوافذه المتوازية الصغيرة التى كانت تلمع حمراء فى
شمس الإصيل . وكان قد أحس بقلق خفى حين غادر المحطة
الاخيرة ، والآن ملأه الاضطراب ، جاشت نفسه بفرحة مازجها
خوف . سأل نفسه : كيف يقابلانى ؟ وكيف اقترب منها ؟ ولكى
يشغل نفسه أخذ يتحدث مع سائقه ، وكان فلاحا رزينا أشيب
الliche ، طلب منه — على الرغم من شيبه وزناته — أجر خمسة

وعشرين ميلا مع أن المسافة كانت عشرين .. سألته : أيعرف جماعة شستوف ؟

- جماعة شستوف ؟ نعم ، سيدتان طبيبتان ، نعم الناس !
تطباننا أيضا . اى والله ، انهما طبيبتان ! الناس يذهبون اليهما
من المنطقة كلها . اى والله ، ناس مالهها عدد . مثلا اذا واحد
مرض ، أو جرح ، أو اى شىء ، يذهب اليهما توا ، فيعطيه
شرايا أو مساحيق أو لزقة ، ويطيّب . الدوا ينفع . ولا تأخذان
اى نقود . تقولان : نحن لا نفعل هذا من أجل النقود ...
وعندهما مدرسة أيضا ... لكن ما فائدة المدرسة ؟

ولم يرفع لتفينوف عينيه عن المنزل بينما كان السائق يتكلم .
وبرزت الى الشرفة امرأة فى ثياب بيض ، وقفت قليلا ، ثم
اخذت ... ألم تكن هذه اياها ؟ كاد قلبه يطفر ، وصاح بالسائق :
- أسرع ، أسرع !

واستحث السائق الجواد . وبعد لحظات اخرى ... دخلت
العجلة من البوابة المفتوحة ... كانت كاييتولينا ماركونا واقفة
على الدرج ، تصفق بيديها وتصيح وهى تكاد تطير فرحا : « انا
عرفته . عرفته قبلك ! هو ! هو ! .. عرفته ! »

قفز لتفينوف من العربة قبل أن يستطيع الغلام المقبل فتح
بابها ، وعانق كاييتولينا ماركونا مسرعا ، واندفع الى المنزل ،
وعبر البهو ، ودخل حجرة الطعام ... كانت تاتيانا واقفة امامه ،
وقد تورّد وجهها خجلا . نظرت اليه بعينيها الحنونين اللطيفتين
(كانت اكثر نحولا ، ولكن ذلك زادها جمالا) ، ومدت اليه
يدها . لكنه لم يتناول يدها ، بل سقط على ركبتيه امامها .
ولم تكن تتوقع هذا ، فلم تدر ماذا تقول أو تفعل .. واغرورقت
عينها بالدموع . لقد ذعرت ، ولكن وجهها كله كان يتألق بشرا ..
قالت : « جريجورى ميهاليتش ! ما هذا يا جريجورى ميهاليتش ؟ »
وهو لا يزال يقبل طرف رداؤها ... وتذكر فى غمرة من حنان انه
ركع على ركبتيه امامها فى بادن كما يركع الآن ... آنذاك -
والآن ! شتان ما بين المرتين !

ردد :

- تانيا ! تانيا ! هل عفوت عني يا تانيا ؟
فصاحت تانيا ملتفتة الى كاييتولينا ماركونا وقد دخلت الحجرة :
- عمتى ، عمتى ، ما هذا ؟

فأجابت السيدة العجوز الطيبة :

— لا تمنعيه يا تانيا . لا تمنعيه . انه جاء تأثبا !
وبعد ، فقد آن لنا أن نختم قصتنا ، والحق أن ليس هناك
شيء يزداد . يستطيع القارئ أن يحدس الباقي بنفسه ... ولكن
ماذا عن إيرينا ؟

انها لا تزال فاتنة رغم أعوامها الثلاثين ، يشغف بها شباب
لا يحصون عددا ، وكان يمكن أن تشغف آخرين لو ... لو ...
أيها القارئ ، ألا تعرج معنا دقائق على بطرسبرج ، لندخل منزلا
من أجمل المنازل هناك ؟ انظر ، ان أمامك بهوا فسيحا ، ولا نقول
انه فاخر الرياش ، فذلك تعبير يقصر عن وصفه ، ولكن نقول انه
رائع بارع مهيب . اتعروك هزة من الخضوع ؟ اذن فاعلم أنك
دخلت معبدا ، معبدا كرس للسلوك النبيل ، والنبيل المحسن ، أو
باختصار : لصفات عليين ... ان سكونا «كاثما للأسرار» يحتويك :
فالسجف المخملية على الابواب ، والستر المخملية على النوافذ ،
والبسط الوثيرة على الارض — كل شيء كأنه قدر تقديرا ليخفت
كل صوت خشن ، ويلطف كل احساس عيف . والمصابيح
المهندسة الضوء توحى بعواطف هادئة وقور . والهواء المحبوس
يتخلله أريج مهذب . حتى السماور على المائدة يثر أزيوا مكتما
خجلا . ان سيدة الدار — وهى شخصية هامة في مجتمع بطرسبرج
— تتحدث حديثا لا يكاد يسمع ، فهى دائما تتكلم وكان في الحجرة
مريضا مذنفا يكاد يحتضر . والسيدات الاخريات يقلدنها فلا يكدن
يهمسن ، بينما تحرك أختها شفيتها — وهى تصب الشاي —
حركات لا صوت لها ، حتى يحار الشاب الجالس أمامها ، وقد
ألقته المصادفة في معبد الآداب ، فهو عاجز عن فهم ما تريده منه ،
بينما هى تنفث للمرة السادسة :

(١) Voulez - vous une tasse de thé ؟

وفى الاركان شبان عليهم وسامة ، عيونهم تلمع بتذلل رقيق ،
وسيماهم متعلقة فى وداعة وجلال ، وصدورهم يلعب عليها — بلطف
— عدد من النجوم والصلبان . والحديث دائما لطيف يدور حول
موضوعات دينية ووطنية : « النقطة الصوفية » لف.ن. جلنكا ،
بمثنى التبشيرية فى الشرق ، الأديرة والاخوان فى روسيا البيضاء .

(١) « هل تريد قدحا من الشاي ؟ » .

أحيانا يتحرك خدام في حلل رسمية ، يخطون خطوا ملثما على البسط اللينة ، وكلما خطوا ارتعشت - بلا صوت - ربلاهم الضخمة التي غلفت بجوارب حريرية ضيقة ، فيزيد ارتعاش الهيبة في العضلات الصلاب ما يقع في النفس من احتشام المكان ووقاره وقديسيته .
انه معبد ، معبد !

سألت احدى السيدات العظيمات برقة :
- هل رايت مدام راتميروف اليوم ؟

فأجابت ربة الدار بنغم أثري كآرغن عوليس :

- لقيتها اليوم عند ليز . انى آسفة لها . فهي مرة الروح .
(١) Elle n'a pas la foi.

- أجل ، أجل . اذكر أن هذا ما قاله عنها بيوتر ايفانتش .
وانه لحق ... qu'elle set. quelle est. (٢) مرة الروح .

فانبعث صوت ربة الدار كأنه البخور :
- Elle n'a pas la foi, C'est une âme égarée. (٣) . انها

مرة الروح .

فتردد أختها بشفتيها فقط : انها مر الروح .

لهذا لم يقع الشبان جميعا بغير استثناء في هوى ايرينا ... فهم يخافونها... يخافون روحها المرة... وهذه هي القالة الشائعة عنها . وفيها ، كما في كل قالة ، نصيب من الصحة . ولا يخافها الشبان وحدهم ، بل الناضجون في السن ، ذوو المناصب العالية ، وحتى « الشخصيات » الكبيرة أيضا ، فلا أحد يضارعها في قدرتها النافذة على أن تلمح الجانب المضحك أو الوضع في نفسية شخص ما ، ولا أحد غيرها يستطيع أن يدمغه - في غير رحمة - بالكلمة التي لا تنسى ... وأن لدع هذه الكلمة ليزداد حدة اذ تخرج من بين شفتين عاطرتين جميلتين ... عسير أن تقول ماذا يجرى في قلبها ، ولكن الاراجيف لا تثبت بين عشاقها الكثيرين حبيبا تعزه .

زوج ايرينا يتنقل مسرعا في ذلك الطريق الذى يسميه الفرنسيون طريق المجد . وقد سبقه الجنرال السمين وتخلف عنه الجنرال

(١) « فاقدة الايمان » .

(٢) « أنها .. أنها .. » .

(٣) « انها فاقدة الايمان ، روح ضالة » .

المتسامح . ويعيش في المدينة التي تعيش فيها ايرينا صديقا
سوزوننت بروتوجين ، ولايراها الا نادرا ، فليس ثمة ضرورة معينة
تلتزمها الإبقاء على صلتها ... لأن البنت الصغيرة التي كانت في
رعايته قد ماتت منذ زمن غير بعيد .

تمت